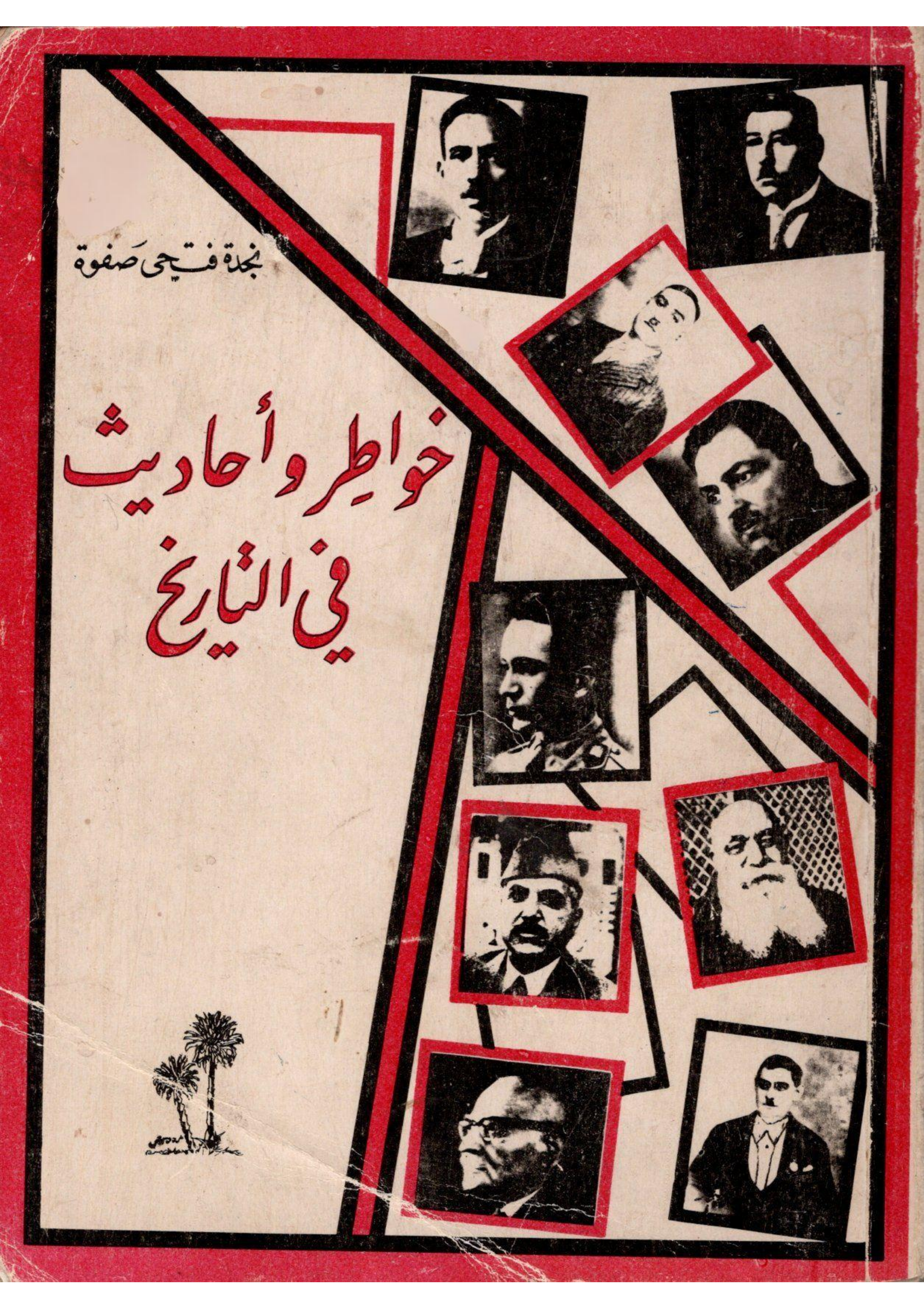

نجدة فتحي صفوة
خواطر وأحاديث
في التاريخ



خواطر وأحاديث في التاريخ

نجدة فتحي صفوة

خواطر وأحاديث في التاريخ



الطبعة الاولـــى

بغـــداد

١٩٨٣

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٣١٩ لسنة ١٩٨٣



مقدمة

تفضلت مجلة (الف باء) الغرّاء، في شهر نيسان سنة ١٩٨١، فطلبت اليّ أن أكتب لها حقلاً أسبوعيا يتناول الموضوعات التاريخية ومايدور حولها، فقبلت هذا العرض بسرور، واتفقنا على أن يكون عنوان الحقل (خواطر وأحاديث في التاريخ).

وقد تركت لي رئاسة تحرير المجلة الحرية الكاملة في اختيار الموضوعات التي أتناولها، ولكنها اقترحت -ولم تشترط- العناية بصورة خاصة بتاريخ العراق الحديث والمعاصر الذى تعلم أن لي به عناية، وأنه ينال اهتماماً متزايداً من القراء في الوقت الحاضر.

وبعد كتابة بضع مقالات عدت الى لندن، لاستئناف عملي في دراسة الوثائق البريطانية عن العراق والخليج العربي، وهو المشروع الذى كنت قد سافرت من أجله قبل ذلك، وواصلت

الكتــابــة من هنــاك ، فأرسلت الى (الف باء) عدداً آخــر من المقـالات . وكـان عمـلي في الوثائق مرهقا يستغرق وقتي كله ، ولا يدع لي مجالا لأيّ عمل آخر. ولذلك اضطررت الى الانقطاع عن الكتـابـة من وقت لآخـر. ولكن رئـاسـة التحرير اتصلت بي من بغداد تلفونيا أكثر من مرة ، متسائلة عن سبب انقطاعي ، وراجية استمراري في الكتابة . وقد وجدت في هذا الاهتمام مجاملة كريمة كان لها عندي وقـع عميق ، فآليت على نفسي مواصلة الكتـابة بدون انقطاع .

ومن المعروف أن مجلة (الف باء) هي أوسع المجلات العراقية الأسبـوعيـة انتشـاراً، ولكنهـا مجلة عامـة وليست اختصـاصيـة ، وقـراؤهـا هم من مختلف الأعمار والثقافات والاهتمامات . يقرؤها الأستاذ الجامعي ، كما يقرؤها التلميذ الصغير . ويقرؤها الطبيب والمهندس ، والعامل والفلاح ، والفنان ورجل العلم ، والعسكري والمـدنيّ ، والمرأة والرجل . وازاء هذه القاعدة الواسعة ، المتنوعة في طبيعتهـا ونـوعيتهـا ، كان لابـدّ لما يكتب في هذه المجلة أن يكون مقبــولاً من أكـبر عدد ممكن من قرائهـا ، أي أن تكـون له صفـة (قـاسم مشـترك أعظم) إن جاز هذا الوصف . وقد كنت حريصاً على مراعـاة هذه النـاحيـة بقـدر الامكـان ، واضعاً تلك الحقيقة نصب عيني دائـما ، مع المحـافظـة ـ بقـدر الامكـان أيضـا ـ على مستـوى معـين يجعـل لهذه الفصـول ـ التي لم تكتب للعلماء ولا

للمؤرخين - قدراً من القيمة الثقافية، بحيث تحتوى على بعض المعلومات أو الآراء الجديدة التي قد يكون فيها شيء من الفائدة الى جانب المتعة الخالصة.

وقد وجدت أن التنويع في موضوعات الحقل يزيد القراء رغبة في متابعتها، إذ أبدى لي كثيرون ممن يتابعونها، ان التنويع الذي حرصت عليه يزيد من اهتمامهم، ويجعلهم يتساءلون على الدوام: ترى ماذا سيكون موضوع المقالة القادمة؟

وقد تجمّع الآن من هذه الفصول عدد كبير، واقترح عليّ أكثر من صديق أن أخرجها في كتاب يحتفظ به من كان يتابعها ويهتمّ بها من القراء، لأن الاحتفاظ بأعداد المجلة كلها قد لايكون بامكان كل قارىء. وكان هذا الأمر قد خطر ببالي أيضا، فشجعتني تلك الاقتراحات على اصدار هذه المجموعة الأولى. وقد ضمنتها - بصورة رئيسية - ماكتبته من موضوعات عراقية.

ولا شكّ أن الفضل الأول في حملي على كتابة هذه الفصول يعود الى مجلة (الف باء) والتشجيع الكبير الذى لقيته من رئاسة تحريرها، ومن كل فرد من أفراد أسرتها الذين وجدت فيهم إخوةً كرماء أعزاء، وأصبحت صلتي بهم جميعا من أجمل ما أعتزّ به. فاليهم جميعا أسجل شكري وامتناني فلولاهم لما كُتبت هذه

الفصـول، ولاصـدر هذا الكتاب. واذا كان المجال لايتسع لذكر أسمائهم الكـريمة جميعا، فلابدّ لي من تسجيل شكري وامتناني - بصـورة خاصـة - للأستاذ الشاعر والأديب سامي مهدي، رئيس مجلس ادارة «دار الجماهير»، والصـديق العزيز والكاتب الأديب الأستـاذ كامـل الشرقي، رئيس التحـريـر، والأخ الأستاذ رشيد الـرمـاحي، سكـرتـير التحـريـر، على ما أولوني اياه من تكريم ورعاية لاأنساهما ماحييت. ولا يفوتني طبعا أن أذكر الأخ الأستاذ نافع الملاح - الذى ترك (الف باء) الآن الى مهمة اعلامية أخرى - شاكراً ما أحاطني به من تقدير وتشجيع خلال فترة عمله في المجلة.

ومن الـواجب أيضـا أن أسجـل لمجلة (الف باء) شكـرا آخـر لتفضلهـا بالمـوافقـة على إعـادة نشـر هذه الفصـول التي كتبت، خصيصـا لها. ومـع ذلـك، فان ماجـاء فيهـا من آراء ومـواقـف، لايعـبرّ بالضـرورة عن آراء المجلة أو مواقفها، كما أن ماقد يشوبها من أخطاء أو نواقص، أمور لاتقع تبعتها على أحد سواي.

وهـذه الفصـول المختـارة تنشـر مع تعديلات بسيطة تقتضيها طبيعة اجتماعها في كتاب، ولكنها من حيث الأساس لاتخرج عن ماسبق نشره في المجلة. وقد أضفت اليها بعض الهوامش القليلة والاشارات الى بعض المصادر، مما لم يكن من المستحسن ايرادها

في مقـالات تنشـر في مجلة من نوع (الف باء) . كما أضفت الى الفصـل المعنـون (لماذا انتحـر عبـد المحسن السعـدون؟) نصّ البرقية السرّية التي بعث بها المندوب السامي البريطاني في العراق الى وزارة المستعمـرات على أثـر الحـادث، وقد عثرت على هذه البرقية بعد نشر المقالة في (الف باء)، كما ألحقت الفصل المعنون «مقتـل الملك غازي في الـوثـائق الـبريطـانيـة» بأربـع وثائق عن الموضوع . واحسب ان هذه الوثائق جميعها تنشر للمرة الاولى .

ومن الـواجب أن أسجـل شكـري لأخي الأستـاذ خيري العمـري على تفضله باعـارتي بعض التصـاوير المنشورة في هذا الكتاب من مجموعته القيّمة .

واني أزجي هذه الفصـول الى قرائي الأعـزاء، وكلي رجاء أن يتقبلوها بما تقبلوها به من رضا عند نشرها في المجلة للمرة الأولى .

نجدة فتحي صفوة

المحتويات

الصفحة

الصفحة

تصاوير الكتاب

صفحة

من أحداث بغداد في عهد الدستور العثماني

سنة ١٩٠٨

استولت «جمعية الاتحاد والترقي» على الحكم في الدولة العثمانية في تموز سنة ١٩٠٨، وأجبرت السلطان عبد الحميد الثاني على اعلان الدستور، فاهتزت لهذا الحدث الخطير أركان الدولة، وكانت له أصداؤه وآثاره في جميع أرجائها. ولما كانت «بغداد» من أهم ولايات الدولة العثمانية، كان من الطبيعي أن تحدث هذه التغييرات أثارها فيها، وتؤدى الى وقوع حوادث عديدة بسبب التخلخل السياسي والاجتماعي الذى صحبها.

وكان من أهمها تلك الحوادث التي وقعت في تشرين الثاني سنة ١٩٠٨ م. (أو شهر رمضان سنة ١٣٢٦ هـ) وانطلقت شرارتها من «جامع الوزير» في بغداد، ثم انشرت فعمت عاصمة الولاية كلها، ودامت بضعة أيام شهدت بغداد خلالها اضطرابات

كبيرة، ومظاهرات صاخبة هزت الولاية، وأقلقت سكانها، وهددت الأمن والنظام فيها.

وقد كتب «المقيم السياسي والقنصل العام البريطاني» في بغداد عن هذه الأحداث تقريرا سرّياً منفصلاً الى حكومته، وصف فيه ما حدث خلالها، ودوّن ما بلغه من معلومات، وأبدى رأيه في أسبابها وطرق معالجة الوضع الخطير الذي عَمَّ عاصمة الولاية.

لم تكن نيّات الاتحاديين العنصرية ظاهرة في بداية وصولهم الى الحكم، وانما كانت الشعارات التي ينادون بها هي: الحرية، والعدالة، والمساواة، ولذلك انتمى الى صفوفهم عدد من المثقفين العرب الذين استبشروا بهذه الشعارات، وتفاءلوا بها خيرا. ولكن الاتحاديين كانوا قد استعانوا، في اسناد حركتهم باليهود وبالماسونيين، وكان عدد من زعمائهم ينتمون الى طائفة «الدونمة» - وهم اليهود الذين تظاهروا بالدخول في الاسلام - والى المحافل الماسونية. ولذلك كان أقوى مركز لحركتهم في «مقدونيا» - وفي مدينة «سلانيك» بصورة خاصة - حيث يكثر أبناء تلك الطائفة، كما تكثر المحافل الماسونية.

وكذلك صحبت مجيء الاتحاديين واستيلاءهم على زمام

الحكم اشاعات مفادها أن بريطانية كانت وراءه، مما جعل مكانة الانكليز ترتفع في نظر الجماهير العثمانية في تلك الايام، لأنها أنقذتهم من الاستبداد الحميدي.

وكان من نتائج ما عُرف وما سُمع من علاقة اليهود والبريطانيين باستيلاء الاتحاديين على الحكم، وما نادوا به من شعار المساواة بين المواطنين، أن أخذ اليهود في بغداد (وكان عددهم نحواً من ستين ألفا) يظهرون ارتياحهم، ويشعرون أنهم أصبحوا متساوين في الحقوق مع المسلمين، بل أخذ بعضهم يتصرفون في تعاملهم مع المسلمين تصرفات تنم عن الرعونة، ويشعرون بنوع من الاعتداد بالنفس، بسبب قيام حكومة وصلت الى الحكم بمساعدة اليهود، ووجود دولة عظمى تسندهم وتحميهم.

ولم تكن تصرفات اليهود وحدهم هي التي أزعجت سكان بغداد وأثارت سخطهم، بل تصرفات بعض الاتحاديين أنفسهم أيضا. فقد رافقت اعلان الدستور ظاهرة الانطلاق في السلوك العام، والتحرر من القيود التقليدية، وأخذ الكثيرون من شبان الاتحاديين يستخفّون بشعائر الدين علناً، إظهاراً لتحررهم وتجددهم، مما كان يثير امتعاض الناس في ذلك المجتمع المحافظ، وبذلك خلقوا لأنفسهم ولحكومتهم منذ البداية أعداء

كثيرين بين الطبقات المحافظة، وكانت تلك الطبقات تؤلف أغلبية السكان.

وكان المقيم السياسي والقنصل العام البريطاني في بغداد شخصاً يدعى «الكرنل رامزى»، وكانت الحكومة البريطانية، بسبب أهمية بغداد بين الولايات العثمانية، تعيّن لتمثيلها فيها «مقيماً سياسياً» يتمتع في الوقت نفسه بصفة «قنصل عام».

أما والي بغداد في تلك الايام فكان «ناظم باشا»، وهو موظف مدني، وهو غير والي بغداد العسكري المشهور «الفريق ناظم باشا» الذى ولي على بغداد فيما بعد. وكان هذا الوالي رجلاً ضعيف الشخصية، مترددا. وقد جاء تعيينه من قبل بطانة القصر، وليس بترشيح من الاتحاديين الذين لم يكن يتمتع بثقتهم الكاملة، ولكنه بطبيعة الحال أصبح تحت تأثيرهم وأخذ يجاريهم على مضض. وزاده الخوف تردداً في اتخاذ قراراته، وضعفاً في ادارته.

ان انـدفـاع الاتحاديين الذى أزعج الكثيرين من سكان بغداد حمل عدداً من وجهاء المدينة المحافظين ورجال الدين فيها، على تأسيس جمعية باسم «المَشْوَر» كان من أعضائها السيد عبد الرحمن النقيب، وعيسى أفندي جميل زاده، والسيد يوسف العطا، وعبد الرحمن باشا الحيدرى، والشيخ سعيد النقشبندي،

وآخـرون. وكـانت هذه الجمعيـة - بطبيعـة الحـال - لاتجـاهـر بمعارضتها لجمعية الاتحاد والترقي أو مناهضتها للوضع الجديد، وانما كانت في ظاهرها جمعية دينية تهدف الى الدفاع عن الشريعة الاسـلاميـة ومقـاومة الأفكار «اللادينية». وقد رحب الوالي ناظم باشـا بتأسيس هذه الجمعيـة - التي كانت في الواقع حزباً سياسياً معارضاً - وارتاح لها وساعدها سراً.

وكان من أهم الاجراءات التي استتبعت اعلان الدستور اعادة الحيـاة النيـابيـة، وكـان السلطان عبد الحميد قد عطّلها منذ سنة ١٨٧٨، واجـراء الانتخـابـات العـامة في ولايات الدولة لاختيار نوابها - أو «مبعوثيها» - الى البرلمان.

وكـان الفـرع الـرئيس لجمعيـة الاتحـاد والـترقي في مدينـة «سـلانيـك»، فقـررت الجمعيـة عند قرب إجراء الانتخابات أن ترسـل الى بغـداد وفـداً مهمته تهيئة الجوّ لها، وتوجيهها لمصلحة الاتحـاديـين. ووصل هذا الوفد في اليوم العاشر من تشرين الأول سنـة ١٩٠٨ م (المصـادف ١٤ رمضان سنة ١٣٢٦ هـ) وكان يتألف من حمدى بك بابـان، وثـريا بك، وعمر بك. وكان الأول شابـاً عراقي الأصـل، نشأ في القسطنطينيـة، وكـان قد نُفي من بغـداد في أذار ١٩٠٨ بسبب نشـاطـه الاتحـادى وبحجة انه كان يراسـل ابن مدحت باشـا. وكان الثاني طبيباً تركياً عمل في بغداد

سنوات عديدة، وله فيها معارف كثيرون وعلاقات طيبة، ونُفي منها مع حمدي بك. أما الثالث فلم تكن له بالعراق صلة سابقة، ولكنه كان من غلاة الاتحاديين.

وكان في بغداد قبل اعلان الدستور عدد من المنتمين الى جمعية الاتحاد والترقي، معظمهم من طبقة «الأفندية»، وكانوا من الأتراك أو الذين كانت ثقافتهم تركية. فلما جاء الاتحاديون الى الحكم ازداد عددهم وأخذت الحكومة تشجع وجهاء المدن ورؤساء العشائر على الانتماء الى فروعها، فتهافت هؤلاء على الانتماء اليها تهافتا شديدا. وقد أعدّ الاتحاديون للوفد استقبالا فخما جدا، وبالغوا في الترحيب بهم، فامتعض الوالي لذلك وعدّه نكاية بمكانته وتحديا لسطاته. وصادف أن كان وصول الوفد في يوم سبت، حين يعطل اليهود أعمالهم، فخرجت أعداد كبيرة منهم للمشاركة في الاستقبال، وكانت نسبتهم بين المستقبلين تلفت النظر، وتفوق كثيراً نسبتهم الى سكان المدينة. وكان «مكتوبجي» الولاية - أي مدير التحرير - اتحادياً بارزاً، وقد شوهد خلال مراسم الاستقبال وهو يدخن علنا قبل غروب الشمس، وكان شهر رمضان في منتصفه، مما سبب نفرة كبيرة من الاتحاديين.

وفي اليـوم التـالي لوصـول الـوفـد، قرأ أحد ضباط الشرطة في مقـاهي بغـداد وأسواقها وأماكنها المزدحمة اعلاناً يدعو فية الأهالي الى حضور اجتماع مهم سيعقد في اليوم التالي في (جامع الوزير) - في شرق السـراي - حيث ستُتلى خطبـة سبق أن أُلقيت في (سلانيك) في موضوع الانتخابات المقبلة.

وفي يوم ١٣ تشـرين الأول ذهب رؤسـاء الاتحـاديـين الى الجامع، يصحبهم حسن أفندي، رئيس فرع الجمعية في بغداد، وشكـري أفنـدي الألـوسي، ومعـروف أفنـدى الـرصافي، وعبد اللطيف أفندى ثنيّان، وكلهم من الاتحاديين البارزين في بغداد، وكـان النـاس يؤدّون صلاة العصر، فصعد الرصافي على كرسي أُعـدّ له في صحن الجـامـع، وقـرأ الخطـاب، وكـان مؤدّاه أن الانتخابات يجب أن تكون على أساس كفاية النائب الشخصية، وليس استناداً الى نفوذه المحلي أو ثروته.

ولمـا انتهت تلاوة الخطـاب، وتفـرّق النـاس، أشـاع خصـوم الاتحـاديـين أن القـوم أهـانـوا الـدين الاسـلامي، وأن الرصافي أسكت قارىء القرآن وأهـانـه من أجل تلاوة كتاب الاتحاديين، وانتشر الخبر في بغداد، فثارت ثائرة أهلها.

وفي الأمسيـة نفسهـا أعدّ أعضاء «المشور» مذكرة وجهوها الى الوالي، وذكروا فيها أن كثيراً من المسلمين راجعوهم مشتكين بأن الجامع قد انتُهكت حرمته، وأن القرآن قد أُهين، وقيل إن أعضاء «المشـور» قد حرّضـوا النـاس على إخـراج الصبيـان والشبـان في مظـاهـرة ضد اليهـود، بحجـة أن الحكـومة لن تلتفت كثيرا الى مظاهرة يقوم بها الأحداث وحدهم، ولن تتخذ بحقهم إجراءات شديدة.

وفي مسـاء اليـوم التالي خرجت مظاهرة صاخبة قيل إنها بدأت من مقـرّ «المشـور»، فقـرع المتظـاهـرون الطبول، فتبعهم غوغاء النـاس والصبيـان، وطـافـوا في الشوراع والأسواق وهم ينادون: (الدين يا محمدا).

ويروى علي ظريف الأعظمي" أن هؤلاء المتظاهرين بينما كانوا ينـادون (الـدين يا محمـدا) نهبـوا في طريقهم كل ماصادفوه على رؤوس البـاعـة، وما وجدوه في بعض الدكاكين المفتوحة، وسلبوا بعض اليهـود، وتجـاوزوا بالنهب على قافلة كانت قد جاءت من كردستـان الى بغـداد ومـرّت في سوق السـراى، وفعلوا أفعـالا مخزيـة، ثم صاروا يدخلون السـراى ويخـرجون منه مراراً وينادون بطلب الحكم بالشـريعـة الاسلامية ولغو الدستور. وأخيراً خرج

اليهم الوالي ناظم باشا الأول، ووعدهم بكل مايريدون فلم يلتفتوا الى أقواله ومواعيده واستمروا على هياجهم، فاضطر الوالي الى جمع الأشراف، وطلب منهم تسكين الثائرين بالحسنى، فخرجوا اليهم في السراي، وأقنعوهم بما وعدهم به الوالي، فانصرفوا وعادوا الى أشغالهم بعد أن دامت ثورتهم بضع ساعات" [1].

أما المقيم السياسي والقنصل العام البريطاني (الكرنل رامزي)، فقد بعث بتقرير عن الحادث الى مرجعه في حكومة الهند ضمّنه تفاصيل طريفة.

أبدى الكرنل رامزي أن التقارير التي وصلت اليه عن الحادث كانت متضاربة ومتنوعة بحيث يكون من المستحيل معرفة ماحدث فعلا. منها مايدّعيه جماعة «المشور» من أن معروف أفندي الرصافي قاطع قراءة القرآن، أو أسكت خطيب الجامع أو الامام، ليلقي خطبته السياسية، وأن اليهود دخلوا الجامع منتهكين حرمته مدنسين حَرمه، في حين ذكر بعضهم للكرنل رامزي أن قارىء القرآن أو الامام لم يُقاطَع ولم يُسكَت، وانما كان

---

(١) علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٦، ص ٢٥٠

يقرأ ما كان يقرأ داخل الجامع، حين كان الرصافي يتلو الخطاب السياسي في فِناء الجامع وليس في المصلّى، ويضيف أنه يبدو من الواضح أن يهودياً أو عدداً من اليهود كانوا حاضرين في الاجتماع، ويصف ذلك بأنه كان عملا على جانب كبير الحماقة.

وهو يقول: إنه بعد انفضاض المظاهرة ذهب بعض أعضاء «المَشْوَر» الرئيسيين لمقابلة الوالي، فأرسل بطلب حمدي بك ورفاقه، وسألهم هل يوافقون على توقيف شكري أفندي الآلوسي، ومعروف أفندى الرصافي، وعبد اللطيف أفندي ثنيان، ترضيةً للرأى العام وتهدِئةً له، فلم يوافق حمدي بك على «توقيف» هؤلاء الاتحاديين المهمين ولكنه عاد فوافق في اليوم التالي، تفادياً لمزيد من المظاهرات والاضطرابات. فحُجِز الأشخاص الثلاثة يوماً أو بعض يوم. ولما قرر الوالي الافراج عنهم «رفضوا أن يغادروا السجن حتى يعرفوا المعلومات التي استُنِد اليها في توقيفهم لكي يستطيعوا اتخاذ الاجراءات القانونية بحقّ من وجّه اليهم تلك التهم».

ويصف «المقيم» في تقريره زيارةً قام بها القنصل الروسي العام الى السراى حين كان الناس متجمهرين على أبوابه، فظنّ أن الناس يرحبون به، فرفع قبعتة وانحنى أمامهم، ولكنهم قابلوه بأصوات الاستهزاء والاستهجان، فسارع بالدخول لايلوى على شىء.

ويذكر المقيم البريطاني بعد ذلك أن الوالي أرسل ترجمانه اليه ليطمئنه ويؤكد له أن الأمر ليس خطيراً، وأن الروايات التي بلغته مبالغ فيها، وأن ليس هنالك مايدعو الى القلق. فأجابه المقيم قائلا: «اذا كان بعض الناس قد ضخّموا الأمر أكثر من حقيقته، فان غيرهم يهوّنون منه أكثر من اللازم أيضا، وانني مستغرب كيف يستطيع سعادة الوالي اعتبار الوضع غير خطير. وقلت له أيضا إنه لما كان اليهود يسندون التجارة البريطانية بشكل واسع، فان أي هجوم عليهم يمسّ مصالحنا. واننا اذا أردنا أن نتفادى حدوث اضطرابات خطيرة أخرى، فلابدّ من أن تقوم في بغداد بصورة عاجلة حكومة أقوى من تلك التي توجد فيها منذ مدة».

ويشير المقيم البريطاني الى مقابلة مع محمد فاضل باشا الداغستاني، قائد الجيش السادس في بغداد، قال له القائد خلالها انه سيمنع حدوث أية اضطرابات خطيرة في المستقبل، وانه يعتمد على ولاء الجيش له، وسيحافظ على الهدوء والنظام سواء أرضي الوالي أم لم يرض. ثم يعلق المقيم في تقريره على الأحداث قائلا:

«... كان اليهود يحاولون اثبات مساواتهم المزعومة بطريقة استفزازية، وقد أصبح يُنظر اليهم وكأنهم يتمتعون بحماية الاتحاديين. والمظاهرات ضد اليهود ربما ذهبت الى أبعد مما كان يريده محركوها الذين كانوا يهدفون الى اجبار اليهود على اتخاذ

موقف الاحترام من المسمين، وبنفس الوقت اعطاء درس للاتحاديين. . . .».

ويبدى الكرنل رامزى أن الخطوات التي يقترح اتخاذها في المستقبل وردت في الفقرة الأخيرة من برقية بعث بها الى السفارة في القسطنطينية، في ١٦ تشرين الأول ١٩٠٨، وقد جاء فيها:

«أقترح، اذا أمكن،أن يُسحب ناظم باشا، وأن يوفر المال اللازم لدفع رواتب الجيش، وأن يُطلب الى الاتحاديين الكف عن أي نشاط سياسي فعال، وأن يُبرِق السلطان الى النقيب طالبا اليه أن يمارس نفوذه لغرض النظام، مؤكداً له في الوقت نفسه أن الدين الاسلامي ليس مهددا، وأن تُرسَل برقية مماثلة من الصدر الأعظم الى عيسى أفندي جميل زادة. ان عيسى أفندي من أنشط منظمي المعارضة والمظاهرات، ويستحسن أن يُلقى على عاتقه شيء من المسؤولية».

ويختم المقيم برقيته الى السفارة بقوله: «لا أرغب في أن يقترن اسمي بالاتحاديين، ولكن سيكون من المفيد أن يخضع هؤلاء الشبان الذين ليست لهم تجربة لنفوذ شخص يشعر بالمسؤولية»[1].

---

(١) تقرير من الكرنل رامزى الى المستر بتلر (سكرتير حكومة الهند) ـ سيملا، بتاريخ ١٩ تشرين الأول ١٩٠٨، وثائق وزارة الخارجية البريطانية رقم: F.O. 371/560 (42965)

وقد هدأت بغداد بعد ذلك، وانتهت هذه الحادثة التي شغلتها وأفزعت واليها وأقلقت أهاليها أياما عديدة.

ملحق

من المعروف أن معروف الرصافي وعبد اللطيف ثنيان كانا من الاتحاديين البارزين في بداية عهدهم، ولكن خامرنا شك كبير في انتماء السيد محمود شكري الآلوسي اليهم، فاستفسرنا من تلميذه وصديقه الأستاذ الكبير العلامة محمد بهجة الأثري عن رأيه في الموضوع، فتفضل علينا بالجواب الآتي (وقد تسلمناه يوم ١٧ تشرين الأول سنة ١٩٨٣):

عزيزي المحترم

إن ما جاء في هذا البحث من خبر انتماء العلامة المعظم السيد الشريف محمود شكري الآلوسي رحمه الله الى حزب الاتحاد والترقي، وإقحام اسمه في حادثة جامع الوزير — ليس له سند صحيح .. فان الرجل كان إماماً في الزهد والترفع كما كان إماماً في العلم والإصلاح الديني، رفيع المقام، ولم يكن ممن يوردون أنفسهم في مثل هذه الموارد. ولست أشك في أن الذي سماه للمقيم البريطاني في رواية أخبار جامع الوزير، قد شُبِّهَ له فأخطأ وجانب الحقيقة، وما آفة الأخبار إلا رواتها؟

محمد بهجة الأثري

أهازيج ثورة العشرين

من العادات التي يكاد يختصّ بها الشعب العراقي ، من سكان المدن أو أبناء العشائر على السواء ، هو إنشاد الأهازيج (أو كما تسمى بالعامية «الهوسات») التي يرددونها حينما تسود جماهيرَهم روح من الحماسة أو الهياج في المناسبات السعيدة ، أو الأحداث المؤلمة ، وفي أوقات الحروب أو الغزوات ، والتجمعات العامة ، الواسعة منها والصغيرة .

وينطوي معظم هذه الأهازيج على معانٍ عميقة ، ومغازٍ بعيدة ، وكناياتٍ حكيمة ، وكثيراً ما تتضمن بعض المحسنات اللفظية كالتورية والجناس . ولا يُعرف قائلو هذه الأهازيج أو مؤلفوها على وجه التحديد ، فهي تنبثق عن وجدان الشعب

على لسـان أشخـاص مجهـولين لاشكّ أنهم يتمتعون بذكاء حاد وموهبة خاصة في صياغتها. وكان رجال العشائر ونساؤ ها يرتجلون هذه الأهـازيـج في المنـاسبـات المختلفـة، وهي تتضمن التفـاخر بالعشـيرة ونسبها وبسالتها، والنَيل من أعدائها أو التهكم عليهم أو تجريدهم من الفضائل.

ويُـدعى ناظم الأهـزوجـة ـ أو «الهـوسـة» ـ (المهوال)، ولعل التسمية تدل على المدهش أو الكثير الهول.

وكـان من أهم المناسبات التي تظهر فيها هذه الأهازيج وتنتشر هي ظروف الحـرب أو الغـزو بين العشائر بصورة خاصة، ولكنها تظهر أيضا بين سكان المدن في لمناسبات المختلفة، وخاصة خلال المظـاهـرات والاجتـماعات العامة حيث تسود «نفسية الجماهير». وتنشد الجماهير هذه الأهازيج بصوت واحد، ولها عادة وزن معين رنان، وهي اذا زادت عن مقطع واحد تكون مقفاة. كما أنها تُنشَد بنغمة خاصة أو ايقاع معين معروف. وتحتوي معانيها أحياناً على نصائح أو عبر، أو تنبيه للسلطة الحاكمة أو شيخ العشيرة، كما قد تتضمن حكمة شعبية، أو ترثي قتيلاً، أو تستثير نخوةً، أو تطالب بثأر، أو تشجع على قتال، أو تحرض على عمل من الأعمال.

وكانت الثورة العراقية في عام ١٩٢٠ ضد الاحتلال البريطاني

والحكم الأجنبي من المناسبات الوطنية المهمة التي انتشرت فيها هذه الأهازيج الوطنية والسياسية، فرددتها الجماهير، وتناقلتها الأفواه. ولعل من أشهر تلك الأهازيج قولهم:

«الطوب أحسن لو مكوارى ؟»

(والطوب معناه المدفع، وهو كلمة تركية انتشرت في العراق كثيرا)

ولكنني لا أستطيع أن أجزم هل ظهرت هذه «الهوسة» خلال ثورة العشرين أم عُرِفت قبلها، حينما كانت العشائر تصطدم بقوات الدولة العثمانية أحيانا.

وفي بداية الثورة، حينما كانت العشائر الثائرة في أوج حماستها والقوات البريطانية تتراجع أمام الثوار، انتشرت «هوسة» مفادها أن الانتصار على الانكليز سيكون هينا الآ اذا استنجدوا بالأمريكيين، وكانت جماهيرهم تردد:

«بس لا يتعلّك بامريكه» (يتملك: يتعلق)

ولكن حينما تراجع الثوار أمام القوات البريطانية التي استعانت عليهم بما وصلتها من تعزيزات وأسلحة حديثة وطائرات، صوّر أحدهم حالتهم قائلا:

«كطّان حميّد صرت آنه»

اى أنني أصبحت مثل «كطّان حميّد». والكَطّان ـ أو: القطّان ـ نوع من السمك معروف في جنوب العراق. وهذه «الهوسة» تشير الى قصة كانت مشهورة في زمانها، وهي عن سمّاك يدعي حميّد (بتشديد الياء للتصغير) ألقى شبكته يوما في النهر، فما لبث أن شعر بجسم ثقيل فيها، وتخيل فرحا أنه اصطاد صيدا ثمنيا، ولعله من سمك «الكطان». ولكن فرحته لم تدم حين اكتشف أن الشبكة اصطادت حجرا كبيرا. ويشبهّ قائل «الهوسة» نفسه بـ «حميّد» الذي لم تطل فرحته، ومغزاها واضح، ودلالتها عميقة.

ولما سمع الناس أن الشيخ ضارى أو رجاله قتلوا «ليجمان» الذى كان قد أصبح أسطورة من أساطير الصحراء في قسوته وبطشه، خرجت الجموع «تهوّس» مكبرة هذا العمل الذى قضى على أحد أعمدة الاستعمار، متخيلة وقعه في انكلترة:

«هز لندن ضارى وبچّاها» (بچّاها: أبكاها)

ولما توفي الشيخ ضارى في سجنه بعد ذلك بثماني سنوات (يوم ١١ شعبان ١٣٤٦ هـ. الموافق ٢ شباط ١٩٢٧ م.) خرجت جموع الناس الغفيرة الى المستشفى تريد جثمانه، ولكن الشرطة حاولت منعهم فهجموا على المستشفى واختطفوا الجثمان من

السيارة التي كان فيها بالقوة. ثم سارت الجماهير مخترقة الشارع العام (شارع الرشيد الآن) فـ «جسر مود»، فدار المندوب السامي البريطاني، حتى وصلت مقبرة الشيخ معروف في الكرخ. وكان النعش يسير بين زغردة النساء وتصفيق الجماهير، وكان المشيعون يرددون «هوسات» عديدة مثل:

«منصورة يا راية ضارى»
و «الدنيا غدّارة يا ابن العم»
و «واش هالغيبة يا ابن العم»
و «ياشيخ اتهنّه بهل النومة».

ومن الهوسات الطريفة التي انتشرت خلال ثورة العشرين وأكثرها دلالة على الذكاء الفطرى الحاد، هي تلك التي ارتجلها أحدهم حين شاهدت العشائر في منطقة الرميثة طائرة بريطانية، وكانت أول طائرة يشاهدونها، فتعجبوا لمرآها أشد العجب:

«متعجّب خالق له بعيرة»

وفي هذه العبارة اشارة الى الآية الكريمة «أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت»، بل تحدٍ لها، وتهكم بالخالق عزّ وجل. وقد أضاف اليها بعضهم في وقت تال مقطعا آخر، هو:

«يا . . . . ، ماتسوّي طيارة».

ولما فتّ في عضد الثوار، وتفرق شمل معظمهم، وبدأت سلطات الاحتلال أعمال الانتقام وتحصيل الغرامات التي فرضتها على العشائر الثائرة، توفي أحد رؤسائها، فأخذ بعض رجاله يهوّسون:

«بلّشها ونام بسردابه»

أي أنه بدأ الثورة، وشجعهم عليها، ولما آن أوان الغرامة، نام في سردابه، أي مرقده.

وهنالك عدد كبير من الأهازيج أو الهوسات الطريفة ذات المغازى السياسية والاجتماعية التي قيلت في مناسبات مختلفة. ولا تزال ترّن في أذني مثلا تلك التي اجتاحت شوارع بغداد، وترددت على ألسنة جماهيرها، يوم مقتل الملك غازى (وهي من نوع مختلف طبعا):

الله أكبر ياعرب غازي انفكد من داره
(انفكد: انفقد)

واهتزت اركان السما من صدمة السيارة

ومن المؤسف أن هذه الأهازيج الوطنية والسياسية، وهي كثيرة لاتحصى، بقيت تتناقلها الأفواه، ولكنها لم تُصَن بالتدوين،

فنُسي معظمهـــا أو كاد، ولم يبق منهـــا الآ ما علق بذاكـــرة بعض الـذين أدركـوا المنـاسبـات التي قيلت فيهـا، أو ماتنـاثر في بعض الصحف الصادرة في وقتها.

كما أن البـاحثين في تأريخ العراق السياسي والاجتماعي أهملوا دراسـة هذه الأهـازيـج والمنـاسبات التي أوحت بها، في حين أنها مصـدر ثمـين وغـزيـر في دراسـة الظـروف الاجتـماعيـة والمشاعر السياسية والحالة النفسية والعقلية للشعب في الأوقات التي ظهرت وانتشرت فيها. وحبذا لو قام أحد الباحثين في التاريخ الاجتماعي بدراسة مستفيضة لهذه الأهازيج التي هي مظهر طريف وفريد من تراثنا الشعبيّ يعكس جوانب مهمة من تأريخنا الاجتماعي والسياسيّ.

أفندية بغداد في الجيل الماضي

نشرت (ألف باء) منذ نحو عام أن احدى المحاكم نظرت في دعوى أقامها محام على زميل له لأنّه خاطبه أمام جمع من الناس بلقب «أفندى» متهكماً، وعدَّ ذلك إهانةً له.

ولست أذكر الآن نتيجة الحكم، ولكن الدعوى على أى حال كانت طريفة وأثارت كثيراً من الخواطر والذكريات عن جيل كان لقب «أفندى» فية شائعا شيوع لقب «أستاذ» في جيلنا هذا، وكان التخاطب به أمراً طبيعياً ومألوفا وان كان ـ في الواقع ـ يستعمل بمعنى التهكم أحيانا، فكان يقال مثلا: الأفندى زعلان، أو اذا تأخر شخص عن موعد أو حضر بعد فوات الأوان: مستعجل الأفندى... الخ.

ومعنى كلمة «أفندى» هو «السيد»، والكلمة يونانية الأصل، وهي من ألقــاب الشـرف والتعظيم. وقـد أخـذهـا الأتـراك عن البيـزنطيـين، وورثهـا العـراق (وكـذلك عدد من الأقطار العربية الأخـرى) فيـما ورثـه عن العهد العثماني من ألقاب وتعابير، ومنها أيضا لقب «بك» و «باشا».

وكـان لقب «أفنـدى» في العهد العثماني يطلق على أربع فئات من الناس:

(أ) صغــار المـوظفـين وغـيرهـم من أفـراد الطبقـة المتـوسطـة والمتعلمـة تعليـما بسيطا أو متوسطا من سكان المدن. فاذا ارتفعت وظيفتهم أو مكـانتهم كان يقـال «بـك». وكـانت هذه الفئة أكبر الفئات التي تلقب «أفندى» وأكثرها عددا.

(ب) أبناء السلطان وأفراد العائلة المالكة الذكور (وحيد الدين أفنـدى - رشـاد أفنـدى... الخ.) أما الأناث من العائلة المالكة فكنّ يلقبن: «سلطـان أفندى». أما السلطان نفسه فكان يلقب بـ «أفندينا»، وقد انتقلت هذه التسمية الى مصر حيث كان يشار الى الخديوى ثم الى الملك بـ «أفندينا»، وقد بقيت هذه التسمية حتى انهيار الملكية فيها في سنة ١٩٥٢.

(جـ) غير المسلمـين مهـما علت مراتبهم أو سمت مراكـزهم الـرسميـة والاجتـماعية. وكان من رعايا الدولة العثمانية أشخاص غير مسلمـين - وخـاصـة من الأرمن - وصلوا الى منـاصب عالية

كالوزارة وعضوية مجلس المبعوثان، ولكنهم مع ذلك كانوا يلقبون بـ «أفنـدى» وليس «بك» (مثـل نوراد ونيكيـان افنـدى، وزيـر الخـارجيـة، واوسقان أفندى وزير المالية، وكثيرين غيرهم) ذلك الاّ اذا مُنحـوا لقب «بـاشا» وعندئذ يلقبون به (ومنهم آغوب باشا وزير المالية في عهد السلطان عبد الحميد).

(د) أصحـاب بعض المنـاصب الـدينيـة الـرفيعـة (كشيخ الاسلام) وكبار رجال الدين وعلمائه.

وعنـد زوال الحكم العثـماني عن العـراق على أثـر الاحتـلال الـبريطـاني وتأسيس الحكم «الأهـلي» بقيت هذه الفئـات نفسها تلقب «أفنـدى» باستثناء أفراد العائلة المالكة (الهاشمية) الجديدة أو أقربائهم، اذ كانوا يلقبون بلقب «الشريف فلان». أما اذا كان الشخص يتحـدر مبـاشرة من سلالة الملك حسين، ملك الحجاز السـابق، فكـان يلقب بـ «الأمير». أما الملك نفسة فكان يخاطب ويشار اليه بلفظه «سيدنا».

وقـد بقيت تسميـة رجـال الـدين وعلمائه المرموقين بـ «أفندى» (مثل: محمود شكرى أفندى الآلوسي، أو أمجد أفندى الزهاوى، وغـيرهما..)، كما استمـرت تسمية غير المسلمين بهذا اللقب في الاستعمالين الرسمي وغير الرسمي، الى حين صدور قانون منع استعـمال الألقـاب الأجنبية في عهد وزارة ياسين (باشا) الهاشمي في سنة ١٩٣٥.

وأنقل على سبيل المثال أسماء هيئة وزارة السيد عبد الرحمن النقيب الثانية التي تألفت في ١٢ أيلول ١٩٢١ كما نشرتها صحف ذلك العهد :

السيد عبد الرحمن الكيلاني	
نقيب اشراف بغداد	رئيساً للوزراء
الحاج رمزي بك	وزيرا للداخلية
ساسون افندي	وزيراً للمالية
ناجي بك السويدي	وزيراً للعدلية
جعفر باشا العسكري	وزيراً للدفاع الوطني
الدكتور حنا افندي خياط	وزيراً للصحة
عزّت باشا	وزيراً للاشغال والمواصلات
عبد اللطيف باشا المنديل	وزيراً للتجارة
عبد الكريم افندي الجزائري	وزيراً للمعارف
السيد محمد علي فاضل أفندي	وزيراً للاوقاف

وعلى الرغم من تلقيب رجال الدين وعلمائهم، وكذلك غير المسلمين، بلقب «أفندى» فان أوسع الفئات التي تلقب بهذا اللقب بقيت طبقة الموظفين وسكان المدن، واليها كان ينصرف الذهن عادة حين يقال «فلان أفندى»، الآ اذا كان هنالك مايدلّ على أن المقصود شخص من الفئتين الأخريين.

وكـان تلامـذة المـدارس الابتـدائيـة في ذلـك الجيل يخاطبون معلميهم بلقب «أفندى»، ولكن هذه الصيغة في المخاطبة أخذت تختفي مع أواخـر الثـلاثينات وحلت محلها كلمة «سيدي» بصورة تدريجية. ومع ذلك بقي هذا اللقب يضاف الى اسم المعلم عند التحـدث عنة بصيغـة الغـائب، فكنـا نقـول مثلا إن معلمنا هو «جابر افندى» وان مديرنا هو «محمود أفندى» وهكذا.

وكـان الأفنـدى يرتـدى الملابس الافرنجية. أما لباس الرأس فكـان الطـربـوش في العهـد العثـماني وبداية عهد الاحتلال، ثم حلت محلّه بعد مجيء الملك فيصل الأول «السدارة» التي صمّمها هو كشعار رأس عراقيّ خاص.

بل ان من جملة دلائـل لقب «أفنـدى» كان تمييـز صاحبه عمن يرتـدون المـلابس الشعبية أو الريفية من كوفية وعقال أو «جرّاوية» وزبون وعباءة. فاذ سألت عن شخص هل هو معمم مثلا، كان الجواب:
«كلا، بل هو أفندى».

وكـان «الأفنديـة» في الجيـل المـاضي يمثلون طبقـة خاصـة متميزة، ولقـد تكونت لها شخصيتها وصفاتها وعاداتها، فالأفندى عادةً شخص متوسط الدخـل، يشغـل وظيفة مدنية صغيرة أو

متوسطة، وهو شخص محترم في المجتمع. فاذا جلس في المقهى او الملهى التزم الجدّ والوقار لأنه يرغب في الظهور بمظهر لائق ومحترم أمام المواطنين، ولا ينسى مركزه الرسميّ وكرامة وظيفته.

وقد انتشرت في تلك الفترة المبكرة من قيام الدولة العراقية أو قبلها قليلا، أغان كثيرة تشير الى «الأفندى» من باب الغزل أو الوصف، ولا تزال أغنية:

«الأفندى.. الأفندى.. الله يخلّي صبري.. صندوق أميني البصرة، بس إلي وحدى»

من أشهر أغاني ذلك العهد. وكذلك أغنية:

«ياحلو يابو السدارة..»، أو أغنية: «دگّم سترتك زين..» من الأغاني التي تشير الى زيّه الافرنجي، ولباس رأسه الجديد.

ومما يدل على تميز هذه الطبقة الجديدة التي ظهرت في المجتمع العراقي وأخذت تتسع بعد الاحتلال وفي عهد الانتداب، أن جريدة «التايمس» اللندنية نشرت (في عددها الصادر بتاريخ ٢٧ تشرين الأول سنة ١٩٣٣) مقالة لمراسل لها في بغداد بعنوان: «الأفندى ـ مشكلة عراقية».

وقد ذهبت الجريدة في مقالها الى أن ظهور هذه الطبقة الجديدة واتساعها يهددان بمشكلة اجتماعية، ووصفت الأفندى

THE TIMES FRIDAY OCTOBER 27 1933

Imperial and Foreign

THE EFFENDI

A PROBLEM IN IRAQ

From a Correspondent in Iraq

Recent changes in the status and administration of Iraq have served to increase the "Effendi" problem. The visitor to Baghdad is invariably struck by the smartly dressed young men who may be seen in the evenings crowding the coffee-shops and cinemas, promenading the streets, or driving about in taxis. The romantic visitor may sigh the disappearance of the old flowing but here at all events are the the clean linen, and the that are the signs of

In 1913 there were 160 primary schools in what is now Iraq. The attendance averaged less than 40 pupils per school, which means that the actual attendance would have been even less. Moreover the language of instruction was Turkish. When the schools came under British administration Turkish was abolished in favour of the native Arabic (or, in non-Arabic districts, of the local mother tongue). The Government primary school pupils now number nearly 30,000 boys and 7,000 girls. The standard of instruction is not only higher but is still rising.

"EDUCATION"

In the production of "effendis" two points are to be noted. First, the educated man thinks it shameful to soil his hands or to engage in menial work. As a result the effendi is unwilling to take up engineering or mechanical work; the mechanics and artisans in the co are illiterate. There is in Iraq approximating to a literate

The second point to be tinuance of the old of Arabic is

العراقي بأنه شخص متعلم يسكن المدن الكبرى ويأنف من العمل اليدوي حتى الأعمال الفنية والميكانيكية، ويتجه الى الوظائف الحكومية على الرغم من أنها كانت في ذلك الوقت محدودة العدد قليلة الرواتب، لأنها كانت تضمن له الوجاهة أو المكانة الاجتماعية التي يرتضيها لنفسه. وهو يقضي أمسياته في المقهى يقرأ الجرائد ويتحدث في السياسة، وان الكثيرين من أبناء هذه الطبقة يرتادون الملاهي والمسارح، وبعضهم يغرق في ديون لاقبل لهم بسدادها. ولما كان التعليم في اتساع، والمدارس الحديثة بدأت تخرّج أعداداً متزايدةً من المتعلمين فان اتجاههم جميعا الى الوظائف الحكومية وانصرافهم عن الأعمال الحرة والأعمال اليدوية سيسبب مشكلة اجتماعية واقتصادية في البلاد.

وعلى الرغم من أن مقالة «التايمس» فيها كثير من الأغلاط والمغالطات، فان نشرها في جريدة مهمة مثل «التايمس» اللندنية دليل على أهمية هذه الطبقة في ذلك الجيل، وقلق السلطات البريطانية للمشاكل التي قد يؤدي اليها وضعها في ذلك الوقت.

ومع ذلك، فان لقب أفندي زال من الاستعمال الرسمي بعد صدور قانون منع الألقاب الأجنبية، كما أنه أخذ يختفي تدريجيا من الاستعمال اليومي أو الدارج بعد ذلك بسنوات، حتى لم يعد يُسمع إلا على لسان صديقة الملاية وهي تغني بصوتها المجروح:
«الأفندي.. الأفندي.. عيوني الأفندي..»

صفحة من تمثيل العراق الخارجي

في بداية تأسيسه

حينما تأسست الحكومة الموقتة في العراق في سنة ١٩٢٠ برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب ـ تلك الحكومة التي حلت محل حكومة الاحتلال البريطاني ـ لم تكن بين الوزارات التسع التي تألفت منها، وزارة للشؤون الخارجية، لأن الدولة الجديدة كانت لاتزال غير مستقلة، ولم يكن من حقها تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الدول الأجنبية، وكذلك لم يكن لها تمثيل قنصلي، وانما كانت دولة الانتداب تقوم برعاية المصالح العراقية في الخارج.

وفي عهد الحكومة الموقتة نُصب فيصل الأول ملكاً على العراق، وعلى أثر ذلك استقالت وزارة النقيب لتتيح للملك الجديد اختيار رئيس وزرائه، فعهد فيصل بتأليف الوزارة الجديدة الى السيد عبد الرحمن النقيب أيضا، وتولت تلك الحكومة

مفاوضة الجانب البريطاني لعقد المعاهدة العراقية ـ البريطانية الأولى لسنة ١٩٢٢ ، وحلت بنود تلك المعاهدة محل صك الانتداب الممنوح لبريطانية في مؤتمر (سان ريمو) ، ولكن هذه المعاهدة لم تكن في الواقع أكثر من انتداب مقنّع . وقد عُقدت ترضيةً للشعب العراقي الذى قام بثورته العارمة في سنة ١٩٢٠ احتجاجاً على الاحتلال والانتداب والنفوذ الأجنبي مهما كان اسمه أو شكله .

وقد نصت المادة الخامسة من هذه المعاهدة على ما يأتي :

«لجلالة ملك العراق حق التمثيل السياسي في لندن وغيرها من العواصم والأماكن الأخرى بما يتمّ عليه الاتفاق بين الفريقين الساميين المتعاقدين ، وفي الأماكن التي لاتمثل فيها لجلالة ملك العراق يوافق جلالته على أن يعهد لبريطانية بحماية الرعايا العراقيين . . . الخ . »

ومع ذلك ، فان الوزارة التي ألفها النقيب بعد التوقيع على المعاهدة ، وهي وزارته الثالثة ، لم يكن بين أعضائها وزير للخارجية . وقد أعقبت هذه الوزارة وزارة عبد المحسن السعدون الأولى ، ثم وزارة جعفر العسكري الأولى ، ثم وزارة ياسين الهاشمي الأولى ، ولم يكن بين أعضاء هذه الوزارات جميعا وزير للخارجية ، حتى ألف السعدون وزارته الثانية في ٢٦ حزيران ١٩٢٥ ، فظهر اسم وزارة الخارجية للمرة الأولى بين أسماء

الوزارات، وقد تولى السعدون نفسه هذه الوزارة اضافة الى رئاسة الوزراء.

وعلى أثر استقالة عبد المحسن السعدون عهد الملك فيصل الأول بتأليف الوزارة الجديدة الى جعفر العسكري مرة أخرى، فألفها في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٢٦، وتولى فيها وزارة الخارجية رئيس الوزراء نفسه أيضا. وجاء في الخطاب لذى ألقاه رئيس الوزراء الجديد في مجلس النواب معلنا عن منهاج وزارته أن من جملة الأعمال التي تعتزم تحقيقها هو «توسيع دائرة التمثيل الخارجي، وتأسيس الصلات مع الدول، سيما المجاورة منها...»

وفي هذه الفترة فكّر جعفر العسكري بتأسيس عدد من القنصليات العراقية في الدول المجاورة، والتي للعراق فيها مصالح ذات بال، أو رعايا عراقيون كثيرون، أو مشاكل مهمة، ووجه الى المندوب السامي البريطاني (السر هنرى دوبز) رسالة أبدى فيها «أن احدى الشؤون التي تنظر فيها الحكومة العراقية هو تأسيس قنصليات عراقية في الأقطار التي للعراق مصالح تجارية مهمة معها والتي تربطها بالعراق علاقات حسن الجوار». وأضاف جعفر العسكري:

«.. ولكن ليس في العراق في الوقت الحاضر من لهم إلمام

جيد بالأعمال القنصلية وادارتها. ولذلك فان الحكومة العراقية تودّ أن يُستخدم عدد من الموظفين العراقيين في القنصليات البريطانية للتدرب على تلك الأعمال الى أن يتمّ تأسيس قنصلياتها في الأقطار المجاورة. أرجو من فخامتكم دراسة هذا الاقتراح واعلامي برأيكم فيه . . . الخ.»

وبادر المندوب السامي بارسال كتاب رئيس الوزراء العراقي (أو ترجمته) الى مرجعه، وهو وزير المستعمرات (المستر ايمرى) مع كتاب أبدى فيه أنه يرى الاقتراح مقبولا، وقال ان رئيس الوزراء يفكر في ارسال أول موظف عراقي للتدرب في القنصلية البريطانية في (بوشهر) -في الخليج العربي- ولكنه شخصيا لا يرى سببا يحول دون الحاق موظفين عراقيين آخرين بالقنصليات البريطانية في مدن أخرى مثل كرمنشاه، وبيروت، ودمشق. وأرسل هنرى دوبز نسخة من كتابه هذا -مع مرفقه- الى وزير بريطانية المفوض في طهران.

وجاء هذا الاقتراح العراقي أشبه بمفاجأة لوزارة المستعمرات التي لم تكن قد فكرت فيه ولا استعدت له، وان كان الاقتراح متمشيا مع مبادىء الانتداب التي توجب على الدولة التي عهد اليها بالانتداب ان تعمل ما في وسعها لاعداد الدولة المنتدبة لحكم نفسها بنفسها. فكتبت وزارة المستعمرات في ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٧ رسالتين احداهما الى (وزارة الهند)، والاخرى الى

وزارة الخـارجية، مستفسرة عن رأيهما في الاقتراح العراقي، وجاء في الكتـابـين أن وزير المستعمرات يؤيد الفكرة، ويأمل أن تحظى بتأييد وزيري الهند والخارجية أيضا.

ان السبب في استمـزاج رأى وزارة الخـارجيـة واضح، وهو أن الممثليـات الـبريطانية في الخارج جزء من جهازها، وهي مرجعها في أعـمالهـا. أمـا الاستفسـار من وزارة الهنـد فقـد كان مبعثـه أن الشـؤون المتعلقـة بالخليـج العـربي كانت تدار من قبـل حكومة الهند، وينفق عليها من ميزانيتها.

أجـاب وزيـر الهنـد (اللورد بيركنهيـد) أنه يشعر بأن الموضوع يعـود بالـدرجة الأولى لتقدير وزير الخارجية. أما بقدر تعلق الأمر بوزارتـه فانـه لايحبـذ هذا الاقتراح، لأن الموافقة عليه «تعني منح العراقيين امتيازا حُرم منه الهنود البريطانيون، اذ أنهم - كما يعلم وزير المستعمرات - لايقبلون في الخدمة الدبلوماسية أو القنصلية البريطانية، مما سيثير حزازة لاموجب لها بينهم، ويقوّى حجتهم في المطـالبـة بقبولهم في وظائف الخدمة لقنصلية البريطانية. واذا تقرر قبول هذا الاقتراح من حيث العموم، فانه يرى أن لايشمل هذا القـرار القنصليـات الـبريطـانيـة في ايـران، أو على الأقـل المنـاطق التي تكثـر فيها المصالح الهندية منها، حيث تقوم حكومة الهند بالانفاق على القنصليات البريطانية وادامتها..»

أوضحت وزارة المستعمرات بكتاب وجهته الى وزارة الهند (بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٢٧) أن الاقتراح لايعني تدريب العراقيين بقصد قبولهم في المستقبل في الخدمة القنصلية البريطانية كما هي الحالة المحتملة مع الموظفين الهنود، وأن الحكومة العراقية تنظر في تأسيس قنصليات عراقية في الخارج، بموجب أحكام المادة الخامسة من المعاهدة، ولذلك فانها حريصة على حصول موظفيها على شيء من الخبرة في الأعمال القنصلية، قبل تأسيس تلك القنصليات. ومع ذلك فقد أصرّت حكومة الهند على رأيها، وأبدت في جوابها الى وزارة المستعمرات أنها لايسعها الموافقة على استخدام العراقيين في أية قنصلية بريطانية تكون حكومة الهند مسؤولة عن إدامتها، أو تمارس عملها في منطقة تكثر فيها المصالح الهندية.

أما وزارة الخارجية، فانها أحالت الاستفسار الى مفوضيتها في طهران، وقنصلياتها في بوشهر وبيروت ودمشق، طالبة رأيها في الموضوع، قبل الاجابة عن استفسار وزارة المستعمرات.

أبدى الوزير المفوض في طهران (السرر. كلايف) أن الحاق موظف عراقي بالمفوضية البريطانية قد يعود بفائدتين: الأولى مساعدة نائب القنصل في تصريف شؤون الرعايا العراقيين وقضايا الجنسية وسمات الدخول الى العراق. والثانية، مساعدة

دوائـر السفـارة في معـالجـة القضايا والمشاكل العديدة بين العراق وايـران . ولكنـة أضـاف أن الحـالـة الثانية ـ وهي السماح لموظف أجنبي بالعمـل في مكـاتب المفـوضيـة ـ لايخلو من محاذيـر أمنية ، ولذلك فانه يرى من المفيد أن يكون عمل الموظف العراقيّ قاصرا على مساعدة نائب القنصل في الشؤ ون القنصلية فقط .

وأجـاب المقيم السيـاسي والقنصـل العام البر يطاني في بوشهر (الكـرنـل هاورث) أن الفكـرة تبدو غير مستحسنة ، لأن الموظف العـراقي الـذى سيرسـل للتـدرب في بوشهـر ، ان لم يكن مؤ يدا لبر يطـانيـة كل التأييـد ، فانـه سيجد نفسة في بعض الحالات في موقف معـارض لمصـالـح بريطانية ، كما أنه لايجوز الافتراض بأن كونـه مؤ يـداً لبر يطـانيـة يستلزم بالضرورة تمسكه بموقفة هذا في المستقبـل بصـورة دائمية . ولذلك فانة يرى من الأفضل أن يجرى تدريب هؤلاء المـوظفـين في أماكن أخرى مثل فلسطين وغيرها ، حيث لا تقوم تلك المخاطر .

أما القنصل البرّ يطاني في دمشق (أى . سي . هول) فقد كان أشـدّ المعـارضين للفكرة ، وأبدى أنها ـ على الرغم من انسجامها مع أهداف الانتداب من حيث اعداد الدولة المنتدبة لحكم نفسها وممـارسـة أعمـالهـا بنفسهـا ـ ليس من المصلحة تطبيقها في سورية لأسبـاب أولهـا «أنهـا ستحـطّ من قدر القنصل البر يطاني في أعين

السكان المحليين، وأن قبول عراقي على قدم المساواة مع متدرب بريطاني معناه الاعتراف لشخص محلي بالمساواة مع بريطاني، وهي غلطة خطرة».

وأضاف القنصل الى حجته السابقة التي تدل على نظرته الاستعمارية، الاستعلائية، حجة أخرى قد يكون فيها شيء من الوجاهة (من وجهة النظر البريطانية) وهي أن وجود شخص عراقي، أرسلته حكومة فيصل، في القنصلية البريطانية سيزيد من مخاوف السلطات الفرنسية التي أخرجت فيصلاً من سورية، ولا تزال تتوجس خيفة من دسائسه، كما أنه سيُفقِد القنصلية ثقة تلك السلطات. يضاف الى ذلك أن تعيين عراقي في المؤسسات القنصلية البريطانية سيكون سلاحاً بيَد الوطنيين السوريين ضد الفرنسيين، وأنه لن يجد لذلك تفسيراً مقبولاً يستطيع أن يقنع به المندوب السامي الفرنسي.

وأما القنصل البريطاني العام في بيروت (هـ. أي. ساتو) فقد أبدى أنه ليس لديه مانع دون الحاق متدرب عراقي بقنصليته على أن يكون من الواضح منذ البداية أنه تابع له كليا، وليس رئيسا لقسم مستقل مختص برعاية شؤون العراقيين، لأنه في هذه الحالة لن يلبث أن يجد نفسه أمام سيل من الشكاوى والاعتراضات من جانب الطلاب والرعايا العراقيين بشأن رعاية

مصالحهم ومعالجة مشاكلهم. وأضاف قائلا انه على الرغم من أن بنود المعاهدة البريطانية ـ العراقية لابدّ أن تكون معروفة جيدا للفرنسيين، فانه وجد من المفيد أن يستمزج رأى وكيل المندوب السامي الفرنسي فيما اذا كان وجود موظف عراقي في القنصلية البريطانية سيسبب إحراجاً للسلطات الفرنسية. وبعد شيء من التأخير، أجابه وكيل المندوب السامي الفرنسي بأنه ليس لديه اعتراض حقيقيّ على الاقتراح، على أنه يفضل، لأسباب واضحة، أن يبدأ الموظفون العراقيون الذين يتمّ اختيارهم، تدريبهم في بيروت وليس في دمشق. ونظراً لهذه التحفظات التي تقدم بها الممثلون البريطانيون في ايران وسورية ولبنان والخليج العربي، أبدت وزارة الخارجية في جوابها لوزارة المستعمرات أنها ترى في الاقتراح محاذير عديدة، وتجده غير عملي، ولذلك فانها تقترح اقتراحاً بديلاً وهو اختيار موظف قنصليّ بريطاني كبير يُرسَل الى العراق ليقوم هناك بتدريب الموظفين العراقيين المزمع تعيينهم في الوظائف القنصلية في الخارج. ولكن وزارة المستعمرات اعترضت على هذه الفكرة لأن «العراقيين» قد يحاولون تفسيرها بأنها محاولة أخرى لزيادة عدد الموظفين البريطانيين الذين يتقاضون رواتب عالية من الحكومة العراقية، ويشنّ الوطنيون العراقيون ـ وعلى رأسهم ياسين الهاشمي ـ حملة لتقليص عددهم.

كانت هذه المراسلات تدور بين الوزارات والمؤسسات البريطانية، وجعفر العسكري لايعلم شيئا عنها بطبيعة الحال، وكان يؤكد على المندوب السامي من أجل الحصول على الجواب، ويذكّره بالموضوع من وقت لآخر. وكان المندوب السامي مطلعاً على معظم تلك المراسلات التي كانت تصله نسخ منها، ولكنه كان يجيب رئيس الوزراء بأن حكومته مازالت تدرس الموضوع، وانه سيخبره برأيها حال تسلمه، آملا أن يكون ذلك في أقرب وقت.

وأخيرا قررت الحكومة البريطانية رفض الاقتراح، وطلبت الى المندوب السامي في العراق ابلاغ الحكومة العراقية باعتذارها عن قبوله بسبب وجود صعوبات فنية تحول دون تنفيذه. وهكذا انتهى الموضوع ووضعت الفكرة على الرف.

وفي بداية سنة ١٩٣٠ افتتحت الحكومة العراقية مؤسساتها الخاصة في بعض الأقطار المجاورة، وعينت السيد كامل الكيلاني - السكرتير في وزارة الخارجية، وشقيق وزير الداخلية رشيد عالي - قنصلاً في كرمنشاه، والسيد أحمد زكي الخياط - قائم مقام قضاء القرنة - قنصلاً في المحمرة، كما عينت الدكتور عبد الله الدملوجي قنصلاً للعراق في القاهرة، والدكتور أحمد قدرى قنصلاً فخرياً في الاسكندرية. وكانت هذه القنصليات الأربع الأولى التي

افتتحت بعد تأسيس الدولة العراقية.

وقد أثار تعيين الدكتور عبد الله الدملوجي قنصلاً في القاهرة مشكلة صغيرة. كان الدكتور عبد الله الدملوجي - وهو عراقي من الموصل وصديق شخصيّ لنوري السعيد - قد درس الطب في استانبول قبل الحرب العالمية الأولى. ويبدو أنه كان يخدم في الجيش التركي في الاحساء حينما احتلها عبد العزيز بن سعود في سنة ١٩١٣، فتعاون الدملوجي معه وسرعان ماارتقى منصبا كبيرا في بلاطه، وحضر الى بغداد ممثلا غير رسمي له في سنة ١٩٢١. وفي سنة ١٩٢٨ مثل الدملوجي بلاط نجد والحجاز (قبل تسمية المملكة العربية السعودية باسمها الحالي) في مؤتمر سكة حديد المدينة المنورة الذى عقد في حيفا. وكان المؤتمر عقيما، فلما انفضّ ذهب عبد الله الدملوجي الى العراق بدلا من العودة الى الحجاز. والآن ترشحه الحكومة العراقية أول قنصل لها في القاهرة.

وما ان علم الوزير المفوض البريطاني في جدة (المستر بوند) بنبأ هذا التعيين حتى أبرق الى وزارة الخارجية (في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٠) محذرا من أن تعيين الدملوجي في أى منصب مهم في العراق قد يؤدى الى انزعاج الملك بن سعود، خاصة في وقت كانت الحكومة العراقية تجرى فيه مفاوضات معقدة مع مملكة



الدكتور عبد الله الدملوجي

(من مجموعة الأستاذ خيري العمري)

الحجاز ونجد حول كثير من القضايا المعلقة بينهما. فخوّلت وزارة المستعمرات المندوب السامي في العراق (السر فرانسيس همفريز) بابلاغ ذلك الى الحكومة العراقية بالاضافة الى أن موافقة الحكومة المصرية على التعيين لم تستحصل بواسطة المندوب السامي في القاهرة[1]

ومع ذلك، فقد مضت الحكومة العراقية في تعيين عبد الله الدملوجي الذى مالبث أن تسلم عمله في القاهرة. وحينما زار نورى السعيد جدة في نيسان ١٩٣١ صرح الملك عبد العزيز أنه لم يعد يرغب في اثارة أى اعتراض على تعيين عبد الله الدملوجي في أى منصب عراقي. وفي ٢١ شباط ١٩٣٤ ألف جميل المدفعي وزارته الثانية فأدخل عبد الله الدملوجي فيها وزيرا للخارجية. وقد سافر الدملوجي بعد ذلك الى الحجاز أكثر من مرة بصفته وزيراً لخارجية العراق، بعد أن سبق له أن زار العراق بصفة ممثل لمملكة نجد والحجاز.

---

(١) جميع المراسلات المتعلقة بقضية الحاق متدربين عراقيين بالقنصليات البريطانية وتعيين القناصل العراقيين الجدد محفوظة في وثائق وزارة الهند بلندن ـ الاضبارة المرقمة:

IOR (L/ P&S/ 12/ 288)

لماذا إنتحر عبد المحسن السعدون ؟

جاء انتحار عبد المحسن السعدون (يوم ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩) في ظروف مفاجئة هزت البلاد من أقصاها الى أقصاها، وكـان له وقع أليم صادق على الشعب العراقي حديث العهد بالاستقلال، المتطلع الى مستقبله السياسي بآمال جسام، والذى كان ينظر الى رئيس وزرائه وكفاحه اللؤوب الهادىء باحترام عظيم قد لايدانيه احترامه لأىّ زعيم من زعمائه السياسيين في ذلك الوقت.

وكان الشعب العراقي بسبب ظروف العهد، ونظام المجتمع، وطبيعة تكوين الدولة الجديدة، وازدواجية الحكم، وبدائية وسائل الاعلام، يجهل مايدور وراء الستار من مناورات بين رجال السياسة وبين سلطة الانتداب التي كان يعزّ عليها أن ترى خيوط

السلطة تفلت من يديها واحدة بعد أخرى، فتزداد تمسكا بها حينا، ثم لاتلبث أن ترخيها قليلا لتعود الى شدّها من جديد.

وكانت الدولة الفتية تتجاذب مصيرَها قوى متعددة: فهنالك سلطة الانتداب، و (الانتداب) صيغة جديدة، ذكية، توصل اليها دهاقنة الاستعمار في مؤتمر الصلح في باريس لتبرير استيلائهم على غنائم الحرب العالمية الأولى واقتسامها، وهي صيغة مؤدّاها أن الأقطار المنسلخة عن الدولة العثمانية بقيت لفترة طويلة مهملة ومتأخرة، وأن شعوبها أصبحت غير قادرة على حكم نفسها بنفسها، ولذلك فلا بدّ من أن تعهد (عصبة الأمم) بادارتها الى احدى الدول «الراقية.. المتمدنة..» لترعاها وتأخذ بيدها الى المستوى الذي يؤهلها للاستقلال. وياله من شعور انسانيّ نبيل، وحرص على مصالح هذه الشعوب المسكينة، وادراك للمسؤولية الدولية... ويالها من كلمة حقّ أُريدَ بها باطل. فقد صيغت صكوك الانتداب بطريقة توحي بأنها تهدف الى خدمة مصالح الدول التي وضعت تحت الانتداب، ولم تتطرق الى الهدف الأصليّ، وهو مصالح الدول التي سيعهد اليها بهذه المهمة الانسانية.. ولا الى اتفاقية «سايكس - بيكو» اللاأخلاقية التي تمّ بموجبها اقتسام الغنائم سِرّاً يوم كانت أطرافها تتلمّظ إزاء ممتلكات الدولة العثمانية، وتتطلع الى اليوم الذى تضع فيه أيديها على هذه البلاد ذات الموقع الجغرافيّ

والستراتيجيّ الفريد على طريق الهند، وروائح النفط (العبقة) التي كانت تفوح من أراضيها الغنية بشدة.

وهنالك الملك فيصل الأول الذى كان يعمل على ترسيخ عرشه في العراق، بعد أن خسر عرشه في سورية، ويحاول أن يتفادى مع الانكليز تكرار أخطائه مع الفرنسيين، وأن يستفيد من تجاربه السابقة. ويقول المثل: «من لدغته أفعى يرتعد لرؤ ية الحبل». فالى أى حد يستطيع الوقوف بوجه سلطات الانتداب، وكم يستطيع الانتزاع منها ليستطيع الوقوف أمام تيارات الرأى العام، وبين هذا وذاك كيف يستطيع أن يحقق التوازن مع مناورات رجال السياسة؟

وهنالك أيضا رجال السياسة، والزعماء الشعبيون، والوجهاء أصحاب النفوذ التقليدى في البلد، وشيوخ العشائر بانتماءاتهم المتنوعة، ومصالحهم المتضاربة... فمنهم الوطنيّ الصادق الذى تعوزه الخبرة، ومنهم المتمرّس الذى ينقصة الاخلاص، والانتهازى الذى يتاجر بالوطنية، ومنهم المثقف، والجاهل، والكفوء الذى هو مؤهل للحكم، والساذج الذى دفعته الظروف الى الأمام.

في هذا الجوّ، وفي خضمّ هذه الظروف البدائية، الحساسة،

المتضاربة، ظهرت شخصية عبد المحسن السعدون فريدة صافية، متألقة. وكان بحكم نشأته وخلفيّته، يختلف عن غيره من رجالات العراق في ذلك العهد، من الذين كانوا يتصدرون المسرح السياسي في الدولة الفتية.

فهو عربي المحتد، صافي الأُرومة، تركي الثقافة، عصرى النزعة، نشأ في أسرة عريقة ومحترمة كانت لها الرئاسة بين عشائرها. ودرس في المدرسة (الحربية) التركية التي كانت تحتذى الأساليب الألمانية، وتستعين بأساتذه من القادة الألمان. وعمل (ياوراً) - أو مرافقاً - للسلطان عبد الحميد، وشهد عن كثب ألاعيب السياسة ومايدور في قصر «يلدز» من مناورات، ومايحاك فيه من دسائس. ثم انتمى الى «جمعية الاتحاد والترقي» التي كانت في بداية عهدها حزبا عثمانيا يهدف الى صيانة الدستور وحماية الخلافة، ولم تتكشف نواياة العنصرية الّا بعد حين. . .

وبذلك خَبَرَ الحياة الحزبية، وشهد جوانب شتى منها، ثم أصبح عضواً في «مجلس المبعوثان» يمثل منطقة (المنتفك)، يصغي الى مناقشاته، ويجالس أقطاب الدولة وساستها، ومندوبي ولاياتها (بينهم نائب شاب من أشراف الحجاز يمثل ولايته، اسمه فيصل). وبذلك خبر الحياة البرلمانية واطلع على مناوراتها ومداوراتها.

وهذه كلها تجارب لم تتح لغيره من الرجال الذين كانوا يحيطون

بالملك فيصـــل أمثـــال السيـــد عبـد الـرحمن النقيب، وياسـين الهاشمي، وجعفر العسكرى، ونورى السعيد وغيرهم. كما أنه لم يلتحق بالثـورة العـربيـة كما فعـل بعضهم، ولم تكن له بالانكليز صلة سابقـة كالتي كانت لهم. وكـان الملك فيصـل ـ بالمنـاسبـة ـ لايرتاح الى أية علاقة لأحدهم بالانكليز لاتكون عن طريقه أو بعلمه.

والى جانب ذلك كان الرجل نزيهاً فوق الشبهات، تتمثل فيه السجـايـا العربية الأصيلة، كريم الطبع مترفعا، شديد الاعتزاز بسمعتـه وكـرامتـه الشخصيـة والـوطنيـة. ويبـدو أنـه كان قليـل الكلام، عَزوفاً عن الدعاية لنفسه، معتدلاً في آرائه ومواقفه. وقد وصـل الى الحكم بسهـولـة بسبب خلفيتـه العائلية والشخصية، فواجـه سلطـة انتـداب أجنبيـة متصلبـة، وملكاً متحذراً شكوكاً، وسـاسـة من كل صنف ولـون، وشعبـاً نرِحـاً بدولتـه الجـديدة، متطلعــاً الى الاستقــلال الكـامــل، سريـع المحبـة، سريـع الغضب... فلما طُعِن في وطنيتـه اعتبـاطـاً، واتُهِم في اخـلاصه تجنيـاً، كان الأمـر عنـده «كارثةً» لاتُحتمل، فعمد الى إنهاء حياته بهذه الصورة (الدراماتيكية) التي حافظ بها على سمعته وكرامته، ولكنه دفع حياته ثمنا لها.

ولاشـك أن انتحـار عبـد المحسن السعـدون وهـو في رئـاسـة

الـوزارة كان له آثـارة المختلفـة على كل من الشعب، والملك، وسلطة الانتداب.

فقـد هزّ هذا الانتحـار ضمـير الشعب وآلمـه وأثـار نقمته على الانكليز والمتعاونين معهم.. وهو قد أحرج الملك وأضعف موقفه أمـام الشعب وقـوّاه أمـام الانكليز، ولكنه ـ والله أعلم بالسرائر ـ ربـما يكـون قد ارتاح في قرارة نفسة لاختفاء السعدون من المسرح السيـاسي الى الأبـد. أمـا الانكليـز فقـد أحرجهم الأمر أيضا، وأوقعهم، في حيرة من أمـرهم. وقـد احتـجّ المنـدوب السـامي البـريطـاني على نشـر نص رسـالته ـ أو وصيته ـ التي تركها لولده «عـلي» قائـلا فيـهـا: «الشعب يريـد الخـدمـة والانكليـز لايـوافقـون...» فأثارت الرأى العام العراقي عليهم، وخرجت الجـماهـير تهتف (وتهـوّس): «عبـد المحسن ناخـذ ثارة» و«ساعة بالندن مرهونة»..

وبـين يدىّ ساعـة كتابـة هذه السطـور قصـاصـة من جريدة «التـايمس» اللنـدنيـة الصـادرة في ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٩ (أى بعـد انتحـار السعـدون بثـلاثـة أيام) تحتوى على رسالة لمكاتبها الخاص في بغداد نشرت بعنوان «انتحار رئيس وزراء العراق» ألمح فيهـا الى وجـود أسبـاب أخـرى غير سياسية للانتحار. وقد نقل الكاتب نصّ رسالة السعدون (أو بالأصح ترجمتها) ثمّ علّق عليها بقوله:

«... وهنالك محاولات يبذلها بعض المتطرفين لاستغلال انتحار السر عبد المحسن السعدون لصالح سياستهم. الاّ أن هنالك ايضا من الأسباب مايدعو الى الاعتقاد بأنَ ماكان يقلق السر عبد المحسن مؤخرا لم يكن قاصرا على السياسية فقط. فمن عادة رؤساء الوزارة في العراق أن يتظاهروا بمستوى من الرخاء المادى، وأن يقيموا من الولائم ماهو على نطاق باذخ لايمكن أن تسمح به رواتبهم...»

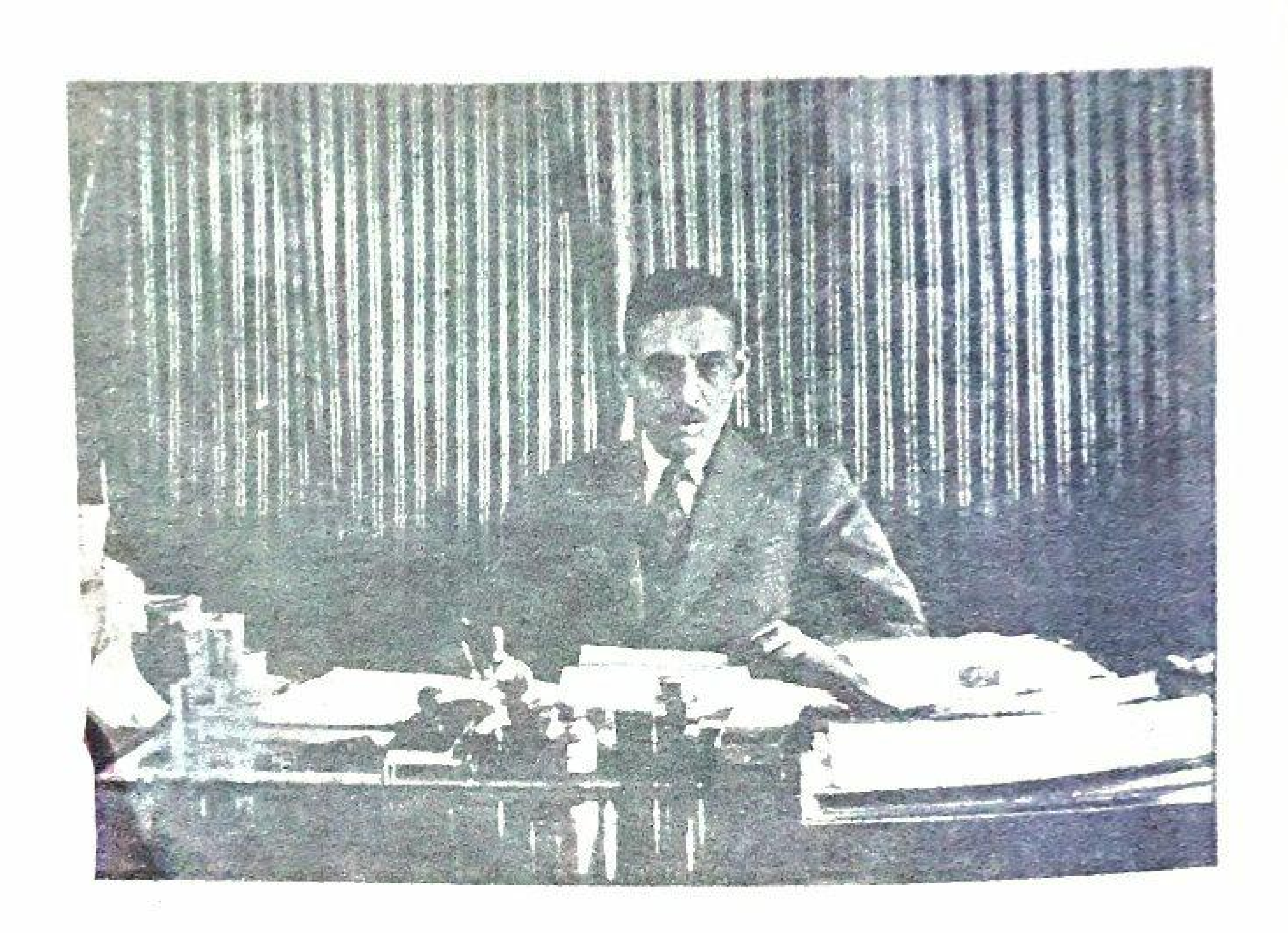
ويمضي الكاتب في مزاعمه قائلا:-

«ان معظم العراقيين لايميلون الى تصديق مايقال من أن انتحار السر عبد المحسن السعدون كان نتيجة للكآبة التي شعر بها بسبب مستقبل العراق السياسي وخاصة في وقت كالوقت الحاضر، حين تبدى الحكومة البريطانية ميلا الى اتباع سياسية أكثر ماتكون تحرراً تجاه العراق..»

هذا ما نشرته جريدة «التايمس»، وأهم من ذلك البرقية السرّية التي بعث بها المندوب السامي البريطاني في العراق الى حكومته يخبرها فيها بالحادث، وهذه ترجمتها الحرفية:

على الفور

«يؤسفني كثيراً أن أخبركم أن السر عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء قد اطلق الرصاص على



عبد المحسن السعدون

(المصور الاهلي)

نفسه في الليلة الماضية .

وقد قيل لي انه كان منذ مدة مرهقا بنتيجة المطالب الموجهة اليه من زملائه ومؤيديه ، والتي كانت تتضارب مع وجهات نظره في واجباته نحو البلاد وولائه لزملائه البريطانيين . ان وفاته خسارة عظيمة للبلاد ، ولنا . يقترح الملك أن يطلب الى ناجي بك السويدي الاستمرار مع الوزارة نفسها»[1]

أما الناس في بغداد فقد تناقلوا على أثر الحادث أقوالا واشاعات مفادها أن انتحار السعدون كان بسبب حالة غير طبيعية من الكآبة والمرض النفسيّ الذى كان كامناً لديه ، وأن الأمر كلّه لم يكن يستوجب الانتحار، ولم ينجُ أى سياسي من اتهامات عنيفة يكيلها له خصومه بالحق أو بالباطل . وقد كان بامكانه أن يستقيل مثلا أو يعتزل الحياة السياسية ، وكان في ذلك مايكفي لصيانة كرامته وتضميد الجرح الذي شعر به . وقد تعززت ادعاءات القائلين بذلك الرأى بعد ذلك على أثر انتحار ولده (عليّ) أيضا بعد والده بسنوات ، اذا أخذوا يعزون الأمر الى حالة نفسية وراثية .

---

(١) من المندوب السامي في العراق الى وزير المستعمرات ـ برقية مؤرخة في ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٩ محفوظة في وثائق وزارة الهند برقم : IOR (L/P&S/ 10/ 1244) P 7318

وقال آخرون : «فتش عن المرأة» ، وذهبوا الى أن زوجة عبد المحسن السعدون كانت تزعجه بدرجة لاتطاق وتنغص عليه حياته ، مما سودّ الدنيا في عينيه ، وجعله يكره الحياة ، فعمد الى التخلص منها في لحظة يأس قاتل . ولكن ، اذا صحّ هذا التأويل ، فما معنى رسالته الى ولده اذن؟ ولماذا جاءت قاصرة على الأمور السياسية ، ولم ترد فيها اشارة ولو غير مباشرة الى حياته العائلية وحالته النفسية؟

ان الدراسات التي صدرت عن حياة عبد المحسن السعدون حتى الآن ـ وهي معدودة ـ لم تتناول هذه النواحي ، ولم تلقِ عليها ضوءاً كافياً (وذلك ربما باستثناء دراسة الأستاذ خيري العمري في كتابه «حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث») فهي عبارة عن سرد لوقائع حياة الرجل منذ ولادته حتى وفاته ، يحتوى على كثير من المعلومات والتفاصيل دون أى تحليل لشخصية عبد المحسن السعدون ونفسيته وحياته اليومية وعاداته الشخصية وآرائه في الناس والحياة وظروف انتحارة وملابساته المعقدة ، وبواعثه الآنية والكامنة . ولذلك فان معظم تلك الدراسات ليست أكثر من سيرة (رسمية) تكاد تكون خالية من الجوانب الانسانية .

ولا شك أن الرجال المتفانين في خدمة أوطانهم ، والذين

يضحـون بحيـاتهم في سبيـل كرامتهم ومبـادئهم ، هـم أناس غير اعتياديين ، ولا يحفل تاريخ البشرية منذ أقدم عصورها بغير عدد قليـل جدا من الـرجـال الـذين أقـدمـوا على ما أقـدم عليه عبد المحسن السعـدون . وان سِيَر أولئـك الرجال تبقى مناراً للأجيال التـاليـة ، وتكـون دورساً رائعة في الفداء ونكران الذات ، ولذلك فهي تستحقّ الدراسة من مختلف جوانبها . وفي حياة عبد المحسن السعـدون وانتحـاره متسـع لمزيـد من الدراسات لهذه الشخصية الفريدة في تاريخ العراق الحديث، وفيها كثير من الدروس والعبر .

لمحات من سيرة جعفر العسكري

أول وزير للدفاع في دولة العراق الحديثة

كان جعفر العسكري شخصية نادرة بين شخصيات العراق التي تسلمت مقاليد المسؤولية في البلاد في بداية تأسيس الدولة العراقية الفتية. وكثيراً ما سمعنا من عارفيه عن شخصيته، وخفة روحه، وظرف دعابته، كما سمعنا عن شجاعته ولباقته السياسية وثقافته العسكرية والقانونية، حتى علمنا أخيراً بمصرعه على يد بعض أعوان بكر صدقي، ولم يكن قد عُرِف عن الرجل أنه أساء الى أحد في حياته.

وسيرة جعفر العسكرى حافلة بالأحداث، وأحياناً بالمغامرات التي تصلح أن تكون مادة لقصة سينمائية مثيرة، وقد انتهت نهاية روائية، حزينة. نهاية مؤلمة حقا، ولكنها، مع ذلك، قد تتسق بدرجة غريبة مع سيرته التي كانت كلها عبارة عن أحداث

ومفاجآت. ولو شاء كاتب قصصي أن يكتب رواية عن شخصية خيالية، مرّ بها ما مرّ بجعفر العسكرى من أحداث، لما استطاع أن يجد لقصته نهاية تتسق مع بدايتها، ولا خاتمة تكون أبلغ دلالة ولا أروع إثارة ولا أكثر مفاجأة، من الخاتمة التي انتهت بها حياة ذلك الرجل.

ولم يكن لقب «العسكرى» الذى ألحق باسم «جعفر باشا» اشارة الى مسلكه وان كان عسكريا. بل نسبة الى قرية «عسكر» التي ينتسب اليها بأصله، وهي قرية قريبة من مدينة كركوك. ويبدو أن الفريق بكر صدقي الذى قاد انقلاب سنة **١٩٣٦** وأمر بقتل جعفر العسكرى، كان أصله منها أيضا، فصار يلقب نفسه بالعسكرى، عملا بالقول المصرى المشهور: «مافيش حد أحسن من حد».

ولد في بغداد سنة ١٨٨٥، وكان والده مختاراً لاحدى محلاتها، ودخل المدرسة العسكرية التحضيرية فيها، ثم تخرّج في «المدرسة الحربية» التركية في الاستانة، وأُرسل في بعثة عسكرية للتدرب في المانيا، فأقام فيها ثلاث سنوات، ثم عاد واشترك في حرب البلقان وجرح فيها. ولما انتهت تلك الحرب، وظهرت نوايا الاتحاديين العنصرية انضمّ الى «حزب العهد العربي» وكان من أنشط العاملين فيه.

ثم نشبت الحرب العالمية الأولى فعُين مرافقاً للجنرال الالماني «فون سوشن» ومنح وسام «الصليب الحديدى» الألماني من الدرجة الأولى. وكانت القيادة العثمانية العليا قد وضعت خطة للاستيلاء على مصر بمهاجمتها من الشرق والغرب في وقت واحد. فتولى الفريق جمال باشا (الذى عرف بالسفاح) قيادة الفيلق الرابع لمهاجمة مصر من الشرق بطريق قناة السويس، وعُهِد الى جعفر باثارة القبائل الطرابلسية في ليبيا للاغارة عليها من الغرب بطريق (السلّوم).

ولكن كيف يصل جعفر الى ليبيا والبحر المتوسط يزخر ببوارج الحلفاء؟ تقرر ارسال جعفر في غواصة المانية من الدردنيل الى برقة، فذهب اليها ونزل الى البر بعد تبديل زيّه، واجتمع بالسيد أحمد السنوسي، واتفق معه على تدابير الحملة. ولم يكتف بذلك بل توجه الى مصر متخفيا، ودخلها لدراسة الحالة فيها، وعاد بعد ذلك الى تركية، فصدر الأمر بتعيينه قائداً عاماً في جبهة «برقة» بعد ترقيته الى رتبة لواء، وكان حامل هذه الرتبة في الجيش العثماني يحصل على لقب (باشا) تلقائيا. وسافر جعفر الى بيروت، ثم استقل منها سفينة شراعية قاصداً سواحل برقة خلسةً عن أساطيل الحلفاء، وكان ذلك في أوائل سنة ١٩١٥، وقد استغرقت هذه الرحلة المثيرة ثلاثة أسابيع واجهت السفينة خلالها أهوالا ومخاطر عديدة، ووصلت الى مقربة من (السلوم) فأسرع

رجالها في تفريغ حمولتها من الأسلحة والذخائر، ولكن الحلفاء قبضوا عليها خلال عودتها وأسروا نوتيتها، بينما كان جعفر ورجاله في ليبيا يعملون على تنظيم القوات النظامية والقبائل الطرابلسية التابعة للسنوسي.

وعلى الرغم من الخطة المتفق عليها بين جعفر وجمال بالهجوم على مصر من الشرق والغرب في آن واحد، فان جمالا لم يتقيد بهذا الاتفاق لاعتقاده بأنه يستطيع أن ينال هذا الفخر وحده، ولم يشأ أن يُشرك غيره فيه، بل استعجل الهجوم قبل أن يكمل جعفر استعداداته، فكانت النتيجة ذلك الفشل الذريع الذى منيت به القوات العثمانية على قناة السويس.

أما جعفر فقد أسرع الى اجتياز الحدود المصرية بالقوات التي تمكن من تجهيزها، وواصل زحفه في طريق الاسكندرية الى أن وصل «مرسى مطروح»، فسحبت القيادة البريطانية قوات كبيرة من جبهة قناة السويس بعد أن هزمت قوات جمال باشا فيها، وجردتها على جعفر في جبهة «مرسى مطروح» وهاجمته من البرّ والبحر. واشتبك الجيشان بالسلاح الأبيض، وجرح جعفر بطعنة سيف، ثم أُسِر وجيء به الى القاهرة واعتقل في قلعتها.

وفكر جعفر في طريقة للهرب من القلعة، فعقد عدة بطانيات

ببعضها، متخذاً منها حبلاً، وتدلّى في الليل من احدى النوافذ، ولكن البطانيات لم تحتمل ثقله لضخامة جسمه، فانفرط عقد احداها، وسقط جعفر على الأرض وأصيب بكسر في ركبته.

ولم تفارق جعفراً خفة روحه حتى في هذه اللحظة، وكانت صلاته بآسريه قد أصبحت ودية، فأخذ يلحّ على دفع قيمة البطانيات الممزقة، فأضحكهم، واستطاع أن يلطف الجوّ، ويخفف من غضبهم، فنقلوه الى المستشفى. وفي هذه الفترة كانت الثورة العربية التي قامت في الحجاز في بدايتها، وكان الضباط العرب يلتحقون بها من كل حدب وصوب، فقرر جعفر الانضمام اليها، فسُمح له بالسفر الى مكة بطريق البحر الأحمر، فلما وصلها أُلحق بالجيش العربيّ الذى كان مرابطا حول «المدينة المنورة» بقيادة «الشريف» فيصل.

وعيّن فيصل جعفراً قائداً عاماً لقواته دون استشارة والده «الشريف حسين» مما أغضبه وجعله يأمر بعزله. فأبرق فيصل الى والده بأن في ذلك اهانة له لايقبلها، وانة سيتخلى عن مسؤ ولياته، وينفض يده من (النهضة) اذا أُقيل جعفر، فاضطرّ الحسين الى الموافقة وأرسل برقية استرضى بها ولده.

واستولى «الجيش الشمالي» على العقبة، واتخذها قاعدة

حربية، ثم سار شمالا حتى فتح دمشق. وقبل انتهاء تلك الحملة كان «الجنرال اللنبي» قد منح جعفر باشا وساماً في مقرّ قيادته في «بير سالم» بفلسطين وسط حلقة من الرجال المنتمين الى الكتيبة التي أسرته في مصر. وكان لاختيار هذه الحلقة بمثابة (حرس شرف) في ذلك الاحتفال وقع جميل في نفس جعفر، ولكنه مع ذلك حافظ على روح الدعابة التي اتصف بها طيلة حياته، فأصرّ على أن يحمل في هذه المناسبة «وسام الصليب الحديدى» الذى ناله من أعدائهم الألمان، وكان له ما أراد.

وبعد احتلال سورية عين جعفر حاكماً لمنطقة «عمان»، ثم حاكماً لمنطقة حلب بعد سقوطها. ولما قامت الدولة العربية في سورية وتُوّج فيصل ملكاً عليها، عين جعفر كبيراً لمرافقيه، وبقي في هذا المنصب الى أن وقعت معركة ميسلون، فترك سورية مع فيصل الى فلسطين، ثم برحها معه قاصداً أوربا.

وفي هذا الوقت كانت الثورة الوطنية في العراق، ثورة العشرين التي قامت ضدّ الحكم البريطاني، قد اشتدّ أوارها، حتى حملت الانكليز على تغيير سياستهم في العراق، وتأسيس حكومة وطنية ـ في مظهرها على الأقل ـ فتألفت الحكومة المؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب. وطُلب الى جعفر العسكرى، وكان قد وصل الى «بور سعيد» في طريقه الى اوربا مع فيصل،

أن يعـود الى العـراق للاشتراك في تلك الحكومة وزيراً للدفاع في دولـة العـراق الحـديثـة ، وبهـذه الصفـة كانت المهمة الأولى التي ألقيت على عاتقه انشاء جيش عراقيّ وطني تمهيداً لتأسيس دولة عربية . واحتفظ جعفر بمنصبه هذا في وزارة النقيب الثانية أيضا .

ولمـا عُقـد مؤتمـر القـاهـرة في آذار سنـة ١٩٢١ برئـاسة المستر تشرشل وزير المستعمرات البر يطاني ، حضره جعفر العسكرى مع السر برسي كوكس ، وفي هذا المؤتمر تقرر تأسيس الدولة العراقية ونصب فيصل الأول ملكا عليها .

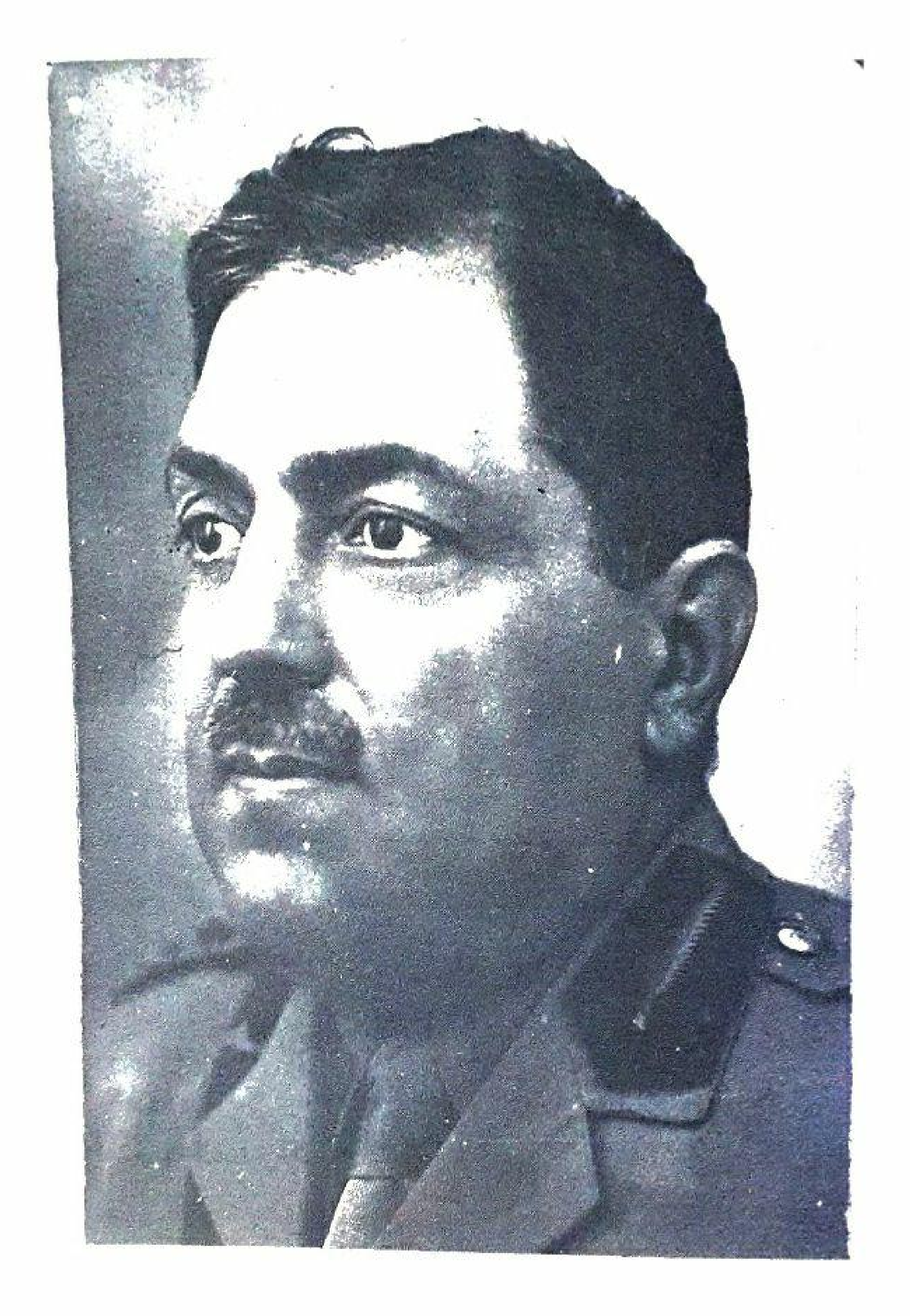
وفي سنـة ١٩٢٢ عُيّن جعفـر باشا أول ممثل دبلوماسي للعراق في بريطـانيـة ، ولكنة استُدعي الى بغداد بعد سنة واحدة ، وعُهد اليـه بتأليف الـوزارة ، فبقي في رئاسة الوزارة حتى آب ١٩٢٣ ثم استقـال منهـا فخَلَفَـه فيهـا ياسين الهاشمي ، وعاد هو الى لندن وزيـراً مفـوضـاً للمرة الثانية . وعاد الى بغداد مرة أخرى ، فألف وزارتـه الثـانية ، وبعدها عاد الى لندن للمرة الثالثة فبقي فيها من سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٤ .

وانتمى جعفـر خلال اقـامتـه في لنـدن الى احـدى كليـات الحقوق ، ودرس القانون وأكمل دراسته ونال شهادته ، وكان ذلك بطبيعة الحال بدافع من رغبته في الاستزادة من العلم ، ولم تكن به



جعفر العسكري

أول وزير للدفاع



جعفر العسكري

(من مجموعة الأستاذ خيري العمري)

الى الشهادة حاجة بعد أن وصل الى أعلى المناصب وأصبح رئيسا للوزراء مرتين، ووزيرا للدفاع مرتين.

واستُدعي جعفر العسكرى الى بغداد وعين وزيراً للدفاع في الوزارة التي ألفها ياسين الهاشمي في آذار سنة ١٩٣٥، وكانت هذه المرة الخامسة - والأخيرة - التي يتولى فيها هذه الوزارة التي أحبها وخدمها مدة طويلة.

وفي أواخر سنة ١٩٣٦ فاجأ بكر صدقي وزارة الهاشمي بانقلابه المعروف، فقرر جعفر الخروج لمقابلة القطعات الزاحفة على بغداد، وكان واثقاً أنه سيستطيع بتأثيره الشخصي أن يثنيها عما تعتزمه، ويحبط محاولة بكر صدقي، معتمداً على مايكنّه الضباط له من محبة واحترام. ولكن بكر صدقي كان يعرف ذلك أيضا، فلما بلغه خروج جعفر أرسل اليه من يقتله قبل وصوله الى مقرّ القوات خارج بغداد. وهكذا انتهت حياة الرجل بصورة روائية، كما بدأت، وكما كانت في معظم مراحلها. وكان في الحادية والخمسين من عمره.

كان جعفر شخصية ظريفة، وسياسيا مرحا، وصاحب نكتة، ونروى عنه قصص طريفة و«مقالب» متنوعة. وكان بديناً مكتنز الجسم، ذكياً كثير القراءة. وقد جاء في التقرير السرى الذى

أعدته السفارة البريطانية في بغداد عن الشخصيات العراقية لسنة ١٩٣٥ (والمحفوظ بدار الوثائق البريطانية في لندن) الوصف الآتي:

«يتكلم العربية والتركية والكردية والأرمنية والفارسية والالمانية والفرنسية والانكليزية. ضخم الجسم، متقلب المزاج بطبيعته. نزيه، حسن النية ولطيف المعشر، وان كان خاملاً بدرجة لايواجه معها الحقيقة حينما تكون مزعجة. ميال الى تبني موقف أقل مقاومة وانتظار مافيه الخير. ليست له قدرة على الدسائس، ويُخدع بسهولة. متكلم جيد، وتاكتيكي ممتاز (ولكنه ليس استراتيجيا). شجاع ويقظ في المعارك» [١]

ولا شك أن سيرة جعفر العسكرى، وأعماله، يجب أن يحكم عليهما بالقياس الى العهد الذى عاش فيه، وعلى ضوء الظروف السياسية المحيطة بالبلاد في ذلك العهد، بالاضافة الى علاقته الشخصية بنورى السعيد، فقد كان كل منهما متزوجا من شقيقة الآخر. ومن الوفاء أن يذكر الرجل في ذكرى تأسيس الجيش العراقيّ الباسل.

---

(١) من السر آ. كلارك كير الى المستر ايدن بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩٣٥

F.O. 371/ 2000 (B 172/ 172/ 93)

هل كان لبريطانية علم سابق بانقلاب بكر صدقي ؟

هنالك من المؤرخين - أو من يكتبون في الموضوعات التاريخية - نفر يضعون مقدماً النتائج التي تروق لهم أو يؤمنون بها لسبب من الاسباب، ومن ثم يحاولون اثبات تلك النتائج، والبحث عن الأدلة التي تؤيدها، وبناء استنتاجاتهم على قرائن واهية أو وهمية. وما هذا بمنهج صحيح في كتابة التاريخ، ولا في معالجة موضوعاته.

ومن الامور التي كانت وقت قريب - والى سنة ١٩٦٧ على الاقل - مجهولة نوعاً ما، أمران يتعلقان بانقلاب بكر صدقي الذي وقع في سنة ١٩٣٦، وهما: هل كانت بريطانية على علم سابق بهذا الانقلاب، وهل كان الملك غازي على علم سابق به. أما بعد سنة ١٩٦٧، اي بعد تغيير القانون الخاص بفتح الوثائق

البريطانية، فلا وجه للقول بان التساؤل عن الامرين، وأولهما بصورة خاصة، بقي الجواب عنه مشكوكاً فيه أو يشوبه اي غموض.

ومهما كان موقفنا من انقلاب بكر صدقي باعتباره انقلاباً عسكرياً غير مرغوب فيه، ومهما كان رأينا في اتجاهات بكر صدقي التي لم تكن متمشية مع الخط القومي العربي، ذلك الخط الذي كان واضحاً في سياسة ياسين الهاشمي، فان ذلك لايسوّغ للمؤرخ أن يقفز الى استنتاجات اعتباطية، في حالة وجود الأدلة الصريحة القاطعة.

ولما كان التساؤل يتعلق ببريطانية، ومدى علمها السابق بالانقلاب، فان الوثائق البريطانية، بطبيعة الحال، هي المرجع الذي يلقي الضوء على هذا الموضوع، وان تقارير السفير البريطاني في بغداد في ايام الانقلاب الى حكومته (وهي تقارير لم تكتب للنشر، ولم يكن السفير ليتوقع اطلاع أحد عليها قبل مرور خمسين عاما)، وكذلك التعليقات المدونة على هذه التقارير في وزارة الخارجية البريطانية بأقلام المسؤولين، واضحة جميعاً في هذا الشأن كل الوضوح، ولا تترك مجالاً لأي شك فيه.

على اننا قبل ان نلقي نظرة على برقيات السفير وتقاريره الى

حكومته على اثر وقوع الانقلاب، نجد في تقاريره التي سبقت وقوعه، ارتياحاً تاماً لوزارة ياسين الهاشمي التي أطاح بها الانقلاب، والتي كان نوري السعيد وزيراً للخارجية فيها. فقد كان اجتماع ياسين الهاشمي ونوري السعيد في وزارة واحدة وضعاً مثالياً بالنسبة لبريطانية، الأول لامتصاصه المعارضة الداخلية ضدها بسبب ماعرف من اتجاهه القومي، والثاني لضمان المصالح البريطانية من ان يسيىء اليها ياسين واعوانه.

ولما وقع الانقلاب صبيحة يوم ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٣٦، طيّر السفير - على اثر سماعه بأخباره - البرقية الآتية الى وزارة الخارجية:

في ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم ألقت طائرات القوة الجوية الملكية العراقية مناشير على بغداد بتوقيع بكر صدقي تعلن بانه (طلب اليه) الاطاحة بالحكومة. وبعد ذلك بمدة قصيرة سلمت الى البلاط رسالة موقعة من بكر صدقي وقواد الفرق الآخرين، حملها حكمت سليمان، تدعو الملك غازي الى اقالة الوزارة خلال ثلاث ساعات، وتعيين حكمت سليمان رئيساً للوزراء. وتقول انه اذا لم يتم ذلك فان الجيش (الذي كان محتشداً بسبب المناورات على بعد ٦٠ ميلاً تقريباً

شمال شرقي بغداد) سيزحف على العاصمة .

٢- في الساعة العاشرة صباحا أرسل الملك بطلبي لبيان الموقف، وكان رأيه ان المقاومة ستكون عقيمة، وان استقالة الوزارة التي كانت بين يديه يجب قبولها .

٣- كانت نصيحتي ان على جلالته قبل كل شيء اقناع الجنرالات بالعدول عن الزحف الى بغداد . . . الخ[١]

وبعد ساعات قلائل، عاد السفير فارسل برقية أخرى جاء فيها :

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم أُلقيت أربع قنابل من الطائرات على مكاتب الحكومة . حدثت اصابات قليلة . وقد أُخليت المكاتب سريعاً . . . الخ .[٢]

فما هي الاجراءات التي اتُخذت في لندن على هاتين البرقيتين؟

---

(١) من السرآ . كلارك كير الى وزير الخارجية بتاريخ ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦

F.O. 371/20013 (E 6783)

(٢) من السرآ. كلارك كير الى وزير الخارجية بتاريخ ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦

F.O. 371/20013 (E6784)

ان العـادة التي كانت متبعـة في وزارة الخـارجيـة البريطانية في ذلـك الـوقت ـ ولعلهـا ماتـزال متبعـة حتى الان ـ هي ان تُقدَّم البرقية او التقرير الى الموظف المسؤول عن شؤون العراق(أو أي قطـر يصـل منه التقرير) فيرفع هذا الموظف التقرير أو البرقية الى رئيسه المباشر ـ وهو في حالة العراق مدير الدائرة الشرقية ـ بعد ان يدون عليهـا ملاحظـاته وتعليقاته ويرفقها بالسوابق التي يرى أنها قد تفيد في فهم الموضوع أو في اتخاذ قرار أو اجراء بشأنه. فاذا وجد مديـر الـدائرة الشرقية أنها تقع في حدود صلاحياته بت في امرها، او قرر صيغة الجواب الذي ينبغي إرساله عنها، ولكنه إن وجده أهم من ذلـك، او تخرج عن نطـاق صلاحياته، رفعها الى وكيل الـوزارة المسـاعد المشرف على الدائرة الشرقية، ويقوم هذا بدوره بالبت فيها أو رفعها الى وكيل الوزارة الدائم ليبتّ فيها أو يرفعها الى وزير الخارجية، حسب ماتقتضي أهمية الموضوع.

ولمـا وصلت برقيـة السفيـر الى الـوزارة، رفعهـا المستر جي. جي. وارد (المسـؤول عن شؤون العـراق) مع مطـالعـة في سبع فقـرات، الى المسـتر جورج رنـدل، مديـر الدائرة الشرقية، وقد جاء في الفقرة الاولى من المطالعة مايأتي:

«١ – هذا أنحس تطـور جاء كمفـاجأة تامة لوزارة الطيـران وللسفـارة، بقدر ما هولنا. وعلى الرغم من

ان عدم الارتياح بين العشائر على الفرات؛ والى حد ما بين العشائر الكردية في الشمال، كان يسبب بعض العبء على الحكومة في الآونة الاخيرة، فانه لم يكن هنالك ما يوحي بحدوث انقلاب من هذا النوع. وقد جاء في التقرير السياسي الأخير من بغداد أن ياسين باشا (واثق بسرور) من مستقبله» . .

وجاء في الفقرة (٤) من هذه المطالعة ايضاً:

٤ ـ ان هذا الافتئات على النظام الدستوري في العراق، وخاصة إساءة استعمال القوة بصورة مستهترة بالقاء القنابل على دوائر الحكومة، لايمكن أن يؤدي الآ الى تعقيد العلاقات البريطانية ـ العراقية، وتخريب معظم العمل الذي تمكنّا من إنجازه بالتعاون الودي. لقد أظهر ياسين باشا نفسه صديقاً متعاوناً ومفيداً للغاية. وبالاضافة الى ذلك، فان ياسين، ونوري باشا، وغيرهما من أعضاء الوزارة الحالية كانوا قد اتبعوا سياسة عربية تدعمها الصداقة مع بريطانية. . . الخ.

ولما اطلع المستر رندل على هذه المطالعة علق عليها بدوره بتعليق استغرق صفحتين، ورفعها الى السر لانسيلوت اوليفانت، مساعد وكيل وزارة الخارجية، وجاء في تعليقه قوله:

" إن ملاحظات المستر وارد تعطي صورة مفيدة جداً لخلفية الوضع.



بكر صــدقي

ولكن قتـل جعفر باشا - المبلغ عنه ببرقية بغداد المرقمة ٢٦٩ - يدل على ان الامور قد تتجه بسهولة، وفي ايه لحظة، اتجاهاً اكثر قبحـاً. إن بكـر صدقي الـذي كانت له - حسبما أعلم - عداوة شخصيـة لجعفـر، قد يتمتع بشخصيـة قويـة، ولكن ليس من المحتمل ان يكتفي باي قدر من الاعمال القذرة.... "

وكتب السر لانسيلوت اوليفانت الهامش الآتي:

" اخبرت وزيـر الخـارجيـة انـه قد يكون من المفيد - في رأيي - انتظـار المـزيـد من الأخبار من السر آ. كلارك كير [السفير]. لا أرى حاجة لارسال تذكير اليه. إنه قادر على معالجة الموقف بنفسه ".

اما الـبرقيـة المـرقمـة (٢٦٩) المشـار اليهـا في مطالعة المستر رنـدل، فقـد أرسلت في اليوم التالي للانقلاب، وفيها يخبر السفير الـوزارةَ بمقتـل جعفـر العسكـري والتجـاء نوري السعيـد الى السفـارة الـبريطـانيـة واختفـاء ياسين الهاشمي في مكان ما من بغداد، ويقول:

وقـد شعـرت أن عليَّ أن ابـذل كل ما في وسعي لوقف هذه الجـرائم ، فطلبت الى المستر ادمـوندس (١) ان يواجه حكمت

---

(١) مستشار وزارة الداخلية العراقية

وفي وزارة الخارجية علق المستر وارد مرة اخرى على هذه البرقية في خمس فقرات، وجاء في الفقرة الرابعة من تعليقه:

٤- ان هذه البرقية تؤكد الانطباع المستمد من التقارير الاولى، وهو ان حكمت سليمان ووزراءه هم رجال من قش، ومن المحتمل انهم قد جيء بهم لان العسكريين يدركون انهم بالحفاظ على المظاهر الخارجية للحكومة الدستورية قد يقللون من احتمال اصطدامهم بالحكومة البريطانية. ولكن حتى اذا احتفظ بمظهر الحكومة الدستورية، فسيصبح من العسير جداً الابقاء على التحالف [البريطاني - العراقي] مع نظام يسيطر عليه الجيش العراقي الذي ظهر عداؤه الكامن لكل ما هو بريطاني في اثناء الاضطرابات الآثورية سنة ١٩٣٣ حين هدد الجنرال بكر صدقي بقتل أحد أعضاء البعثة العسكرية البريطانية، وحين قام الجيش العراقي في الموصل

(١) من السرآ. كلارك كير الى المستر انطوني ايدن بتاريخ ٣٠ تشرين الاول ١٩٣٦

F.O. 371/20013 (E 6797)

بتدريب مدفعيته في مخيم القوة الجوية الملكية [البريطانية].

وجاء في الفقرة الخامسة من التعليق:

«.. ولذلك يبدو لي أننا يجب ان نكون حذرين في التجاوب مع النظام الجديد، على الاقل حتى يتبين لونه الحقيقي».

أفلا يدل هذا التعليق على ان وزارة الخارجية البريطانية لم تكن تعرف اللون الحقيقي للانقلاب فتوصي بالحذر في التجاوب معه الى أن يتبين ذلك اللون؟

وبعد ذلك علق موظفو الوزارة على هذه البرقية كالعادة حسب تسلسل وظائفهم، حتى وصلت الى وزير الخارجية «مستر ايدن» الذي علق عليها بخط يده بما يأتي:

«ان هذه الانباء مزعجة. انها انتصار آخر للقوة في عالم غير مستقر. علينا، مع ذلك، ان ننتظر المزيد من المعلومات. السر آ. كلارك كير يواجه الامر بهدوء، ولا يبدو انه قلق على مصير العلاقات البريطانية كثيراً»

وعلى اثر ذلك ارسل وزير الخارجية «ايدن» برقية الى السفير في بغداد تتضمن تعليماته اليه ازاء الموقف في العراق، جاء فيها:

١- انني اوافق تماما على الخطة التي سرتم عليها لحد الآن في هذا الوضع الصعب والمحفوف بالخطر، وسامنحكم تاييدي الكامل في أية اجراءات مقبلة قد تجدونها ضرورية لحماية أرواح اعضاء الحكومة السابقة.

٢- ان الاطاحة بالحكومة الدستورية من قبل زعماء الجيش لهو تطور يسبب لحكومة جلالته قلقاً عظيماً، وإن الموقف في المستقبل يتطلب تفكيراً دقيقاً.

وفي الوقت الحاضر اتفق في ان الطريقة الوحيدة الممكنة هي البقاء على صلة برئيس الوزراء الجديد، وممارسة نفوذكم في دعم النظام الدستوري...»[1]

ان الوثائق المذكورة أعلاه والتعليقات المدونة في هوامشها، تكفي للدلالة بصورة لاتقبل الشك على ان بريطانية فوجئت بالانقلاب ولم يكن لها اي علم سابق به، بل انها قلقت له وتخوفت من نتائجه في بادئ الأمر. وهنالك عشرات الوثائق الاخرى التي تؤيد هذه الحقيقة، وليست هنالك ضرورة لنقل المزيد منها، ولكن واحدة منها تعطي فكرة عن وقع الانقلاب في

(١) من المستر انطوني ايدن الى السر آ. كلارك بتاريخ ٣١ تشرين الأول ١٩٣٦

F. O. 371/ 20013 (E 684)

لندن، والارتباك الذي سببته أخباره الأولى، وهي برقية صادرة عن (وزارة الحرب) البريطانية الى قيادة القوات البريطانية في مصر، أرسلت في الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين من يوم الانقلاب. وتوعز هذه البرقية **«بوضع فوجين من المشاة في حالة الانذار لأجل التوجه من مصر الى العراق فور الايعاز اليها بذلك»**[1] كاجراء احتياطي، فيما اذا احتاجت القوة الجوية الملكية البريطانية في العراق الى اية مساعدة.

وبالاضافة الى ذلك فقد كتب السفير رسالة شخصية الى السر لانسيلوت اوليفانت، مساعد وكيل وزارة الخارجية، يخبره فيها بأن «الكرنل ووترهاوس»، عضو البعثة العسكرية البريطانية في العراق منزعج جداً من وقوع الانقلاب، وانه يفكر في الاستقالة لاعتقاده **«بان الجيش قد فسد بتدخله في السياسة، واشمئزازه من العمل بعد الآن مع «الجنرال هي» - رئيس البعثة العسكرية - الذي اثار نفرة كثيرين من أعضاء البعثة العسكرية بتعمده زيارة بكر صدقي في وزارة الدفاع في صباح اليوم التالي**

---

(١) من وزارة الحرب الى قائد القوات البريطانية في مصر - مكررة الى مقر القيادة العامة في فلسطين وشرق الاردن بتاريخ ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦

F.O. 371/20013 (E 6815)

للاطاحة بحكومة ياسين ووعده اياه بالتعاون معه»[1]

وعلى الرغم من هذه الأدلة القاطعة الصريحة جميعاً ، فهناك من لايزال يزعم أن الحكومة البريطانية كانت على علم سابق بالانقلاب ، وقد انتقل هذا الرأي المغلوط الى بعض الاطروحات الجامعية التي ينبغي أن تتصف بالدقة العلمية والموضوعية والاطلاع الشامل على الوثائق التاريخية المتعلقة بموضوعها ، ولابد من تصحيح ذلك الخطأ الشائع عن أحد الأحداث المهمة في تاريخ العراق القريب .

---

(١) من السرأ. كلارك كير الى السر لانسيلوت اوليفانت بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩٣٦

F.O. 371/20001 (E 7025)

هل كان للملك غازي علم سابق
بانقلاب بكر صدقي ؟

اذا كانت بريطانية قد أُخِذت بانقلاب بكر صدقي على حين غرة، وفوجئت به مفاجأة تامة، فان معرفة الملك غازي بالانقلاب مسبقاً، يبقى أمراً يشوبه بعض الغموض ولا نجد عنه دليلاً قاطعاً تماماً، لأن المصادر المختلفة ليست واضحة بنفس الدرجة في هذه الناحية، فمنها ما ينفي علمه السابق بالانقلاب نفياً قاطعاً، ومنها ما يؤكده، ومنها ما يستنتج ذلك استنتاجاً.

اما أسباب هذا الاستنتاج فواضحة معروفة. إذ لم يكن سراً في تلك الفترة أن الملك غازي - شخصياً - لم يكن مرتاحاً الى رئيس وزرائه ياسين الهاشمي بسبب مافرضه على تصرفاته من قيود، وعلى حاشيته من رقابة، حفاظاً على سمعة العرش، خاصة بعد حادث زواج الاميرة عزة. ولذلك كان من الطبيعي

أن يستنتج الناس أن القائمين بالانقلاب لوّحوا للملك بنيّتهم، لعلمهم بانه سيرتاح للتخلص من ياسين. وهذا محض استنتاج قد يصح وقد يكون غير صحيح، ولكن ليس هنالك دليل ينفي أحد الاحتمالين، أو يؤيده.

روى طه الهاشمي (شقيق ياسين الهاشمي ورئيس أركان الجيش في وقت الانقلاب، وكان غائباً عن العراق عند وقوعه) في مذكراته ماسمعه من صفوة العوّا عن الموضوع. إذ كتب في مذكراته ليوم ٢٢ تشرين الاول ١٩٣٧ (أي بعد وقوع الانقلاب بسنة واحدة تقريباً) ما يأتي:

«.. ويقول صفوة العوا إنه دخل على الملك بعد الانقلاب فرآه منبسطاً منشرحاً يتبجّح بأنه رتب الانقلاب، وهو الذي د مؤامرة الجيش، فيزعم صفوة بانه قال للملك انك لاتعلم عن الامر شيئاً، فلماذا تلقي نفسك في ورطة، وواجبك ان تبقى على الحياد؟»[1]

ان استعمال طه الهاشمي كلمة (يزعم) يدل على انه كان يخامره بعض الشك في هذه الرواية. في حين ان صفوة (باشا) العوا كان من رجال الملك فيصل الاول في سورية، ثم قدم الى العراق

---

(١) مذكرات طه الهاشمي، بيروت ١٩٦٧ الجزء الاول ص ٢٢٤



الملك غازي



حكمت سليمان

معه، فاصبح «ناظرا للخزينة الملكية الخاصة»، وكان قبل ذلك مدرساً ورائداً لـ (الأمير) غازي الذي عرفه طفلاً. ولذلك فان علاقته بالملك غازي وبأبيه كانت تسمح له بمخاطبته بهذه اللهجة، وبحرية اكثر من غيره، ومن المحتمل جداً ان تكون هذه الرواية صحيحة.

وقال السيد عبد الرزاق الحسني في «تاريخ الوزارات العراقية»:

«يرى بعض الساسة ان لجلالة الملك غازي علماً بحركة الجيش، ولكن السيد رستم حيدر، رئيس الديوان الملكي، أكّد لنا أن الملك كان مضطرباً كل الاضطراب من هذه الحركة، وانه بقى مضطرباً، لاياكل ولا يشرب حتى كلم جلالته الفريق بكر صدقي من مخفر شرطة «المغيسيل» مؤكداً أن الجيش سيبقى على ولائه لصاحب التاج [1] اما السيد حكمت سليمان فقد قال لنا إن الملك غازي لم يكن مسبوقاً بالحركة، ولكنه قابلها بالارتياح لان الوزارة الهاشمية الثانية كانت قد فرضت رقابة شديدة على

---

(١) بعد نشر هذه المقالة في (الف باء) اتصل بي السيد عبود الدجيلي، واخبرني انه كان مراقباً لتلفونات مركز بغداد عند وقوع الانقلاب وان لديه معلومات لم يدل بها لاحد لحد الآن، وقد رأى بعد قراءة المقالة ان يزودني بها. قال إنه بعد القاء القنابل على «السراي» في بغداد بساعة واحدة تقريباً، اتصل بكر صدقي تلفونياً من مكان ما بين =

تصرفاته الشخصية[1].

وروى الدكتور سندرسن ـ طبيب العائلة المالكة ـ في مذكراته انه استُدعى الى «قصر الزهور» في الساعة العاشرة من صباح يوم الانقلاب، ولم يكن الملك قد ذهب الى مكتبه في البلاط في ذلك اليوم، وقال الدكتور سندرسن :

«.. فوجدته يذرع الشرفة في حالة من الهياج الشديد. وكان متمنطقاً بحزام ذي قراب فيه مسدس ظاهر للعيان، ولم يسبق لي

= كركوك وبغداد، وطلب من مأمور البدالة (عبود جورج) -وهو حي يرزق- أن يكلم الملك فسأل المتحدث عن اسمه ورقم التلفون الذي يتكلم منه، فنهره بكر صدقي وسبه، فاتصل المأمور بمراقب مركز تلفونات بغداد (السيد عبود الدجيلي) فقام بايصاله بقصر الزهور، وبقي على الخط يصغي، نظراً لأهمية المكالمة وخطورة الظروف، وان المحادثة التي دارت بين بكر صدقي والملك غازي ما تزال عالقة بذهنه وكأنها جرت أمس.

طلب بكر صدقي من بدالة القصر ان يكلم الملك، وقال له: جلالة سيدنا، اننا ليس لدينا شيء ضد العرش، فنرجوك ان تطمئن، وكل ما نريده هو التخلص من هذه الوزارة للقضاء على الفساد والارتباط بالاجنبي.

ولعل هذه المكالمة كانت من مخفر شرطة «المغيسيل» والتي اشار اليها رستم حيدر. وانني اذا أسجل هذه المعلومات فانني اسجل ايضاً شكري للسيد عبود الدجيلي على تفضله بتزويدي بها.

(1) السيد عبد الرزاق الحسني «تاريخ الوزارات العراقية»، الجزء الرابع، صيدا، طبعة سنة ١٩٥٣، ص ١٩٩

ان رأيته يحمل سلاحاً داخل القصر الا مرة واحدة. . .»

ويضيف سندرسن أنه فحص قلب الملك بالسماعة، فوجده يخفق بسرعة اكثر من الطبيعية، ثم يقول:

«لم يخامرني شك في أنه كان على علم سابق بالحادث، وأن الخطر الوحيد عليه كان يكمن في احتمال وقوع إجراء مضاد. وكانت زوجتي قد صحبتني، وكانت ترتشف القهوة مع الملكة عالية وسيدات العائلة الأخريات حينما انضممت بعد ذلك بقليل الى جناح السيدات.

وشعرت شعوراً أكيداً بان الملكة (وهي موضع ثقة غازي في أسراره من كل نوع، بما فيها غرامياته التي تغتفرها بنفس كريمة) كانت على علم بالمؤامرة. وهي لم تُظهر عواطفها كثيراً، ولكنني إذ كنت على معرفة تامة بمزاجها، فقد كان من الواضح لي أنها كانت متخوفة. . .»(١)

وهذا ما استنتجه الدكتور سندرسن من تصرفات الملك غازي والملكة عالية استنتاجاً، ويبدو أن هذا هو الرأي الذي توصل اليه

---

(١) Sinderson Pasha, Sir Harry, Ten Thousand and One Nights London (Hodder Stoughton, 1973, p. 157

بالحدس والتخمين، ولكنه لم يذكر هل ند من أحدهما -بسبب حالة الهياج التي شهدها- قول أو فعل يؤيد هذا الانطباع.

وكان من الأسباب الرئيسية التي أدت الى انتشار الاشاعات من ضلوع الملك غازي في الانقلاب عبارة وردت في المنشور الذي أُلقي من الطائرات في صبيحة يوم الانقلاب. فقد جاء في ذلك المنشور الذي كان يحمل توقيع الفريق بكر صدقي مايأتي: «... طلب الى صاحب الجلالة الملك المعظم إقالة الوزارة القائمة، وتأليف وزارة من ابناء البلاد المخلصين برئاسة السيد حكمت سليمان ... الخ»

فقد اختلف الناس في قراءة عبارة «طلب الى». فمنهم من قرأها مبنية للمجهول (بضم الطاء وكسر اللام)، ومنهم من قرأها كفعل ماض (مع تشديد الياء في: اليّ). وهذه القراءة الأخيرة تدل على أن الملك هو الذي طلب الى بكر صدقي أن يقيل الوزارة، وان لم يكن هذا هو المعنى المقصود، وان القراءة الاولى هي الصحيحة، وهو لبس كان يجب تحاشيه في مثل هذه الوثيقة الخطيرة، وقد أدى فعلاً الى كثير من سوء الفهم الذي لم يكن له من مبرر.

والآن نعود الى الوثائق البريطانية، لنرى ماذا كتب السفير

البريطاني الى حكومته عن الموضوع ، وقد كان في وضع يستطيع معه أن يحصل على كثير من المعلومات بسبب اتصالاته الواسعة بالمسؤولين والساسة في ذلك العهد .

جاء في البرقية الأولى التي طيرها السفير الى وزارة الخارجية في لندن صباح يوم الانقلاب أن الملك أرسل بطلبه في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم لبيان الموقف ، وان رأى الملك كان «ان المقاومة ستكون عقيمة ، وان استقالة الوزارة التي كانت بين يديه يجب قبولها» (١)

ولما غادر ياسين الهاشمي بغداد الى دمشق بطلب من حكومة الانقلاب ، زاره القنصل البريطاني في دمشق ، ثم أبرق الى حكومته قائلاً :

«قمت ـ كبادرة مجاملة ـ بزيارة ياسين الهاشمي على اثر وصوله دمشق بعد ظهر اليوم . وكان يرافقه لدى هروبه من العراق رشيد عالي الكيلاني وجميل المدفعي .

«بدا ياسين الهاشمي متأثراً لاغتيال جعفر العسكري الذي كان المفروض أن يأتي معه . وقد اتهم الملك بالتحريض على الانقلاب . . .»(٢)

---

(١) برقية من السر آ. كلارك كير الى وزير الخارجية بتاريخ ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦
F.O. 371/20013 (E 6783)

(٢) برقية من القنصل البريطاني في دمشق الكرنل ماكيرث الى وزارة الخارجية بتاريخ ٣٠ تشرين الاول ١٩٣٦
F.O. 371/20013 (E 6819)

وبعد الانقلاب ببضعة أيام، أرسل السفير البريطاني في بغداد تقريراً تفصيلياً الى وزارة الخارجية سرد فيه أحداث الانقلاب، وجاء في الفقرة (٤) منه:

«في حوالي الساعة العاشرة الآ ربعاً [من صباح يوم الانقلاب] وصلتني رسالة من الملك غازي يطلب فيها أن أذهب لرؤيته، ففعلت ذلك بدون إضاعة أي وقت. وجدت جلالته في حالة عصبية شديدة، فقال لي إنه تلقّى أنباء سيئة فاجأته بفظاظة، وكان يَفترض انني اطلعت على المنشور الذي أُلقي من الطائرات في ساعة مبكرة من ذلك اليوم...»

وأضاف السفير قائلاً:

«سألته فيما إذا قد قال أو فعل شيئاً يؤيد الاعتقاد بأن الحركة تحظى بتأييده، فأكد لي أنه لم يفعل. سألت فيما إذا كانت سلطته من القوة بدرجة تكفي لقمع الحركة إذا سمح بان يُعرف انه معارض لها. قال إنه لا يظن ذلك...»

وفي الفقرة (١٢) من التقرير نفسه قال السفير:

«قضيت معظم ما تبقّى من اليوم [يريد اليوم

التالي للانقلاب] مع نوري السعيد [الذي كان قد التجأ الى السفارة] وكان في حالة عصبية مؤلمة . . .

«ولا أريد ان أبعث السأم بنقل كل ما قاله ، سوى أنه كان يلح في الاعراب عن اعتقاده بأن الملك غازي كان على علم بحركة بكر صدقي . وقد قال إن ذلك كان اعتقاد ياسين ايضاً . لقد راقبت الملك غازي عن كثب حينما كان هو ووزراؤه يبحثون الأمر صباح يوم أول من أمس ، وأنني مضطر الى القول بأنني أنا ايضاً ، حصل لديَّ الانطباع أن الأمر لم يأت كمفاجأة لجلالته»

ثم قال في الفقرة (١٣) :

«وفي ذلك اليوم قابلت الملك غازي مرة أخرى . فوجدت جلالته أشبه بالديك المنتفش . . . [1] .»

---

(١) تقرير سري من السرآ . كلارك كير الى المستر ايدن مؤرخ في ٢ تشرين الثاني ١٩٣٦

F.). 371/ 20014 (E 7145)

وأعقب السفير تقريره هذا، بتقرير ثان عن الأوضاع في العراق، وعن توقعاته للمستقبل بعد الانقلاب، على ضوء مقابلاته مع رئيس الوزراء الجديد حكمت سليمان. وجاء في التعليقات التي دُوِّنت في وزارة الخارجية في لندن على هذين التقريرين بخط الموظف المسؤول عن الشؤون العراقية ما يأتي:

إن هذين التقريرين يؤكدان الانطباع (الذي سبق أن أكدناه في البداية، والذي سبق ايضاً أن أكدته الملاحظات التي أبداها ياسين باشا ونوري باشا لدى هروبهما من العراق) بضلوع الملك غازي بصورة مباشرة في التدخل العسكري. ان مستقبل الملك غازي يجب ان يُعَدّ الآن غير مضمون أكثر من أي وقت آخر، لأن جماعة بكر صدقي اذا قبضوا على زمام السلطة الكاملة فانهم ربما سينحّونه جانباً. بينما إذا عاد ياسين باشا وأصدقاؤه فمن الواضح أنهم سيخرجونه. ولذلك فان حكومة جلالته قد تواجه في المستقبل ليس مشكلة مستقبل العراق السياسي فقط، بل مشكلة العائلة المالكة أيضاً.

وفيما يتعلق بذلك، سنتذكر اننا سبق أن نظرنا بصورة مبدئية في إمكانية البدائل الذين يمكن أن يحلّوا محل الملك غازي... (١)

---

(١) هامش تقريري سفارة بغداد المؤرخين في ٢ تشرين الثاني و١٩٣٦ و٤ تشرين الثاني ١٩٣٦ والمرقمين F.O. 371/20014 (E 7145) و F.O. 371/ 20014 (7147) على التوالي.

والى جانب هذه الوثائق كلها، وهي لاتعطي دليلاً قاطعاً، توجد وثيقة أخرى، قد تكون حاسمة، وقد لاتكون، ولكنها في غاية الأهمية على أي حال، وهي رسالة شخصية من السفير في بغداد الى المستر جورج رندل، مدير الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية، بعد الانقلاب بشهر واحد تقريباً، وهذه ترجمتها الحرفية:

« عزيزي جورج،

اكتشفت انني، مع الأسف، لم أرسل اليك نتفة من المعلومات التي حصلت عليها من ادموندز [مستشار وزارة الداخلية] قبل مدة من الزمن.

تذكر أننا هنا، وادموندز كذلك، كنا نظن أن الملك غازي لم يكن ليجهل تماماً المؤامرة التي أدت الى سقوط ياسين.

واخيراً تقدم ادموندز فوجه الى حكمت سليمان سؤالاً مباشراً عما إذا كان الملك غازي مشتركاً فيها أم لا. قال حكمت: كلا. إن الملك فوجىء كأي شخص آخر، وانه كان خائفاً جداً.

المخلص

آ. كلارك كير[1]

---

(1) كتاب شخصي من السرآ. كلارك كير الى المستر جورج رندل بتاريخ ٣١ كانون الاول ١٩٣٦ F.O. 371/20795 (E 392/14/93)

إن هذه الوثائق والمذكرات جميعاً قد لاتكفي لاصدار حكم قاطع بشأن علم الملك غازي بالانقلاب قبل وقوعه. إذ أن ماصرّح به نوري السعيد وياسين الهاشمي لممثلي بريطانية في بغداد ودمشق لايتعدى التخمينات التي صدرت بعد الانقلاب مباشرةً، وفي ساعة انزعاج، وقبل أن يتسنى لأي منهما الوقت الكافي لاصدار حكم هادىء بعيد عن العاطفة.

ويبقى تصريح حكمت سليمان الاخير للمستّر ادموندز. ولا شك ان صلة حكمت سليمان بادموندز كانت طيبة، وليس هنالك سبب ظاهر يحمله على القول بان الملك فوجىء بالانقلاب في الوقت الذي كان له به علم سابق، خاصة وان حكمت سليمان كان رجلاً معروفاً بالصراحة والاستقامة، ولا يميل الى الكذب مطلقاً، وذلك ما يشهد به كل من عرفوه شخصياً، وهو لم يتصف بما اتصف به نوري السعيد - مثلاً - من حيلة ومراوغة. وقد صدر عنه هذا الجواب الى ادموندز بعد الانقلاب باكثر من شهر، وبعد ان استقرت الامور الى حد كبير.

إن الاحتمال الذي يمكن استنتاجه من كل ذلك هو أنّ الملك غازي لم يُحِط علماً بالانقلاب قبل وقوعه، بل أنه فوجىء به مثل غيره، ولكنه ارتاح له لانه أطاح بحكومة ياسين الهاشمي التي

كان حائراً في كيفية التخلص منها .

وقد ذهب «الدكتور غروبا»، وزير المانيا المفوض في بغداد، الذي عاصر هذه الاحداث، وكانت له صلات طيبة بكثير من الأوساط العراقية، الى هذا الرأي ايضاً في مذكراته التي نشرها في سنة ١٩٦٧ ، اذ قال :

«وقد راجت بعض الاشاعات التي تقول بان الملك غازي قد تعاون مع قادة الانقلاب . وكانت هذه الاشاعات تستند الى الفتور الذي حصل بين الملك غازي وياسين الهاشمي بعد زواج اخت الملك، ووضع الملك تحت رقابة صارمة . على أن هذه الاشاعات ربما لاتكون صحيحة، لأن زعماء الانقلاب لم يروا من الضروري إخبار الملك بخطتهم»[1] ويبدو أن هذا هو الراي الارجح الاّ اذا ظهرت أدلة قاطعة أخرى في المستقبل بخلاف ذلك . ويؤيد هذا الرأي أيضاً مارواه المستر ادموندز والسيد عبد الرزاق الحسني، على لسان حكمت سليمان .

واذا كانت تلك الأخبار والروايات التي استندت اليها غير صحيحة كلها، فما آفة الاخبار، في هذه الحالة، الاّ رواتها .

---

(١) انظر ترجمة مذكرات غروبا في كتابنا «العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب»، بيروت ١٩٦٩، ص ١٠٧

مقتل الملك غازي في الوثائق البريطانية

خلال الفترة الطويلة التي قضيتها في تحقيق الوثائق البريطانية عن العراق ودراستها، كأن أول سؤال يبادرني به أصدقائي كلما عدت من سفرة الى لندن، هو: «هل وجدت فيما اطلعت عليه من الوثائق السرية شيئا عن مقتل الملك غازى؟». وقد وُجّه هذا السؤال اليَّ مراراً، وكان بين السائلين كتاب ومؤرخون وسياسيون وغيرهم من شتى الاختصاصات والثقافات. وهذا يدل على مدى الاهتمام الذى لايزال هذا الحادث يحظى به من الرأى العام العراقي على الرغم من مرور أكثر من أربعين عاما عليه.

والواقع أن مقتل الملك غازى من القضايا المحيرة التي اختلفت فيها الآراء والروايات، وسهر الخلق جراها واختصموا.

ولعلهـا ستبقى سرّاً في ضمـير الغيب، أو قد يظهـر في مستقبـل الأيام دليل يلقي الضوء على حقيقتها، أو تكتشف وثيقة جديدة كانت مفقـودة أو مخبأة، فتحـل هذا اللغـز. وكم في التـاريـخ من أحـداث بقيت أسبـابهـا سراً دفينا، وكم فيه من حقائق اكتشفت بعد أجيال أو قرون.

كان جوابي الـذى أكـرره في كل مرة هو أنه ليس من شأن هذا الحادث أن يذكر في وثيقة رسمية، وليس من شأن الوثائق المفتوحة وتلك التي لم تفتح أن تلقي أى ضوء على هذه القضية. وحتى لو افـترضنـا أن الملك غازى قتل بتدبير بريطاني، فليس من الممكن أن تكـون هنـالـك أيـة وثيقـة رسمية يمكن أن يستدل منها على ذلك.

واذا وُجـدت في الـوثـائق قرائن أو دلائـل غير مباشرة. فانها لايمكن أن تكون من القوة والوضوح بدرجة تسمح باصدار حكم جازم مثـل هذه الحـادثـة الخطيرة التي يقتل فيها ملك في قصره في القرن العشرين.

ان الـوثـائق المحفـوظـة في مركـز حفـظ السجـلات العامة في لنـدن، والـذي يؤمّـه المؤرخون والباحثون من شتى أنحاء العالم بحثا عن حقيقة أو سعياً وراء مادة ينشرونها، وخاصة وثائق وزارة

الخارجية، انما هي عبارة عن مراسلات الممثليات البريطانية في الخارج، من سفارات ومفوضيات وقنصليات، مع حكومتها، وتقاريرها الرسمية اليها. ويطلع الباحث في تلك الوثائق أيضا على تعليقات المسؤولين البريطانيين في الوزارة على تلك التقارير، خلال رفعها الى المراجع العليا، وعلى توجيهات الحكومة التي تصدر بعد دراسة الأمر واتخاذ القرار الذى يُعتقد انه يضمن مصالح الدولة على أفضل الوجوه حسب اجتهاد المسؤولين في ذلك الوقت.

فما هو نوع الوثيقة التي يمكن أن توجد عن هذه القضية؟

اننا لن نجد، مهما بحثنا، كتابا أوبرقية من وزارة الخارجية الى سفيرها في بغداد تقول له:

«نظراً لمواقف الملك غازي المعادية لبريطانية وضرورة التخلص منه، فقد تقرر قتله بطريقة تبعد الشبهات عن حكومة جلالته. يرجى اتخاذ ما يلزم في هذا الشأن واعلامنا».

ولن نجد مطلقا برقية من السفير تقول:

«لقد تمّ تنفيذ عملية اغتيال الملك غازى بنجاح، يرجى علمكم . . . الخ».

والواقع أنه حتى لوكان مقتل الملك غازى مدبراً، فمن

المستبعد جدا ان تَنفَّذ العملية بواسطة السفارة. وأغلب الظن أن السفير يُفاجأ بها كما يُفاجأ غيره من الناس. فأمثال هذه العمليات لاتمارس بواسطة السفارات، لأنها في حالة اكتشافها تكون فضيحة لاترغب أية دولة في تحمل نتائجها، وانما تتم بواسطة أجهزة أخرى قد تعمل بعلم السفارة، أوبمعزل عنها تماما. ولو دبرت الحكومة البريطانية مثل هذه العملية فانها لم تكن لتفعل ذلك عن طريق المراسلات أو التقارير، وانما بتعليمات شفوية وعن طريق رجالها وعملائها الذين كانوا منتشرين في شتى مرافق العراق في ذلك العهد.

ان السفير البريطاني الذي كان يلحّ في تقاريره على ضرورة الضغط على الملك غازي (أو التخلص منه) هو السر موريس بيترسن. وقد أشار الى ذلك في مذكراته التي نشرها فيما بعد بعنوان «جانبا الستار». ولكن لهذا السفير تقارير سرية بعث بها الى وزارة الخارجية بنفس المعنى، وبصراحة أكثر. ولم تدون على هذه التقارير أية اشارات أوتعليمات تدل على الاجراءات التي اتخذت بشأنها. وقد نقل هذا السفير الى مكان آخر قبل الحادث بثلاثة أشهر، وكان يقضي اجازة في مكان ما عند وقوعه.

وهنالك تقرير سرى من القائم بأعمال السفارة «هيوستن بوزويل» عن كيفية سماعه بالحادث، وماقام به في منتصف

الليل . والتقرير موجه الى وزارة الخارجية، ولا يمكن أن يغالط القائم بالأعمال فيكتب الى مرجعه تقريرا كهذا لوكان له علم سابق بالأمر، أو لو نفذت العملية بمعرفة السفارة.

ولذلك فاذا كان مصرع الملك غازي قد تم بتدبير بريطاني حقاً، واذا كانت هنالك عن الحادث وثيقة ما، فانها لن تكون محفوظة بين وثائق وزارة الخارجية أو مجلس الوزراء أو أية وزارة من الوزارات الاحدى عشرة التي تفتح وثائقها بعد مرور ثلاثين عاما عليها. ولو وجدت مثل هذه الوثيقة فانها تكون محفوظة في دائرة الاستخبارات البريطانية، ووثائق هذه الدائرة لاترسل الى مراكز حفظ السجلات العامة، ولذلك لاتفتح مع غيرها من الوثائق بعد مرور المدة التي يقررها القانون.

ومن المعروف أن الدكتور سندرسن كان قد استُدعي الى «قصر الزهور» على أثر وقوع الحادث. وهو يشير في مذكراته الى ذلك ويقول إنه طلب حضور الدكتور صائب شوكة أيضا، إذ أراد أن يكون معه طبيب عراقي دفعاً للشبهات والتقولات في مثل الحادث الخطير.

وقد حدثني الدكتور صائب شوكة قبل بضع سنوات (وهو حي يرزق، أطال الله في عمره) فقال إنه رأى في رأس الملك فَجّاً



سيارة الملك غازي صبيحة يوم الحادث

كادت يده الضخمة أن تدخل فيه لِسعتِهِ. ولما ذهب الى محل الحادث شاهد العمود الذى اصطدمت به سيارة الملك. وكان العمود مثبتاً بكتلة «كونكريتية» ضخمة، ولكنه كان قد اقتُلع من أساسه، والتوى باتجاه معاكس لاتجاه السيارة من شدة الصدمة، أو هكذا قيل له. وكان الدكتور صائب شوكة في حديثه معي (والذى سمح لي بروايته فيما أتذكر) جازماً في اعتقاده أن مثل هذا الاساس «الكونكريتي» المتين لايمكن أن تقتلعه سيارة مكشوفة من طراز سنة ١٩٣٧ أو ١٩٣٨، وأنه لايؤمن بوقوع الحادث قضاء وقدرا.

وهناك أناس كثيرون من الأحياء شهدوا مكان الحادث صبيحة وقوعه، كما أن هناك تصاوير فوتوغرافية عديدة للسيارة والعمود، التقطت من زوايا مختلفة. ولعل المجال لايزال موجودا لاجراء تحقيق علمي دقيق قد يلقي على الحادث مزيدا من الأضواء. أما الوثائق البريطانية فهي خرساء، ولابد لها أن تكون خرساء، وأن ظهرت هنا أو هناك قرائن تؤيد هذا الرأى أو ذاك. أما الجزم بصورة قاطعة ومؤكدة فمعناه تحميل الأدلة المتوافرة حتى الوقت الحاضر أكثر مما تحتمل. ولذلك لابد للمؤرخ الذى يتحرى الدقة والموضوعية أن يبني رأيه في الحادث على الحدس والتخمين، ولا يزال من واجبه أن يختم كلامه بما كان أسلافنا يختمون به حتى ما كانوا على يقين منه، بقولهم: «والله أعلم».

(ملـــــحق)

٤ وثائق عن مقتل الملك غازى

(١)
(برقيـــــة)

من المســـتر هيـــوستن بوزويـــل [القـــائم بأعـــمال السفـــارة البريطانية] بغداد الى وزارة الخارجية [البريطانية]

الرقم ٤ نيسان ١٩٣٩

يؤسفني أن أخبركم أن الملك غازى توفي اليوم الساعة ٠٠٤٠ بالتوقيت المحلي من كسر في الجمجمة حدث بنتيجة حادث سيارة في الساعة ١١٣٠ بالتوقيت المحلي بينما كان يقود سيارته الخاصة.

أرجو ابلاغ جلالة الملك.

(٢)

(برقيـــــة)

من المستر هيوستن - بوزويل بغداد

الى وزارة الخارجية

الرقم: ١٠٨ ٤ نيسان ١٩٣٩

برقيتي (بـلا رقم) المـؤ رخة في ٤ نيسان والمرسلة بواسطة وزارة الطيران. سيجرى التشييع في وقت مبكر من صباح ٥ نيسان.

البرلمان القديم سيجتمع في ٦ نيسان لتعيين الوصي.

أخـبر ني رئيس الـوزراء أن الملكـة الـوالـدة أقسمت أنهـا بعد إفاقتها من الصدمة ستبرز وثيقة أعرب فيها الملك عن رغبته في حالة وفاته (ونظراً لأن وريثه قاصر) في أن يكون الأمير عبد الاله وصياً.

(٣)

(برقيــــة)

من وزير الخارجية

الى المستر هيوستن - بوزويل بغداد

الرقم ١١٢ ٤ نيسان ١٩٣٩

على الفــور

برقيتكم المرقمة ١٠٨ (المؤرخة في ٤ نيسان: حول الوضع السياسي في العراق) أعرب السر موريس بيترسن حينما كان في لندن عن رأيه بأن الأمير زيد سيكون مناسبا أكثر من الأمير عبد الاله في حالة أى طارىء. انني أتفق في ذلك.

٢ - ولذلك يرجى إبلاغ الجنرال نورى بالاشارة الى ما قاله لكم عن تصريح الملكة بأنني أؤمل أن مسألة تعيين الوصي، ومن الواضح أنها ذات أهمية عظمى للبلاد، يجب أن تقرر على أساس اعتبارات الكفاءة وحدها.

(٤)

(تقرير ســـــرى)

من المستر هيوستن - بوزويل [القائم بأعمال السفارة] بغداد

الى اللورد هاليفاكس [وزير الخارجية] لـــــندن

السفارة البريطانية

بعـــداد

١١ نيسان ١٩٣٩ الرقم ١٥٣

سيدي اللورد،

اشـارة الى برقيتي غير المـرقمـة، والمؤرخة في ٤ نيسان، والتي تفضـل بارسـالها بالـلاسلكي قائـد القـوة الجوية [البريطانية]، أتشـرف بتقـديم التقـريـر الآتي عن وفـاة المـرحـوم الملك غازى الأول، والأحداث التي أعقبتها.

٢ - إن أنبـاء الحـادث الـذى سبب وفاة غازى وصلتني للمرة الأولى عن طريق الـدكتـور سنـدرسن، طبيب الملك الـراحـل، الـذى كنت أجاذبه الحديث في دارى مساء يوم ٣ نيسان، حيث

استُدعي الى القصر بصورة مستعجلة.

٣ - وبعد بضع ساعات عاد فأخبرني أن الملك كان يقود [سيارته] بنفسه من محطة إذاعته الخاصة في قصر الزهور فاصطدمت السيارة بعمود كهربائي، وأصيب جلالته بنتيجة الحادث باصابات كانت من الخطورة بدرجة توفي على أثرها بعد ساعة واحدة.

٤- وفي اليوم التالي أصدرت الحكومة ثلاثة بيانات (أرفق نسخا منها منقولة عن جريدة «عراق تايمس» الصادرة في ٤ نيسان).

وكان أولها يعلن عن وفاة الملك غازى، وتضمن الثاني تقريراً طبياً عن وفاة جلالته، وصرح الثالث باعتلاء ولي العهد الحدث العرش باسم الملك فيصل الثاني، وتعيين صاحب السمو الملكي الأمير عبد الاله وصيا، ودعوة البرلمان، الذى تم حله مؤخرا، الى عقد اجتماع للتوصل الى قرار نهائي بشأن قضية الوصاية بموجب المادة **٢٢** من القانون الأساسي.

٥ - نُقِل جثمان الملك غازى الى البلاط الملكي في الساعات المبكرة من صباح يوم ٤ نيسان، وكانت الجماهير طيلة بعد ظهر ذلك اليوم ومسائه، تطوف ببطء حول النعش. وكانت شوارع

المدينة وساحاتها، الى وقت متأخر من الليل، مكتظة بالناس، وهم ينتحبون، ويلطمون صدورهم، ويشدون شعورهم، من فرط حزنهم. وكان عدد النساء والأطفال بين الجماهير مساويا لعدد الرجال، وكان المئات منهم يلقون بأنفسهم على الأرض منتحبين.

٦- **وبدأ الأشرار فورا باستغلال المشاعر العامة لأغراضهم الخاصة، وسرعان ما انتشرت اشاعات مغرضة من كل نوع.** وكانت احداها، وقد تكررت بالحاح، أن الانكليز هم الذين قتلوا الملك. وخلال الصباح تم توقيف عدة شبان بينما كانوا يوزعون منشورات بهذا المعنى مكتوبة بالآلة الكاتبة، أو يلقون في جموع المحتشدين خطبا مثيرة يتهمون فيها الانكليز بقتل «الملك العربي البطل».

٧ - انني مرسل تقريراً مستقلا عن النتائج المحزنة التي أدت اليها هذه التحريضات المجرمة في الموصل. وفي تقرير آخر أيضا أحطت سيادتكم علماً بالمعلومات التي جمعتها عن الجهات التي أوحت بهذه التحريضات.

٨ - قصة أخرى تبناها بعض الأشرار الذين لارادع لهم كانت

أن نورى السعيد هو الذى قتل الملك غازى، وقد سمعت عدة مجموعات من المنتحبين وهي تهزج قائلة:

«ستجيب عن دم غازى يانورى»

٩ - جرى تشييع الجثمان الملكي صباح يوم ٥ نيسان. وقد نظم الموكب بصورة تستحق الاعجاب السيد تحسين قدرى، رئيس التشريفات الملكية، الذى اتخذ بمساعدة لجنة صغيرة من بعض الوزارات، جميع الترتيبات خلال ٢٤ ساعة فقط. وقد غادر الموكب البلاط الملكي في تمام الساعة الثامنة صباحا، وسار وئيدا على الطريق الممتدة مسافة ميلين الى المقبرة قرب الأعظمية، حيث دفن الملك غازى الى جوار الملك فيصل الأول والملك علي، ملك الحجاز، وكان يرافقني في التشييع الكابتن هولت، وقائد القوة الجوية البريطانية، مع اثنين من الضباط الذين كانوا حاضرين أيضا.

١٠ - احتشد على جانبي الطريق ألوف من الناس. وكان بعضهم واقفين ينظرون بصمت، والدموع تترقرق من أعينهم، وأطلق أخرون - ومعظمهم من النساء - لأنفسهم العنان في التعبير عن حزنهم بصورة هستيرية، فكانوا يمزقون ثيابهم، ويمرغون رؤوسهم وصدورهم بالطين من السواقي. وكان من

الغريب مشاهدة الجنود وحتى رجال الشرطة وهم يجهشون بالبكاء كالأطفال . وفي عدة مراحل كان ثَمّة خطر بأن يكسر ضغط الجماهير نطاق رجال الشرطة والجيش . ولكن التعزيزات من السيارات كانت مستعدة على الدوام لانقاذ الموقف ، وعمل قائد الشرطة وضباطه بلاكلل للحفاظ على النظام . وقد أعجبت بصورة خاصة بكفاءة رجال الشرطة على الدراجات البخارية الذين سيطروا على عجلاتهم بمهارة عظيمة ، وكانوا أكثر تأثيرا من زملائهم على ظهور الخيل .

١١ - وبعد مراسم الدفن القصيرة اقتيد اعضاء الهيئة الدبلوماسية وغيرهم من المشيعين البارزين ، الى المدينة بسياراتهم في طريق أخليت بصورة خاصة ، وكان مدير دائرة التحقيقات الجنائية يرافق شخصيا سيارتي التي كان فيها أيضا نائب ماريشال الجوّ تيسن ، حتى بوابة السفارة .

١٢ - لم يسبق لي أن أشهد جمهورا من العرب بهذه **الحمّى** الهيستيرية ، وهذه المشاهد التي رأيتها وأنا أسير في الموكب جعلتني أفهم بوضوح تام كيفية وقوع فاجعة الموصل في اليوم السابق . ان ما رأيته جعلني أيضا أكثر تصميما من أى وقت مضى ، على أن أؤكد لرئيس الوزراء ماذا سيؤول اليه هذا الهياج العاطفي الشديد ما لم يراقَب ويسيطَر عليه . ولذلك أرسلت اليه مساء ذلك

اليوم رسالة قصيرة، سُلمت اليه في منزله، أحثه فيها على إعادة الهدوء وقمع الاشاعات الكاذبة التي كانت لاتزال تدور في كل مكان، والتي أخذ صداها يتردد في بيروت ودمشق (وقد سمعت بعد ذلك أنها تكررت في الاذاعات الألمانية). وأشارت التقارير الواردة من البصرة وسواها من المراكز في الخارج أن الهياج الشعبي كان شديداً بصورة خطرة. وأنه كان يتصاعد بتشجيع رسمي أو شبه رسمي. وفي اليوم التالي أرسلت السكرتير الشرقي ليبلغ رئيس الوزراء شفويا رسالة مماثلة، وليستفسر منه عن الاجراءات **التي كانت تتخذ فعلا لتهدئة الهياج العام .وقد أبلغت نتائج مقابلة** السكرتير الشرقي مع رئيس الوزراء اليكم ببرقيتي المرقمة (١٢٠).

١٣ - في ٦ نيسان عقد مجلس الأعيان ومجلس النواب المنت[illegible] جلسة جلسة مشتركة لتعيين وصي على العرش بموجب الما[illegible] ٢٢ من القانون الأساسي. وقد عقدت الجلسة في الساعة الثالث[illegible] بعد الظهر، ونقلت تفاصيلها بالاذاعة. وجرى تصويت علني على الاقتراح بتعيين الأمير عبد الاله وصيا على العرش مدة كونه قاصرا، وكان كل عين أو نائب ينهض ليعلن تأييده أو معارضته. وجاءت النتيجة بالموافقة بالاجماع على تعيين الأمير عبد الاله. وعلى أثر ذلك أقسم سموه اليمين القانونية بالصيغة

المدونة، ورفعت الجلسة. أرفق بطيه نسخة من البيان الرسمي (المرقم ٧) الصادر عن تفاصيل الاجتماع.

١٤ - وبعد اجتماع البرلمان مباشرة قدم رئيس الوزراء استقالة وزارته الى الوصي، فكُلّف بالبقاءُ في منصبه واعادة تأليف الوزارة.
وعلى أثـر ذلـك أعـاد نوري السعيـد تأليف الـوزارة نفسها، ووقـع الوصي الارادة الملكية اللازمة. وكان هذا آخر الاجراءات الدستورية التي اقتضتها وفاة الملك غازي.

١٥ - تقضي المـادة **٢٢** من القـانـون الأسـاسي أنه اذا أنتقل العـرش الى من هو دون سن الـرشد يؤدي حقوق الملك الوصي الـذي اختـاره الملك السـابق، ووافق عليـه مجلس الأمة. وعلى الـرغم من أن الملك غازي عاش أكثـر من ساعـة واحـدة بعـد الحادث القاتل، فانه لم يسترجع وعيه، ولذلك لم يكن قادراً على الاعـراب عن رغبتـه. وبعـد وفاته، سُئلت الملكة التي لم تكن قد أفـاقت من الصـدمـة بعد، هل كانت لجلالته وصية. فأيدت أنه أعلن مراراً عن رغبتـه أنـه في حالة موته قبل بلوغ ابنه سن الرشد أن يكون الأمير عبد الاله وصيا عليه. وقالت إنها تظن أن جلالته ربما ترك شيئـا مكتـوبا بهذا المعنى. وبعد ساعات قلائل كررت الملكـة الـوالـدة والأمـيرة راجحـة، شقيقـة الملك الراحل، هذا

التصريح وأقسمنا عليه بحضور أعضاء الوزارة ورئيس الديوان الملكي، ورئيس أركان الجيش. وعلى أثر ذلك أُعلن الامير عبد الاله وصياً. إن ترجمةً لتصريح الملكة الوالدة والأميرة مرفقة بطيه، ولم أسمع شيئاً آخر عن الوثيقة التي قالت الملكة إنها قد تستطيع العثور عليها. ولما كانت برقيتكم ١١٢ لم تصلني حتى ٥ نيسان، اي اليوم التالي لأبلاغي من جانب وزارة الخارجية بتعيين الأمير عبد الاله وصياً. ونشر ذلك في الجرائد. وكان الأوان قد فاتني للتحدث الى رئيس الوزراء حسب الخط الذي تضمنته تعليماتكم، وذلك اذا افترضنا أنه كان من الممكن إيجاد فرصة لأن أفعل ذلك في غمرة مشاغله الطاغية إزاء وضع شديد الخطورة نجم عن وفاة الملك غازي ومقتل قنصل جلالته في الموصل.

١٦ ـ ولديّ، فضلا عن ذلك، من الأسباب ما يجعلني أعتقد ان رئيس الوزراء، والحكومة، قد فكّرا في الامر بصورة موضوعية. فهو كان يعلم أن لدى الملكة الوالدة سببا خاصا لتفضيل أخيها الامير عبد الاله للوصاية، وليس الأمير زيد. وقد لاحظ بسرعة أنها هذا السبب قد يغريها الأمر على أن تكون أكثر ايجابية في ماتبديه عن رغبات الملك السابق، مما يبرزه أي شيء قاله جلالته فعلاً. ويخيل الي أن ميله الشخصي كان نحو الامير زيد، ولكنه استطاع أن يتصور مخاطر حدوث نزاع، وقدر ضرورة

اتخاذ قرار عاجل.

١٧ - وفي اجتماع رؤساء الوزارات ورؤساء مجلسي الاعيان والنواب السابقين الذي دعا اليه رئيس الوزراء للتداول في قضية الوصاية، كان جميل المدفعي الوحيد الذي حث على تفضيل الامير زيد بأي قدر من الحماسة، ولكنه استجاب لرأي الأغلبية أخيراً، وفي اليوم التالي أدلى بصوته في البرلمان مؤيداً الامير عبد الاله.

١٨ - انني مرسل نسخا من هذا التقرير الى وزير جلالته المفوض في طهران، والى حكومة الهند.

واتشرف.. الـــخ.

دبليو. اي. هيوستن - بوزويل

لماذا الوثائق البريطانية ؟

يتساءل بعضهم من وقت لآخر:

«لماذا يعتمد المؤرخون والكتاب الذين يكتبون عن تاريخ العراق كل هذا الاعتماد على الوثائق البريطانية، ولماذا توفد جامعاتنا طلابها الذين يعدون الرسائل الجامعية عن تاريخ العراق الى بريطانية لدراسة تلك الوثائق، فنجدهم في مقدمات اطروحاتهم يحرصون على الاشارة الى أنهم شدوا الرحال الى تلك البلاد للأطلاع على وثائقها وتصويرها واستخراج المعلومات منها؟

«أمَا كان الاولى بهم أن يعتمدوا على الوثائق العراقية الوطنية في كتابة تاريخ بلادهم، وهي تعبر عن وجهات نظرنا، بينما تعبر الوثائق البريطانية عن وجهة نظر أجنبية، وهي مكتوبة من زاوية مصالح هي غير مصالحنا؟؟»

وعلى الرغم من وجاهة هذا التساؤل في ظاهره، فانه يدل على جهل فاضح، وقلة معرفة بالتاريخ ومناهج دراسته العلمية. وهو قد يَرِدِ على أذهان بعض المتسائلين بحسن نية، ولكنه قد يكون، في حالات أخرى، كلمة حق أريد بها باطل. ولذلك فمن المفيد ايضاح هذا الأمر.

من الحقائق المعروفة منذ دهر طويل، وعلى نطاق عالمي، أن تاريخ العراق يمتد الى عهود سحيقة في القدم، وأن أراضيه هي مهد أقدم الحضارات التي عرفها العالم، وأن تأريخه الغني، الطويل، حافل بالانجازات الرائدة في ازدهار الحضارة البشرية. ولا يمكن على وجه الدقة تحديد بداية تأريخ العراق، ولكن لِنقل إن ما هو معروف منه لحد الآن، يعود الى سبعة آلاف عام على الأقل، قامت خلالها في واديه الخصيب، وأرضه الطيبة، حضارات سادت ثم بادت، وبنت فأعلت، وشيدت واتسعت، وأعطت للانسانية ما أعطت.

ان تأريخ أية أمة يمتد لمثل هذه الفترة الزمنية الشاسعة، لابد أن يمر بفترات قصيرة أو طويلة من الانتكاسات أو فترات الركود أو التدهور، تستعيد بعدها قواتها الخلاقة وعهودها المشعة. وليس تاريخ العراق استثناء من هذه القاعدة، فقد كانت هنالك بعض الفترات المظلمة أو المزعجة.

وقد مرت على العراق، عبر تأريخه الطويل الحافل الذى يعود الى أكثر من سبعة الاف عام، فترة تعد قصيرة جدا في أعمار الأمم والشعوب، فترة أمدها (٤٤) عاما فقط، قُدّر له أن يقع خلالها تحت نفوذ دولة أجنبية، بنتيجة ظروف الحرب العالمية الأولى، ومساومات الدول الكبرى لاقتسام غنائمها. وان موقع العراق الجغرافي الذى اكتسب أهمية خاصة عبر جميع عصور التاريخ، وثرواته الطبيعية التي جعلته قبلة أنظار الطامعين خلال تلك العصور، والفترة المظلمة التي عاشها قبيل الحرب العالمية الأولى، كانت جميعا أسباباً جعلت العراق ساحةً من اهم ساحات المعارك خلال تلك الحرب، وأحد «المغانم» التي تنافست عليها وعلى خيراتها الدول الاستعمارية.

احتلت القوات البريطانية العراق مع بداية الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤، وتقدمت شمالاً حتى بغداد التي سقطت بأيديها في سنة ١٩١٧، ولما أُعلنت الهدنة كانت تلك القوات على مقربة من الموصل، وان لم تكن قد احتلتها. وبقي العراق يُحكَم حكماً عسكرياً مباشراً حتى قامت ثورة الشعب العراقي على ذلك الحكم في سنة ١٩٢٠، فاضطرت بريطانية الى تغيير سياستها. وتأسست الحكومة الموقتة، ثم أنيط الانتداب على العراق ببريطانية. وكان الانتداب صيغة جديدة، ذكية، توصل اليها الحلفاء لتبرير اقتسامهم بعض الأقطار التي استولوا عليها

وبقائهم فيها .

وهكذا كان تاريخ العراق خلال أربعة وأربعين عاما ، أى بين سنتي ١٩١٤ و١٩٥٨ ، وثيق الصلة ببريطانية بسبب النفوذ الذى مارسته في العراق في تلك الفترة ، على درجات تراوحت بين الاحتلال العسكرى ، فالحكم المدني المباشر ، فالانتداب ، فالاستقلال الشكلي المقيد بمعاهدة غير متكافئة ، ثقيلة البنود ، ثقيلة الظل ، تُوفّر للعراق من الاستقلال مظاهره الخارجية ، كما قال الرصافي :

علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف

لقد كان النفوذ البريطاني في العراق - على تفاوت درجاته - خلال هذه السنوات الأربع والأربعين حقيقة واقعة لايمكن تجاهلها . وقد انجلى ذلك النفوذ بعد سنة ١٩٥٨ ، وولى الى غير رجعة ، وأصبح تأريخا يحتل صفحات قلائل من تاريخ العراق الحافل الزاهر .

وخلال هذه الفترة الطويلة على قلوب الشعب العراقي ، القصيرة في أعمار الأمم ، كان (قائد قوات الاحتلال) وموظفوه ، ثم (الحاكم الملكي العام) ، ثم (المندوب السامي) ، وأخيرا - وبعد الاستقلال الشكلي - (السفير البريطاني) ، يبعثون بتقارير

مختلفة عن أعمالهم، واتصالاتهم، واجراءاتهم، الى مراجعهم في الهند أولا، ثم الى وزارة المستعمرات في عهد الانتداب، ثم الى وزارة الخارجية بعد الاستقلال، ويتلقون تعليمات تلك المراجع، وتوجيهاتها، ويجيبون عن استفساراتها.

أربعة وأربعون عاما تبودلت خلالها مئات الألوف من الرسائل والبرقيات، وكتبت فيها ألوف مؤلفة من التقارير عن جميع شؤون العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعن تطورات الأحداث فيه، وعن اتصالات الحكام البريطانيين بشخصيات العراق ورجاله على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم. وتتضمن تلك المراسلات والتقارير أيضا تفاصيل الأحداث اليومية التي كان يواجهها العراق أو تواجهها السلطات الحاكمة فيه، والوسائل التي كانت تتبع في معالجة تلك الأحداث وحل تلك المشاكل. وعلى تلك التقارير دوّن المسؤولون البريطانيون في لندن تعليقاتهم وردود فعلهم وقرروا نوع التعليمات التي يجب أن تصدر الى ممثليهم في العراق أو في مصر أو في كل قطر عربي أو غير عربي قُدِّر له أن يقع تحت حكمهم أو نفوذهم.

أما بعد سنة ١٩٥٨، أو بفتح وثائق تلك السنة (وسيتم ذلك في سنة ١٩٨٩) ستنتهي هذه الأهمية الخاصة للوثائق البريطانية

بالنسبة للعراق، لأن السفير البريطاني بعد تلك السنة عاد الى حجمه الطبيعي شأنه شأن سفير أية دولة لها مع العراق علاقات معينة تستند الى المصالح المتبادلة، دون أمتياز خاص، ولا نفوذ ظاهر أو خفي.

وقد مرت أقطار عربية أخرى بمثل هذه الفترة. فهنالك مصر التي رزحت تحت الاحتلال البريطاني مدة أطول من ذلك بكثير. ولذلك نجد الوثائق البريطانية عن تأريخها الحديث تحتل مكاناً أكبر مما تحتله تلك الوثائق عن العراق مثلا.

ويلاحظ ذلك أيضا المؤرخ الذى يدرس تاريخ سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي. ولايمكن دراسة تاريخ سورية أو لبنان في تلك الفترة دراسة علمية كاملة، بدون الرجوع الى الوثائق الفرنسية.

ولذلك كله كان لامناص للمؤرخين الذين يتخصصون في تاريخ هذه الفترات من تاريخ العراق (أومصر أوغيرها) من الرجوع تلك الوثائق ليتبينوا كيف كانت البلاد تحكم خلالها، وما هي الاعتبارات التي كانت تقرر اجراءات سلطات الاستعمار، وماذا كانت نواياهم وأساليبهم، ومن هم المتعاونون معهم. ان تلك الوثائق مادة أساسية لابد منها لمن يدرس تاريخ

العراق في تلك الفترة وحدها، ولم يقل أحد بالرجوع الى وثيقة بريطانية أو فرنسية في بحث يتعلق بالعصر العباسي مثلا.

ولا شك أن هنالك عن تلك الفترة كثير من الوثائق العراقية، الرسمية منها والشخصية، ومذكرات وأوراق تعود لرجال العراق وزعمائه، وتقارير مختلفة محفوظة في أضابير بعض الوزارات والبلاط الملكي. ومن الواجب الرجوع اليها بطبيعة الحال، بل ان من الواجب الرجوع الى أية وثيقة أينما وجدت، وحيثما حفظت، لتكون الدراسة مستوفية شروطها الضرورية. ولكن الصدفة شاءت أن تكون الوثائق البريطانية خلال هذه السنوات الأربع والأربعين (من سبعة ألاف سنة أو تزيد من تاريخ العراق) هي المرجع الرئيسي الأغنى والأهم عن هذه الفترة من تاريخ العراق لمن يريد دراستها دراسة علمية حقيقية.

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت أعد بحثا في جامعة لندن في أواخر الأربعينات باشراف المستشرق الكبير البروفسور (آربرى). فقال لي ذات يوم: «توجد مقالتان تتعلقان بموضوعك في المجلة الفلانية التي تصدر باللغة الالمانية، وعليك أن تراجعهما لعلك تفيد منهما». فلما قلت له: «ولكنني لاأعرف اللغة الألمانية» أجابني: «ان هذه مشكلتك وعليك أنت أن تجد لها حلا. فاما أن تدرس اللغة الالمانية وتتعلمها، أو تلتمس من يترجم لك المقالتين. ولكنني لاأستطيع أن أجيز بحثاً يوجد عنه مصدر لم

ترجع اليه وانا أعلم بوجوده - والآن وقد أخبرتك عنه - صرت تعلم بوجوده أنت أيضا. لاعذر لباحث في عدم الرجوع الى مصدر يعلم بوجوده».

ان الوثائق البريطانية موجودة، وبكميات هائلة، واننا نعلم بما هو مفتوح منها. نعم، انها قد تتضمن الغث والسمين، ولكن لابد لمن يدرس الفترة التي تتعلق بها من تاريخ العراق من الاطلاع عليها، وله بعد ذلك أن يناقشها، أوينتقدها، أويفضح أكاذيبها، وينبه الى مواطن الخطأ أو الضعف فيها، ولكن لابد له من الاطلاع عليها.

ومن الطبيعي ان الوثائق البريطانية عن العراق أومصر (وكذلك الوثائق الفرنسية عن سورية ولبنان) تحتوي على أمور لانرضى عنها، وآراء لانتفق فيها، فهي وثائق بريطانية وفرنسية، وليست عراقية أومصرية أوسورية. وهي تعبر عن وجهة نظر تلك الدولة وكتبت من زاوية مصالحها.

وهذا أمر لاتحتاج معرفته الى ذكاء خارق، أوعبقرية نادرة، اذ يدركه كل انسان، وينتبه اليه كل باحث. وان الرجوع الى تلك الوثائق ليس معناه الأخذ بكل ماجاء فيها على عواهنه، وعلاته، وكذلك ليس معناه إهمال الوثائق الوطنية، أو الوثائق الأخرى

ذات العلاقة .

ومع ذلك، فهنالك من الوثائق البريطانية ـ وكذلك الفرنسية ـ تقارير بعث بها ممثل تلك الدولة الى حكومته، محاولاً بطبيعة الحال أن يجعلها على أكثر ما يمكن من الدقة . وليس هنالك، في الأحوال الاعتيادية، سبب للافتراض بأن السفير كان يحاول تضليل حكومته فيبلغها أموراً غير صحيحة . فحين يكتب السفير البريطاني في العراق مثلاً :

«قال لي نوري السعيد كذا . .»، أو: «ألححت على الوصي بادخال فلان في الوزارة . . ، أو استبعاد فلان منها . »، أو: «ان فلانا أبدي استعداده للتعاون معنا في حالة مجيئه الى الحكم . . . وفلان لايوثق به لأنه معادلنا . .»، او «فوجئت بسماع اخبار انقلاب بكر صدقي . .»، او: «انني أشك في صداقة فلان لبريطانية وعلينا أن نحذره . . .»

حين يكتب سفير أمثال هذه التقارير، ألا يمكن ان نستنتج منها بسهولة ماذا كان موقف بريطانية من بعض قضايانا، وماذا كانت مواقف بعض الرجال، وماذا كانت الأمور التي كان يسمعها من الاشخاص الذين كان يتصل بهم؟

ألوف وألوف من امثال هذه التقارير التي تكشف لنا من تاريخ العراق الحديث أموراً لانجدها في مكان آخر، ولا يمكن أن نتثبت منها الآ بالرجوع الى تلك الوثائق التي يجب أن ندرسها بكل دقة وحذر، ونقابلها بما لدينا من وثائق أو معلومات. والمؤرخ الحصيف هو الذي يعرف كيف يغربل هذه الوثائق، ويضاهي النصوص، ويقابل الروايات ببعضها، فيستخرج منها الحقائق التي يبحث عنها.

إننا نعلم أيضاً أن هناك، الى جانب دار الوثائق البريطانية، دوراً أخرى للوثائق في كثير من الدول، منها دور الوثائق الفرنسية والألمانية والأمريكية والتركية (العثمانية) وغيرها . . . ولكنها لايمكن أن تقارن بالوثائق البريطانية من حيث كميتها. وشمولها، وفهرستها، وسهولة الاطلاع عليها. ولذلك نجد مركز الوثائق البريطانية في لندن مزدحماً على الدوام بباحثين من الاتحاد السوفيتي يدرسون تاريخ العلاقات الروسية ـ الانكليزية، وباحثين من الولايات المتحدة يدرسون تاريخ بلادهم حين كانت تحت الاستعمار البريطاني، ومؤرخين من الهند يكتشفون فيه حقائق مذهلة عن الاستعمار البريطاني وأساليبه في الهند، وعلماء من المانيا يدرسون سياسة بريطانية وستراتيجيتها خلال حربين من أعظم الحروب التي شهدها التاريخ، خاضتها بلادهم مع بريطانية، وباحثين من الكيان الصهيوني يتحرون مواقف

بريطـانيـة الحقيقـة خلال المحـاولات الصهيـونيـة الـراميـة الى اغتصاب الارض العربية في فلسطين في عهد الانتداب. وهؤلاء جميعاً لايرون في ذلك ضيراً، بل أن دولهم تشجعهم على هذه الـدراسـات، لانها تعلم أنهم يبحثون عن الحقائق أينما وجدت، وان مجرد رجوعهم الى وثائق أجنبية لايدل على أخذهم بها دون مناقشة ولا تمحيص.

ولكن من أكـبر مشكـلات العـالم الثـالث هوتفشي الجهـل والأميـة، ومـا يستتبع ذلك من اطلاق الآراء جزافاً، وتدخّل غير المتخصصـين في أمـور فنيـة، واصـدارهم أحكـاماً قاطعة، وآراء سطحية لاتستند الى علم ولا معرفة. وذلك كله، بطبيعة الحال، مظهـر من مظـاهـر التخلف يجب التخلص منه، وعقدة من عقد الشعور بالنقص يجب أن ننفضها عن أنفسنا.

وقـال السيـد الـرئيس صدام حسـين ضمن توجيهـاته الثمينة والصائبة بشان كتابة التاريخ، واعادة كتابته:

«ان الحقـائق المكتـوبـة ليست هي كل الحقائق النهائية، حتى وان اتفق عليها جميع المؤرخين والمحللين، لان في كل مرحلة من مراحل التاريخ ماهو دفين لايقال لاعتبارات شتى، وقد لايكون ذلـك «الـدفـين» امـراً ثانـوياً، وانما قد يكون رئيساً ومن الامور

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المهمة...»

فما اروع هذه المقـولـة، ومـا أصحهـا، ومـا أبعدها نظراً، وما أكثـرهـا تعبيراً عن فلسفة التاريخ ومهمة المؤرخ، وما أجدر بكل مؤرخ ان يتخذها نبراساً في كل ما يكتب.

ذكريات عن الأب أنستاس الكرملي

في صيف سنة ١٩٤٤ عرض عليّ أستاذي وصديقي رفائيل بطي أن أصحبه في زيارة الى الأب انستاس الكرملي، فوافقت مسروراً. وكان الاب انستاس يستقبل زواره في كنيسة اللاتين صباح كل جمعة. فلما دخلنا الكنيسة وجدنا مجلسه، في فِنائها، عامراً بمجموعة من الاصدقاء معظمهم من المعنيين بالأدب واللغة والتأريخ. ولا أتذكر بالضبط من كان موجوداً في هذه الزيارة الاولى، ولكن حين تكررت زياراتي بعد ذلك وجدت أن الذين كانوا مواظبين على زيارته في كل جمعة تقريباً ـ في تلك الفترة ـ هم المؤرخ والمحامي عباس العزاوي، واخوه المحامي علي غالب العزاوي ـ وكان ضريراً ـ والمحامي يوسف المولى، والشاعر كمال عثمان، والمحامي مهدي مقلد (رحمهم الله جميعاً) والاساتذة أحمد حامد الصراف ـ فيما أظن ـ وكوركيس عواد،

واخوه ميخائيل عواد، ومير بصري، ويحيى الدباغ، والشيخ جلال الحنفي، وآخرون أحاول أن أتذكرهم دون جدوى. أما تلميذه الدكتور مصطفى جواد فكان قد انقطع عنه منذ أمدٍ لجفوة حدثت بينهما، على ماسمعت في ذلك الوقت.

وكان أول مالفت نظري في المجلس رقعة معلقة على الجدار، كُتب عليها: «ممنوع التحدث في الدين والسياسة». وكان الحديث يدور فعلاً في الموضوعات اللغوية والادبية والتاريخية، ولا يكاد يخرج عنها.

ووجدت الأب انستاس - وأنا أراه للمرة الاولى - رجلاً مهيب الطلعة، أسمر اللون، ذا لحية وقورة طغي مبيضّها على مسودّها. أصلع الرأس، ضخم الهامة واليدين، له عينان نافذتان فيهما بريق غريب. وكان، وهو في الثامنة والسبعين من عمره، في حركة دائبة، ونشاط عجيب، وكان بين آونة واخرى يهرع الى مكتبته فيخرج منها كتاباً أو مرجعاً يفتش فيه عن كلمة، او يتحقق من رأى، او يعرض على محدثه دليلاً على ما يقول.

وكان دائم الابتسام، لطيف المعشر، يضحك للنكتة من أعماق قلبه، ويُعجب بالفكرة الجديدة، ويصغي لكل متحدث، صغيراً كان أم كبيراً، بنفس الاهتمام. لايثور ولا يغضب إلاّ

حين يتعلق الأمر باللغة العربية، أو يخل بسلامتها، فقد كان حب الاب أنستاس للغة العربية يملك عليه تفكيره ويسيطر على مشاعره. لقد كان يعشقها حقاً، ويغار عليها، ولا يفكر الآ فيها، ويدافع عنها بحماسة الطفل وضراوة الأسد.

وكان من عادته حين يقرأ أن يمسك بيده قلماً ذا رأسين، أحدهما أحمر والآخر أزرق. وكلما قرأ عبارة بليغة نالت إعجابه، أو لفظاً فصيحاً استصوبه، وضع تحته خطاً أحمر. واذا وجد غلطة لغوية أو نحوية، أو عبارة مغلوطة، أو ليست من العربية ـ وما أكثر ما كان يجد ذلك ـ وضع تحتها خطاً أزرق.

وقد سألناه مرة لماذا يشير الى الغلط بالأزرق وقد اصطلح الناس على الاشارة اليه بالأحمر، فقال إن العرب تستحسن اللون الاحمر، ولاتقرنه بالقبح ولا بالسوء. فتراهم يعشقون حمرة الورد، ويتغزلون بحمرة الخد، ويلبسون الملابس الحمراء في الأفراح والأعياد، ولذلك فالأجدر أن يُتخذ اللون الأحمر علامة على الاعجاب والاستحسان. اما الأزرق فهو اللون الذميم لدى العرب، فهم يقولون: البلاء الأزرق. وهو ايضاً لون عيون الافرنج الذين حاربوهم وكانوا أعداء لهم طيلة حياتهم، فالأنسب أن يشار الى الأخطاء به.

وقـد تأصلت هذه العـادة في الأب انستـاس حتى لاتجد كتاباً طالعـه، ولا جريـدة يوميـة قرأهـا، الا وهي مليئـة بهذه الخطوط الزرقاء والحمراء. وأذكر أنه وصله في أحد الايام صك على أحد المصـارف، وفيـه عبـارة: «ادفعـوا لأمر فلان . . أو لحامله مبلغ ثلاثـون دينـاراً الـخ . » فما كان منـه الاّ أن أخرج قلمه من جيب ردائه بغير شعور منه، ووضع تحت العدد «المرفوع» خطاً أزرق. ولمـا أخـذ الصـك الى البنـك تردد الموظف في صرف صك تغطّيه مثل هذه الخطوط الزرقاء، وسأله عن المقصود بها.

وكـان من شدة حماسـة الأب انستاس للغة العربية، وحرصه على نقـائهـا، ومبـالغتـه في سلامتهـا، أن انتشـرت عنه روايات ونكـات بعضهـا صحيـح وبعضها من بنات الخيال، حول إيجاده أسـماء عربيـة لكل مسمى، اوإرجاعه كل اسم أجنبي الى أصل عربي. وقـد نُسب اليـه فيـما نسب، تعريب كلمة «ساندويج» بـ «الشاطر والمشطور والكامخ بينهما»، والقول بان أصل شكسبير هو «الشيخ زبير»، والانفلونزا «أنف العنزة»، وغير ذلك من النكات التي كانت شائعة في ذلك الوقت.

وكـانت هذه النكـات تبلغ مسامعه فيضحك لها كثيراً، حتى أن أحـدنـا قال له مرة ـ على هذا القيـاس: ـ أبونا ـ وذلك ما كنا نخـاطبـه به ـ يقـال إن اسم انستـاس محرف من كلمتي الأُنس

والطاس . . » فضحك لذلك ايضاً .

ولكن حماسة الأب انستاس للغة العربية لم تكن بدافع من محبته للفحصى وحدها ، وانما أيضاً من ايمانه برسالة قومية سامية ، هي تنبيه الأمة الى لغتها المجيدة ، لانه كان يرى أن عز الأمم في لسانها وآدابها وثقافتها الاصيلة ، وأن الشعب الذي لايملك لغة راقية تفي بحاجات التعبير في كل مجال من مجالات الحياة والعلم ، لايمكن أن يستكمل أسباب النهضة والتقدم .

وقد أصبح الأب انستاس في أعوامه الأخيرة أسطورة حية ، يؤمّ مجلسه الزوار من شيوخ وشبان ، وعلماء مؤرخين ، وعرب ومستشرقين ، وكانوا ينظرون اليه كما ينظرون الى أحد الحكماء الأقدمين ، يستشيرونه في مشكلاتهم العلمية ، ويحتكمون اليه في خلافاتهم ، وكان قوله الفصل في كل مسألة لغوية أو تاريخية .

وكان الأب انستاس يخص الشبان والناشئين من الكتاب والأدباء بتشجيع خاص ورعاية أبوية ، ويأخذ بأيديهم ، وينوه بذكرهم ، ويشيد بمزاياهم ، وكان قلبه ومجلسه ، ومكتبته مفتوحة جميعاً لكل طارق ، لا يرد أحداً ، ولا يضيق بمستزيد ذرعاً .

وفي سنة ١٩٥٤ نشرت كتيباً بعنوان «ايليا أبو ماضي والحركة الأدبية في المهجر» وأهديته نسخة منه ، وما كان أشد عجبي حين

زرته في الاسبوع التالي فوجدته، على مشاغله الكثيرة وأعماله المتنوعة، وقد قرأه كله بدقة، وأبدى لي عليه ملاحظات تفصيلية. ولكنه لم يكتف بذلك، بل كتب عنه كلمة قصيرة وأعطاها للأستاذ رفائيل بطي لينشرها في جريدته (البلاد) تشجيعاً لي. وقد أعطاني الاستاذ رفائيل أصل الكلمة بخط الاب انستاس بعد نشرها، وما أزال أحتفظ بها بكل اعتزاز. واذا نشرتُ صورتها اليوم بمناسبة هذه الذكريات، فلا أفعل ذلك بقصد التفاخر برسالة تعود الى ذلك العهد البعيد (وان كانت شهادة الأب انستاس مما يُفتخر به) ولكن لقيمتها التاريخية، ولبيان مدى تشجيعه للناشئة، فقد كنت يومها يافعاً، وفي مجال الكتابة مبتدئاً.

وبعد ذلك بسنة واحدة، وفي حزيران سنة ١٩٤٦، كنت استعد للسفر لتسلم وظيفتي الجديدة ملحقاً في «المفوضية» العراقية في لندن، فقصدته قبيل سفري مودعاً، وكنت أخشى أن تكون هذه المرة الأخيرة التي أراه فيها.. فودعني وداع الأب لولده، وتمنى لي التوفيق في حياتي الجديدة، ونصحني بعدم الانقطاع عن دراسة اللغة العربية وآدابها. واذكر أيضاً أنه نصحني بتعلّم اللغات الأجنبية ما استطعت الى ذلك سبيلاً.

وقد صدق ما توقعته وخشيته، إذ لم تمض على وصولي الى

لنـــدن ستـة أشهـر الآ وقـرأت في الصحـف العـراقيـة نعي الأب
انستـاس الكـرمـلي في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٤٧ عن ثمانين عاماً
وبضعة أشهر.

ذكريات عن الدكتور مصطفى جواد

لاشك أن هناك كثيرين من أصدقاء الدكتور مصطفى جواد - رحمه الله - ممن عاشروه وجالسوه أكثر مني، وعرفوا عن شخصيته أكثر مما أعرف، واطلعوا على جوانب من صفاته الشخصية وعاداته أكثر مما اطلعت عليه، وبالتالي كانوا أولى بكتابة ذكرياتهم عنه.

ومع ذلك، فقد كان حلول الذكرى الثالثة عشرة لوفاته (في ١٧ كانون الأول) مناسبة طيبة للتحدث عن هذه الشخصية العلمية الفذة، وتسجيل ما لديَّ من ذكريات عنه، وهي متفرقة، قصيرة، متباعدة الأزمان، ولكن بعضها قد لا يخلو من طرافة، أو يتضمن أحداثا وذكريات لم يعد هنالك من يعرفها أو يذكرها. وأيّاً ما كان، فان سيرة أى رجل من الرجال الذين برزوا

في ميدان من ميادين الحياة، أو قدموا لأمتهم خدمات متميزة، يجب أن تسجل عنها ذكريات أكبر عدد من عارفيه. وكلما كثرت هذه الذكريات، المهم منها والثانوى، والأصيل والعرضي، ازدادت ملامح الرجل وضوحا ودقة، وألقي مزيد من الضوء على شخصيته من شتى نواحيها.

كنت أسمع من رواد مجلس الأب أنستاس الكرملي ان له تلميذا، أومريدا، ذكيا ألمعيا، أسمه (مصطفى جواد الديلتاوى) يدرس في فرنسة، وانه كان قبل ذلك ملازما له، يأخذ عنه، ويعاونه في تحرير (لغة العرب)، وينشر فيها بحوثاً تدل على اطلاع غير اعتيادى في التاريخ واللغة العربية. وكان عارفوه يتنبأون له بمستقبل علمي باهر، ولايشكون في أنه سيكون خليفة الأب أنستاس، يحمل بعده راية اللغة العربية، ويواصل رسالته في خدمتها، والدفاع عن سلامتها. ثم سمعت بعد ذلك أن مصطفى جواد عاد الى العراق بسبب اندلاع الحرب العالمية وقبل أن يناقش رسالته للدكتوراه، وكان يشرف عليها المستشرق الفرنسي الشهير (لويس ماسينيون) الذى كان معجبا بتلميذه أشد الاعجاب. ويروى أنه خلال احدى المناقشات العلمية في الجامعة نهض من مكانه، واتجه اليه، وقبله في جبينه أمام الحاضرين استحسانا لرأى أبداه، أو لجواب أظهر به اطلاعاً نادرا، أو ذكاء شديدا.

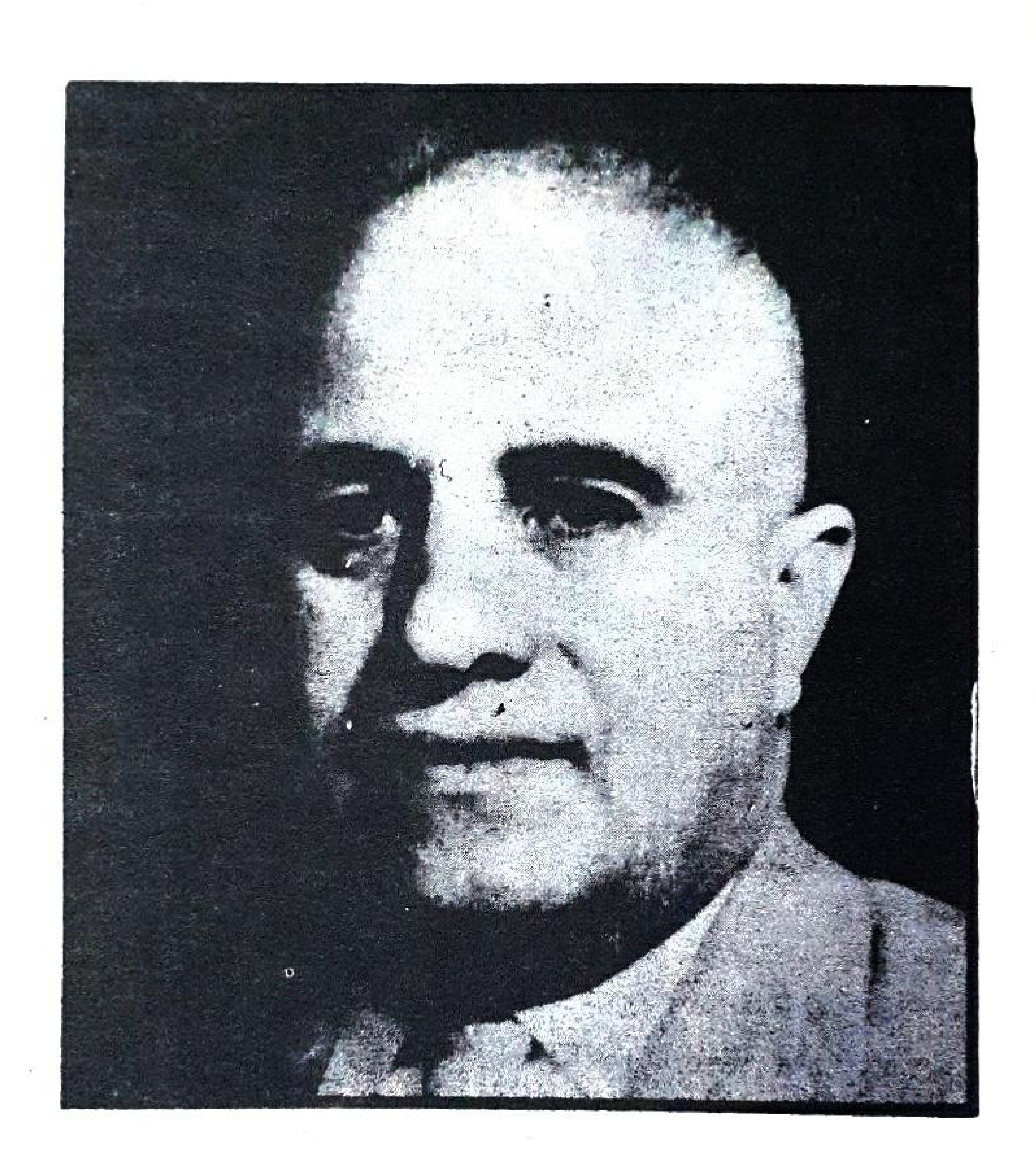
ولما عاد مصطفى جواد من فرنسة كنا طلابا في (الثانوية المركزية)، فعين مدرسا فيها لفترة قصيرة، وكنا نراه جالسا في الشمس في ساعات فراغه، منكسا سدارته الى أمام، وحوله حلقة من زملائه المدرسين يتحدثون. ثم علمنا أنه نقل الى التدريس في دار المعلمين العالية، ثم سمعنا أيضا أنه اختير لتدريس اللغة العربية للملك فيصل الثاني، وأنه نقل للعمل في «مديرية الآثار القديمة» - وكذلك كانت تسمى سابقا - وهو الذى اقترح تسميتها مديرية الآثار فقط، قائلا إن الآثار لاتكون الاّ قديمة، وان اضافة صفة القدم اليها من حشو الكلام، وقد أُخذ برأيه، وعُدّل إسم المديرية حسب اقتراحه.

وبعد بضع سنوات صرت أتردد على مجلس الأب انستاس الكرملي في أصباح الجمعة، فلم يكن مصطفى جواد بين مرتاديه. فلما سألت عنه قيل لي إنه انقطع عنه منذ أمدٍ لجفوة حدثت بينهما، وذكر لي بعضهم سببها، ولكنني أُنسيته. وهكذا فاتني التعرف عليه ومجالسته في ذلك المجلس الممتع الذى كان يضم نخبة طيبة من الأدباء.

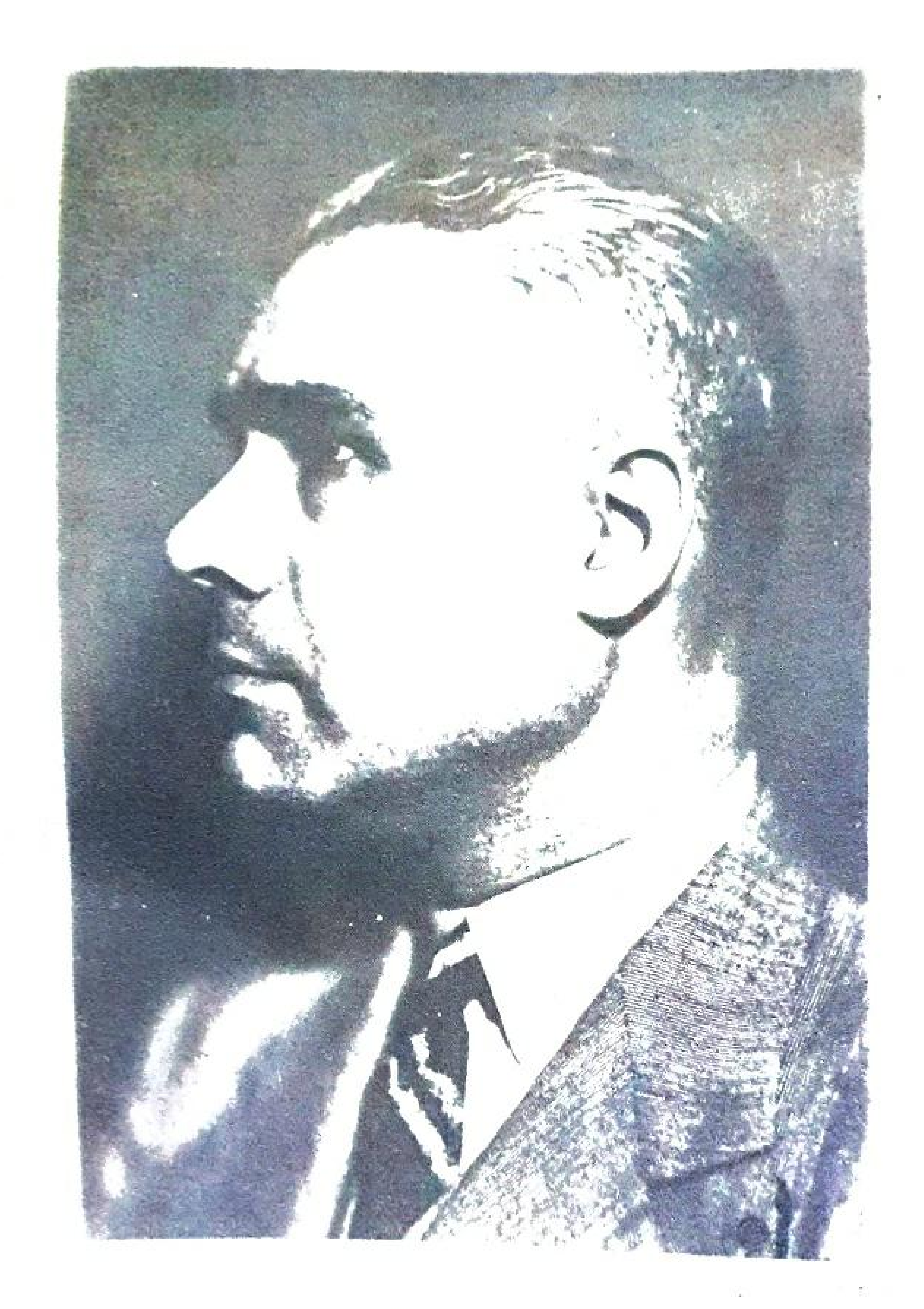
وفي سنة ١٩٤٣ عُين المرحوم أحمد زكي الخياط مديراً عاماً للدعاية. ولم تكن هنالك في ذلك الوقت وزارة للاعلام ولا للثقافة، وانما كانت «مديرية الدعاية العامة» تقوم مقامها، وترتبط

بوزارة الداخلية. وكانت «الاذاعة» الأداة الاعلامية الوحيدة الى جانب الصحافة. وكان أحمد زكي الخياط رجلا فاضلا يحترم العلم والعلماء، ويشجع الكفاءات ويقدرها. وقد عمل في نطاق الامكانيات المتوافرة في ذلك الوقت على رفع مستوى الاذاعة وجعلها أداة تثقيفية وتوجيهية، وأصدر أول مجلة اذاعية في العراق واختار لها هو إسم «منبر الأثير»، وكانت تنشر فيها برامج الاذاعة ومختارات من الأحاديث التي تلقى فيها. وحاول أيضا رفع مستوى الأحاديث الثقافية التي كانت تذاع من محطة الاذاعة، لأن الناس كانوا يستمعون اليها باهتمام كبير، فالف لجنة لفحص الأحاديث المقدمة وابداء الرأى فيها، الى جانب استكتاب بعض الأساتذة والكتاب المعروفين. وكان ذلك في سنة ١٩٤٤ - ١٩٤٥، وكانت هذه اللجنة برئاسة مدير الدعاية العام نفسه، وعضوية الأساتذة طه الراوى (الأستاذ في دار المعلمين العالية)، ورفائيل بطي (صاحب جريدة البلاد)، والدكتور مصطفى جواد (وكان قد نقل للعمل في مديرية الآثار العامة)، كما أختير كاتب هذه السطور سكرتيراً للجنة (وكان مدرساً للغة العربية في كلية بغداد).

وقد وجدت اللجنة في اجتماعها الأول أن أعضاءها جميعا من المتخصصين في الموضوعات الأدبية والتاريخية، وليس بينهم من كان تخصصه في العلوم، فاقترح أعضاؤها تعيين المرحوم جعفر



الدكتور مصطفى جـواد



أحـمد زكـي الخياط

(تفضل بها علينا مشكوراً الدكتور صادق خياط)

خياط الذى كان يحمل شهادة عالية في العلوم الطبيعية أو الزراعة من احدى الجامعات الأمريكية، اضافة الى هوايته في ترجمة الكتب التاريخية. فلم يوافق أحمد زكي الخياط على تعيين شقيقه دفعا للتقولات، خاصة وأن أعضاء اللجنة (باستثناء رئيسها) كانوا يتقاضون مكافأة لقاء عملهم كانت تعدّ محترمة (ديناران لكل اجتماع)، ولكن الأعضاء ألحوا عليه بأن ترشيحة لم يكن بسبب كونه شقيقا له، وانما لمؤهلاته الشخصية المعروفة للجميع، فوافق على مضض.

وكانت اللجنة تجتمع في الساعة الثانية عشرة من كل يوم خميس في غرفة مدير الدعاية العام في مبنى وزارة الداخلية (محافظة بغداد حاليا). وهنا بدأت معرفتي الشخصية بالمرحوم مصطفى جواد وصلتي به، بعد أن سمعت عنه كثيرا. وكنت أجمع ما يقدم الى دار الاذاعة من أحاديث، وأقرأ على اللجنة عند اجتماعها عنوان الحديث، وبضعة سطور منه، فيقترح الرئيس احالته على أحد الأعضاء لقراءته خلال الأسبوع وابداء رأيه فيه في الجلسة التالية. وفي كل اجتماع كان الأعضاء يعيدون ما أحيل عليهم من أحاديث في الجلسة السابقة، ويدور حول بعضها نقاش قصير، ثم يتخذ القرار بالموافقة عليها أورفضها، وتوزع عليهم أحاديث جديدة. وكانت المكافأة التي تدفع لأصحاب الأحاديث دينار واحدا، وقد تكون أحياناً ديناراً ونصف بتوصية

خاصة من المدير العام، اذا كان صاحب الحديث أستاذا كبيراً أو كاتباً مشهورا.

وكان المرحومان أحمد زكي الخياط، وطه الراوي، في هذه الاجتماعات، وقورين يلتزمان الجد، ولايكثران من الكلام. أما مصطفى جواد ورفائيل بطي فقد كانا مرحين يلقيان النكات ويشيعان على الاجتماع جوا لطيفا. أما جعفر خياط فكان حديثه يتراوح بين الجد والمزاح، ولكنه كان في بعض الأحيان عنيفا في انتقاداته، حديا في ارائه، ولا يتساهل اذا كان الحديث دون المستوى المطلوب، بينما كان الآخرون أكثر مسالمة ومرونة.

وكان الدكتور مصطفى جواد بصورة خاصة يكثر من التعليقات الظريفة، فيضفي على الاجتماع جوا من المرح، واذا صادف أن غاب عن احدى الجلسات، افتقده الأعضاء وتغير جو الاجتماع كثيرا. وأذكره أنه كان يقرأ كل حديث يحال عليه بدقة بالغة، ويصحح كل كلمة يجدها مغلوطة بمنتهى العناية. وكان يستعمل في كتابته حبرا بنفسجي اللون، وكانت تصحيحاته بهذا الحبر تكاد تطغي على ما سواها في بعض الصفحات. وكنت أجد على هوامش بعض الأحاديث تعليقات مثل: «غلط..» أو «هذا غلط يا غافل..» الخ.

ولم تستمر أعمال اللجنة سوى سنة واحدة ألغيت بعدها لعجز في الميزانية، وهكذا انقطعت اجتماعاتها، ولكن علاقات المودة والاحترام التي جمعت بين أعضائها لم تنقطع.

وفي سنة ١٩٤٦ سافرت الى لندن على أثر تعييني ملحقا في مفوضيتنا فيها، وكان عدد موظفيها لا يتجاوز الستة أو السبعة، أربعة منهم فقط من الدبلوماسيين. وبعد ذلك بمدة قصيرة تقرر ادخال الملك فيصل الثاني الى إحدى المدارس الانكليزية، وكان الأمير زيد قد عين أول سفير للعراق في لندن بعد أن رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي للعراق في بريطانية من مفوضية الى سفارة. وحضر مع الملك الى لندن رائده العقيد عبد المطلب أمين، وأستاذه الدكتور مصطفى جواد.

وهنا بدأت مرحلة أخرى من صلتي بالدكتور مصطفى جواد، حيث وصلنا ما انقطع من علاقاتنا الطيبة في بغداد وكنت أعمل مع اثنين من الزملاء في احدى غرف السفارة الواسعة، وكان الدكتور يكثر من التردد علينا، فيقضي معنا سويعات يمتعنا فيها بأحاديثه وتعليقاته الذكية، فاذا انتهى الدوام خرجنا لتناول الغداء في أحد المطاعم القريبة.

وكنت في تلك الفترة قد انتميت الى معهد الدراسات الشرقية

والأفريقية في جامعة لندن. وشرعت في اعداد اطروحة في ادب المهجر. فصرت انتهز فرصة زياراته لنا لأطلعه على ما اكتبه من فصولها، وأفيد من ملاحظاته وآرائه. ولكن الدكتور مصطفى جواد لم يكن يرتاح للأدب الحديث كثيرا، وكان يضيق ذرعا بلغته بصورة خاصة، متطلبا حداً أدنى من المتانة اللغوية التي كانت آثار الكتاب المحدثين أو معظمهم تفتقر اليها، وخاصة أدباء المهجر. وأذكر بهذه المناسبة أيضا أنه لم يكن يعرف من اللغة الانكليزية كثيراً، وقد حاول أن يستزيد من معرفته بها خلال وجوده في لندن، ثم انصرف عن ذلك ولم يطق عليه صبرا. كما أني لاحظت - وقد أكون مخطئا - أن معرفته باللغة الفرنسية لم تكن عميقة أيضا، لأن معظم مطالعاته ومراجعاته، حتى خلال دراسته في فرنسة، كانت باللغة العربية، ولا أحسبه راجع كتابا باللغة الفرنسية بعد عودته من فرنسة الا فيما ندر.

وكان خلال زياراته لنا في السفارة، يقف في وسط الغرفة، أو **يقطعها جيئة وذهوبا بخطوات قصيرة بطيئة، أويقف متكئاً على** أحد المكاتب، فيحدثنا حديثا عذبا في شأن من شؤون الأدب أو التاريخ، أوفي أحداث العالم واخبار السياسة، فيقرنها بما يماثلها من أحداث التاريخ، مستخرجا منها العبر أو النكات، وكانت النكتة طابعه الملازم في حديثه، يلقيها متأنيا باسما، ولكنها كانت عنصراً خلت منه كتاباته مع الأسف، اذ اتسمت كلها بالجد.

وكـان اهتمامه اللغوى ينحصر في تحرى الفصيح والصحيح، دون اكتراث للجميل أو القبيح، ولذلك كان أسلوبه جافا، خاليا من أى موسيقى، سداه العلم ولحمته المنطق، ولا مكـان فيه للخيال أو الـوجـدان، أو رقـة البيـان. أمـا شعـره فقـد كان على صحته عبـارتـه، ومتـانـة تركيبـه (كـما وصف أحدهم شعر الفرزدق فيما أظن): «أشبـه برَحًى تطحن قرونـا». ومن أسف أن لاتنعكس شخصيتـه اللطيفـة وروحـه المرحة على كتاباته، فتذهب بموته، ولا يعود يذكرها أو يعرفها سوى من عاصروه أو عرفوه شخصيا.

وأذكـر بهذه المنـاسبة نكتة لطيفة له قالها في السفارة في لندن على أثـر حادث وقـع فيهـا. فقد كان في السفارة فرّاش انكليزى يدعى «ووكـر»، وكـان هذا الفـراش على حرصـه على واجبـه، وأدبـه الجم صبـاحا، مدمنا على الشرب مساء، دائم السكر، مما أودى بصحتـه، وان لم يُخل بعمله. وبينـما كان الـدكتور مصطفى جواد في زيـارتنـا ذات يوم دخـل علينا الغرفة فراش آخر مرتبكا، وقال لنا إن «ووكر» سقط فاقد الوعي في الطابق السفلي حيث كان يقيم، ولعله كان ميتـا. فهـرعت اليـه ووجدته ممدداً أرضا بقامته الطـويلة، وقـد اصفـر وجهه وجحظت عيناه. وكانت زوجته الى جانبه تبكي.

فتـذكـرت أن الـدكتـور «مـاكس ماكـوفسكي» كان في زيـارة

للسفير . والدكتور ماكس طبيب بولوني كان صديقا للعائلة المالكة، تعرف عليها في الحجاز، ولا أدرى كيف ذهب اليها ولماذا، وكان طبيبا للملك حسين . ثم جاء الى العراق وأصبح من أطباء العائلة المالكة وأصدقائها، وكانت له في بغداد في الجيل الماضي شهرة واسعة، وكانت عيادته في شارع المتنبي . ولكن الدكتور ماكس كان على طول إقامته في الحجاز والعراق لا يحسن التحدث باللغة العربية، وكان له أسلوب مضحك في صياغة العبارات، ولم يكن يفرق بين المؤنث والمذكر .

تذكرت أن الدكتور ماكس - الذى كان في زيارة الى لندن - ما زال في غرفة السفير، فأسرعت اليه وأخبرته والسفير بما حدث، ثم رجوته أن يلقي عليه نظرة عاجلة، فنزل معي الى السرداب مسرعا، ولكنني لم أدخل الغرفة معه، لأن نفسي عافت مشاهدة الرجل في تلك الحالة مرة ثانية . فلما عاد الى غرفة السفير قال وهو يهز رأسه : «ماتت . . من صدك ماتت . . .» (أى مات حقا) .

فأمر السفير سكرتيرته أن تتصل بالاسعاف وتتخذ مايلزم . وعدت الى غرفتي، وكان زميلاى، ومعهم الدكتور مصطفى جواد، وربما غيره أيضا، لايزالون مستمرين في الحديث، فلما دخلت انقطع حديثهم، وسألني الجميع ما الخبر، فرويت لهم

ماحدث ثم قلت ان الدكتور ماكس يقول انه «ماتت من صدك» فضحكـوا لعبـارته على الرغم من أسفهم لما حدث. أما الدكتور مصطفى جواد، فقد قال بنبرته المعتادة:
« ولم لا ؟ قد يموت المرء ضحكا »

وعـاد الـدكتـور مصطفى جواد الى بغـداد بعـد مدة قصيرة، وكـان ذلـك آخـر عهـدي به، ولم أره بعد ذلك سوى على شاشة التلفـزيـون في ندواته الممتعة خلال زياراتي القصيرة الى بغداد، وكنت ألحـظ في كل زيارة ازدياد شحوبه ونحوله، واشتداد المرض عليه، حتى بلغني نعيه في اليوم السابع عشر من كانون الأول سنة ١٩٦٩، عليـه رحمـة الله.

وأنـا اذا أكتب هذه الـذكـريـات البسيطة عنه بمناسبة ذكرى ذلك اليوم الذي فجعت فيه اللغة العربية بفقده، وخسرت بوفاته علما من أعـلامهـا، وطـودا شامخـا من أركانها، انما أزجيها اكليلا صغيرا على مثواه، وهو ليس في أحد مقابر النجف فقط، وانما في قلب كل صديق من أصدقائه، وفي فكر كل محب للغة الضاد التي عشقها منذ نعومة أضفاره، وكرس لخدمتها حياته.

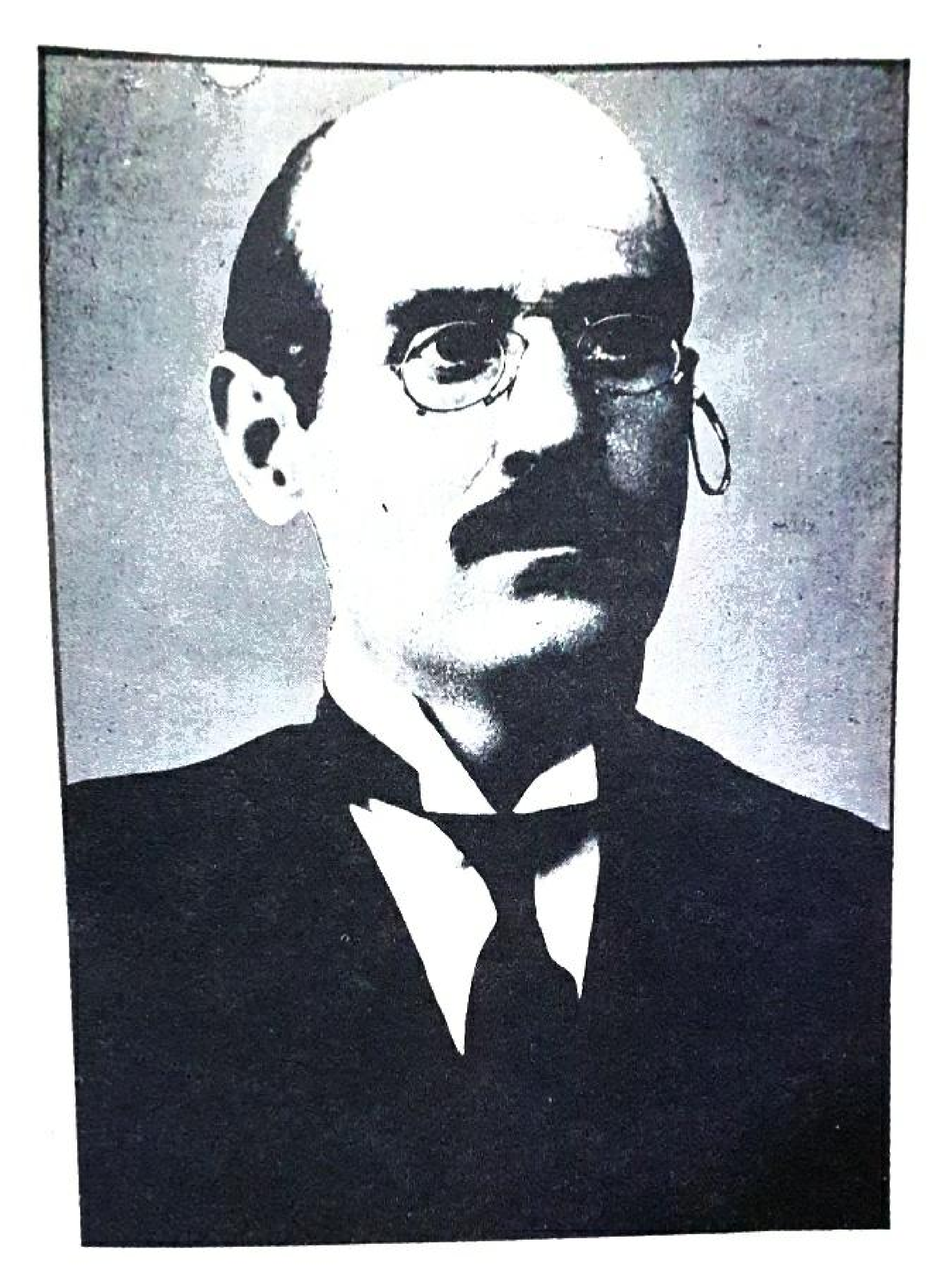
ساطع الحصري

على كثرة ما كتبته من ذكرياتي عن الأشخاص الذين عرفتهم أو جمعتني بهم ظروف الحياة أو العمل، فانني لم أكتب عن العلامة ساطع الحصري كلمة واحدة. والمرء قد يعجز عن الكتابة عن شخص أحيانا لكثرة ما يعرفه عنه، أو لطول معاشرته اياه، كما يعجز عنها لقلة معرفته به، أو ضآلة معلوماته عنه.

ولما قيل لي ان (ألف باء) الغراء تعتزم اصدار ملف خاص عن الأستاذ الحصري بمناسبة ذكرى رحيله، وتطلب الى عدد من عارفيه أو عارفي فضله المساهمة في اعداده، ترددت كثيرا. فقد عرفت الأستاذ الحصري منذ وعيت نفسي، واستمرت صلتي به خلال فترات طويلة حتى زيارتي الأخيرة له قبل وفاته بأيام قلائل. ومع ذلك، فمن التطاول أن أقول انه كان (صديقي)،

فقد كان أستاذا لوالدي، وعنه ورثت احترامه والاعجاب به. فلما شببت عن الطوق، وأتيح لي ان اتصل به بصفتي الشخصية، ازددت له احتراما، وبه اعجابا، واليه انجذابا، بفكري وعقلي. ولذلك كانت الكتابة عنه تبدو لي من اصعب المصاعب. اذ لا يعرف المرء أين يبدأ، وأين ينتهي، وماذا ينشر من ذكرياته، وماذا يطوى.

ولد مصطفى ساطع بن محمد هلال الحصري الحلبي عام ١٨٨٢ في صنعاء اليمن لأسرة عربية جاءت الى حلب من الجزيرة العربية، وكان يحتفظ بشجرة تثبت نسب الأسرة لأجيال عديدة، وتعود بها الى أصولها العربية الخالصة التي انحدرت منها. ونشأ الحصري في عاصمة الدولة العثمانية، وتخرج في (المدرسة الملكية الشاهانية)، وكانت كلية رفيعة المستوى، يتخرج فيها الموظفون الاداريون، وتدرس فيها مواد تجمع بين العلوم القانونية والسياسية والادارية، وعين بعد تخرجه (قائم مقام) في احدى أقضية القسم الأوربي من الدولة العثمانية. ولكن الحصري لم يقتصر على دراسته في تلك الكلية، وانما كان يعب من مناهل الثقافة العالمية منذ صغره، وكان رجلا خلق للفكر والعلم وليس للوظائف الادارية، وما لبث بكتاباته ومؤلفاته أن أصبح من أعلام الفكر في ذلك العهد. وقد سألته ذات مرة في أواخر أيامه عن سبب تحوله الى ميدان التربية



ساطع الحصري في شبابه

والتعليم بعد دراسته التي لم تكن لها صلة به، فقال لي انه كان في مطلع شبابه وبداية تكوينه الفكري مولعا بالرياضيات متفوقا فيها. ولكنه كان في الوقت نفسه يشعر برغبة كبيرة في نشر العلم والمعرفة بين الآخرين، وبين الناشئة بصورة خاصة، فوجد أن الرياضيات مادة اختصاصية ليست مما يستطيع أن ينشرها بسهولة من أجل رفع مستوى الثقافة العامة، وليست علما يمكن تبسيطه أو تقريبه من الأفهام كثيرا، فتحول الى العلوم الطبيعية، اذ وجدها قابلة للتبسيط أكثر من الرياضيات، كما وجد مجالها أوسع، لأنها ليست الاّ دراسة للحياة في شتى حالاتها ومظاهرها وأسرارها. ثم شعر بعد ذلك أنه ليس من الممكن نشر المعرفة بصورة نافعة ومؤثرة بدون معرفة جيدة لمبادىء التربية وعلم النفس، فاهتم بدراستها حتى أصبح من خبرائها المعدودين في الدولة العثمانية. وأحسب أن ذلك مارشحه مديراً لدار المعلمين في استانبول، وكان ذلك منصبا تعليميا كبيرا.

ودارت الايام، ونشبت الحرب العالمية الأولى، ثم انتهت بانفصال البلادالعربية عن الدولة العثمانية على النحو المعروف، فقرر ساطع الحصري ترك مناصبه ومكانته المحترمة في تركية، والذهاب الى سورية للمساهمة في بناء الدولة العربية الجديدة التي توج الأمير فيصل ملكاً لها، فاصبح وزيراً للمعارف في تلك الدولة الفتية، وكان فيصل يعرفه، أو قد سمع بمكانته العلمية،

منذ كان نائباً عن الحجاز في البرلمان العثماني. فلما أخرج الفرنسيون فيصلا من سورية بعد معركة ميسلون، **ونصب ملكا** على العراق، جاء معه ساطع الحصري ليتولى وضع أسس التعليم في العراق، وبناء كيانه في هذه الدولة العربية الجديدة ايضاً. ولكنه في هذه المرة اعتذر عن الوزارة لأنها منصب سياسي وليس فنيا، وفضّل أن يكون مديراً عاماً لها، وكان منصب المدير العام يقابل منصب وكيل الوزارة في الوقت الحاضر.

وشمّر ساطع الحصري عن ساعديه لوضع أسس التعليم في الدولة العراقية الجديدة، وإزالة مخلفات أنظمة التعليم القديمة المتهرئة، اوتلك التي وضعها الانكليز في عهد الاحتلال بما يوافق أهواءهم ومصالحهم، فعمل بلا كلل في وضع أسس جديدة تقوم على النظريات التربوية الحديثة، والاعتبارات القومية، ومتطلبات المرحلة الجديدة.

وتقلب الأستاذ الحصري لمدة عشرين عاماً في شتى المناصب التعليمية والثقافية حتى هب العراق في ثورته التحررية ضد بريطانية في مايس سنة ١٩٤١.

ولن أنسى ما حييت يوماً من أواخر شهر حزيران في تلك السنة، وبعد فشل الثورة التي تحمس لها الشعب العراقي باسره

حماسة كبيرة، وايدها ساطع الحصري تاييدا قويا، حين زارني نجله «خلدون»، وكان ـ وما يزال ـ من أعز أصدقائي، وأخبرني بكل هدوء أن الحكومة أخرجت والده من العراق قبل أيام، ثم جاءه الأمر بالمغادرة هو أيضاً، وانه أتاني مودعاً. وكان بعد ذلك ما كان من اسقاط الجنسية العراقية عن الاستاذ الحصري، وحرمانه من راتبه التقاعدي الذي كان حقا من حقوقه المكتسبة، بعد خدمته الطويلة للعراق، وكان ذلك بضغط من عبد الاله الوصي على العرش. وقد أقام الحصري بعد ذلك في سورية زمنا، فعُهد اليه بتنظيم شؤون المعارف فيها، ثم انتقل الى مصر مستشارا للادارة الثقافية لجامعة الدول العربية حيث أسس فيها «معهد الدراسات العربية العليا» وأصبح أول عميد له. وكان في ذلك الوقت قد قارب السبعين من عمره.

وشاءت الظروف أن أُعين سكرتيراً في سفارتنا في القاهرة، واقضي فيها أربع سنوات سعيدة (بين ١٩٥٠ و١٩٥٤) كنت خلالها مرة أخرى على صلة وثيقة بالاستاذ الحصري. وكان يقيم في نزل متواضع في القاهرة اسمه «بانسيون فينواز»، وكانت له فيه غرفة متوسطة الحجم قسمت الى قسمين بفاصل من رفوف الكتب، ينام في أحدهما، ويعمل في الآخر، ويخرج الكتاب بعد الكتاب، وينشر المقال تلو المقال. ومن أبرز أعماله في تلك الفترة كتبه القومية، و«حولية الثقافة العربية» التي صدرت في عدة

أجزاء، وكتب عديدة أخرى.

وأخيراً عاد الاستاذ الحصري الى بغداد في سنة ١٩٦٩، وكان المقام قد استقر بي فيها أيضا قبل ذلك، فعدت الى صلتي به وزيارته بين آونة واخرى. وكان الكبر قد أضعف بصره، وأحوج سمعه الى ترجمان، ولكن فكره الثاقب كان على نشاطه المعتاد، وذهنه المرهف على حدته. وكان قد اتخذ له سكرتيرا يقرأ له، وآخر يملي عليه، ولم ينقطع عن العمل يوما واحدا وهو يقارب التسعين.

وفي إحدى زيارتي له رجوته أن يسمح لي بتصويره للذكرى، فوافق والتقطت له عددا من التصاوير. وشُغلت عنه بضعة أيام، فاتصلت بي كريمته وقالت إن والدها يستفسر عن الصور ويرغب في رؤيتها. فاعتذرت عن تاخري في جلبها اليه، ووعدت أن أفعل ذلك في اليوم التالي أو الذي بعده. وما كنت أدري أن الزمن يسابقني. ففي صباح اليوم التالي اتصل بي صديقي الأستاذ خيري العمري وأخبرني آسفا أن الاستاذ الحصري سقط في غرفته في ساعة مبكرة من ذلك اليوم، وتوفي فجأة. وبعد ذلك بساعات، وفي الوقت الذي كان المفروض أن أكون فيه معه أُطلعه على التصاوير، كنت أقف واجماً بين الحشد الغفير من مشيعيه، وهو يوارى التراب في أرض العراق الذي أحبه بكل



آخر صورة لساطع الحصري

(التقطها المؤلف قبل وفاته بخمسة أيام)

جوارحه، وخدمه بكل اخلاص، ورفض كل جنسية أخرى غير جنسيته، على الرغم من ايمانه المطلق بالعروبة ووحدة البلاد العربية، وعلى الرغم من أن عدة دول عربية عرضت عليه جنسيتها فخورة. وقد بقي بلا جنسية سنوات طويلة حتى أعيدت اليه الجنسية العراقية. وقفت واجما، وكانت تدور في خاطري - أشبه بفلم سينمائي - ذكريات تمتد أكثر من خمسة وأربعين عاما.

وانه لمن العسير على أي انسان - عرفه شخصياً أم لم يعرفه - أن يوفي خدمات الاستاذ الحصري للعراق والأمة العربية حقها من التقدير والتكريم، فقد كانت خدمات بناءة، متعددة الجوانب، بعيدة الآثار، وكانت أعماله كلها مبنية على العلم الصحيح، والدراسة العميقة الجادة، والتفكير المنظّم، والنظر البعيد، ولذلك تركت آثارها المنظورة وغير المنظورة في أجيال تالية، ويكفيه أنه كان رائد الفكرة القومية العربية وفيلسوفها الذي كان له أكبر الاثر في تكوين وعي قومي في المشرق العربي. وقد كانت الدعوة للقومية العربية محور عمله وحياته مدة نصف قرن تقريباً.

لقد كان الحصري عالما حقيقيا، لم يتظاهر قطّ بما ليس فيه وكان على تصلبه في الشؤون الادارية، وتشدده في الحرص على

المصلحـة العـامـة، وتمسكه بمبادئه، متواضعا في العلم، يصغي لكل مناقشة، ولا يغضب لاعتراض وجيه، ولا يتناول موضوعا أو يشـرع في مشـروع إلّا بعـد الاحـاطـة التامة بكل جوانبه. وكانت آراؤه واحـاديثـه في القـوميـة والـتربية والاجتماع قائمة على فهم عميق للتاريخ، وايمان حقيقي بالمكان الذي يجب ان تحتله الامة العـربيـة تحت الشمس، الى جانب ثقـافتـه الغزيرة، المدهشة، التي يعجب المرء كيف يتسنى لمن عاش عمـراً واحـداً فقط - مهما طال - أن يكتسبها.

وكثيرا ما وُصفت ثقافة الحصري بأنها كانت (موسوعية)، ولا أرى هذا الـوصف صحيحـا. فالثقافة الموسوعية تعني «الالمام من كل شيء بطـرف»، في حين أن الحـصـرى كان حجـة في كل موضـوع يتناوله، وكأنه خبير به، متخصص فيه، قضى عمره في دراستـه. ولـه باللغـة التركية مؤلفات نشرت في شبابه وكانت في زمـانهـا - ولا يزال بعضها حتى اليوم - من أمهات المراجع بتلك اللغـة، منهـا كتـاب في (فن الـتربيـة) بجـزئـين، وآخـر في (الاثنـوغـرافيا) -أو علم الأقوام أو الأجناس البشرية - وكتب في (الكيميـاء) و(علم الحيـوان) و(علم النبات)، و(مبادىء العلوم الطبيعيـة)، وغـير ذلـك، وكـان بعضها مقرراً للتدريس في جميع مدارس الدولة العثمانية، وكانت كلها موقعة باسم: «م. ساطع».

ومن آيـات عبقـريتـه أنـه بحكم نشأتـه في عاصمـة الـدولـة العثمانية ، ودراسته باللغة التركية ، لم يكن يعرف اللغة العربية أو يلم بها حتى مغـادرتـه تركية . وقد حدثني أنه كان في الأربعين من عمره حين بدأ بتعلّمها . وقد بلغ به الأمر بعد أن أتقنها في سنوات قلائل أن ناقش على صفحات «الرسالة» و «الثقافة» وغيرهما كبار اللغويين في موضوعات تتعلق بتعليم اللغة العربية والنحو، وكان بين من ناقشـهم الأستـاذ ابـراهيم مصطفى صاحب «احيـاء النحـو» ، وكـان ابـراهيم مصطفى أكـبر أساتذة النحو في مصر في زمانه .

وأعجب الحصـرى بأبن خلدون وفلسفتـه ، ووضع عنه كتابه «دراسـات عن مقـدمـة ابن خلدون» ، بعـد أن كتب عن ابن خلدون إثنـان من فطـاحـل الكتـاب والمفكـرين هما طه حسين ، ومحمـد عبـد الله عنان ، فناقشمها وبزهما . وهذا الكتاب من كتبه التي تتجلى فيهـا ثقـافتـه الـواسعـة واطلاعه العجيب في التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع .

وعـين عميـداً لكيـة الحقوق ، ولم يكن القانون من العلوم التي عرف عنـه اهتـمام بها ، أو اختصـاص فيهـا ، فاذا به يرفع مستوى تلك الكليـة بشكـل سريـع ملحوظ ، ويرسّخ مناهجها على أقوم

الأسس واحدثها، وكأنه قضى عمره في دراسة القانون وتدريسه. وقد اطلعت بين أوراقه مؤخرا على مسودة خطاب ألقاه بمناسبة توزيع الشهادات على إحدى الدورات المتخرجة، فاذا به يتضمن توجيهات ونصائح هؤلاء القانونيين الجدد لايمكن أن تصدر الاّ ممّن أمضى في القضاء أو المحاماة دهرا. ولما وجد الحصرى أن (علم الاحصاء) ليس له من يُدرّسه في كلية الحقوق بكفاءة ترضيه، تولى تدرسيه بنفسه، فكانت محاضراته في مستوى يعجز عن بلوغه كبار المتخصصين في هذه المادة التي كان يُظن أنها خارج نطاق اهتماماته.

وتولى مديرية «الاثار العامة» ولم يكن من المعروف اشتغال سابق له بعلم الاثار، فاذ به يصبح في فترة وجيزة خبيراً في هذا الغلم، يناقش الخبراء العالميين، ويوجه كبار المتخصصين، وكنت تراهم أمامه، وكأنهم تلامذة أمام أستاذهم.

وتعرض في حياته لكثير من هجمات الحاقدين، والانتهازيين، والشعوبيين، والاستعماريين، والجهلاء، والذين في نفوسهم مرض، ولكنه كان كالصخر الأصم تمسكا بمبدئه، والجبل الأشم في شموخه، صغرت عنده أعراض الدنيا، فلم يتساهل في قضية تمس المصلحة العامة، ولم يفرط في الذود عن المصلحة عن المصلحة القومية، ولم يصانع من أجل منصب أوجاه. وكان

يناقش الملك فيصل وياسين الهاشمي ونوري السعيد بصلابة وثقة بالنفس، بينما كان يصغي الى معلم بسيط في قرية نائية ويحاوره بهدوء وتواضع. فاذا وجده محقا تراجع واعترف بخطئه. وكان على الدوام سلاحه العلم، وقوته المنطق، وديدنه الحق. وبعد خدمة متفانية دامت عشرين عاما غادر العراق ومعه حقيبتان، ولو شاء لامتلك بنفوذه ودالته الدور والقصور وما يشتهي من أعراض الدنيا، كما فعل غيره، ثم عاد الى العراق بعد عشرين عاما أخرى أو نحوها، وبعد أعمال مثمرة في سورية ومصر، كرمه خلالها الملوك والرؤساء، والمجامع والجامعات، وكانت معه حقيبتان أيضا، في إحداهما كتبه وأوراقه، وفي الأخرى ملابسه.

لقد كُتبت عن الحصري وفكره القومي، وفلسفته التربوية، وآرائه الاجتماعية، كتب كثيرة وأطروحات قدمت الى الجامعات الأوربية والامريكية، وسيكتب عنه الكثير، فقد كان رجلا عظيما، بكل معاني العظمة، وقائدا من قادة الفكر العربي، وهيهات أن تحصر خدماته في عُجالة، أو توجز سيرته في مقالة.

استنوق الجمل

خواطر عن يوسف غنيمة

اطلعت بطريق الصدفة على كتاب بعنوان «النشاط الصهيوني في العراق» تأليف الأستاذ صادق حسن السوداني، وكنت قد قرأت للمؤلف الفاضل نفسه بحثا ممتازا عن المملكة لعربية السعودية، فشجعني ذلك على قراء كتابه هذا، بالاضافة الى اهتمامي الخاص بكل ما يتعلق بالصهيونية واليهودية وتاريخهما.

ولست أقدم هنا عرضا للكتاب، ولكن فقرة قصيرة وردت فيه أثارت لديّ بعض الخواطر والذكريات. على أنني أشعر بشيء من الحرج في كتابة ما أكتب لأنني وجدت أن المؤلف قد تفضل بالرجوع الى بعض كتبي مستشهداً بها مشيراً اليها بكل دقة وأمانة علمية. ومع ذلك، فانني أعتقد أنه سيتقبل ملاحظتي

بنفس الـروح العلميـة التي التـزم بها خلال بحثـه هذا وبحـوثـه الأخرى.

جاء في مدخل الكتاب، وهو عرض لتاريخ الطائفة اليهودية في العـراق ودورهـا في الحيـاة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ما يأتي:

«... ومن أبــرز الشخصيــات اليهـوديـة التي اشتهـرت في العراق هو ساسون حسقيل الذى تسلم منصب وزير المالية لأكثر من مرة في عشرينات هذا القرن، وكذلك يوسف رزق الله غنيمة الذى تسلم المنصب نفسه في أربعينات القرن... الخ»

(ص ٢٧)

يوسف غنيمــة، الــذى ينتمي الى أسـرة من أقـدم الأسـر الكلدانية في العراق، صاحب المؤلفات العديدة، عضو المجلس التأسيسيّ، وصـاحب جريـدة «السيـاسـة» ومـؤسس المصـرف الـزراعي - الصنـاعي وأول مديـر عام له، ومـديـر الآثار العام، وأول وزيـر للتمـوين في العـراق، ووزير المالية ست مرات آخرها سنة ١٩٤٨، يرد ذكره في كتاب عن «تاريخ» الحركة الصهيونية في العراق بأنه «.. من أبرز الشخصيات اليهودية التي اشتهرت في العراق».

ويخيل لي أن الذى جعل المؤلف يستنتج بأن يوسف غنيمة كان يهوديا هو كتابه المهم «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، ولكنه عذر غير مقبول بأى وجه من الوجوه، خاصة من باحث علمي، فهنالك مئات من الكتب عن اليهود وتأريخهم، مؤلفوها غير يهود.

انها - بطبيعة الحال - هفوة بسيطة، وغير مقصودة، وغلطة واحدة لاتقلل من قيمة الجهد المبذول في الكتاب، ولا تغمط مزاياه الأخرى، وهي كثيرة، ولكنها في الوقت نفسه تثير تساؤلات عديدة، وتبعث خواطر متنوعة.

أولا: ان أسلوب الكتاب شبيه بأسلوب الرسائل الجامعية التي تقدم للحصول على درجة علمية، ولست أدرى هل كان في الأصل رسالة جامعية فعلا. ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن كثيرا من أصحاب هذه الرسائل ينشرون رسائلهم كما قدمت الى الجامعة بحذافيرها، محتفظين بصيغتها التي كانت عليها وهي أطروحة جامعية، دونما تعديل ولا تغيير. في حين أن الكتاب الذى ينشر لعامة القراء يختلف كل الاختلاف عن الرسالة الجامعية من حيث التبويب ومن حيث الاشارة الى المصادر ومن حيث الأسلوب بصورة عامة. وهنالك كثير من الكتب التي تنشر في الغرب، وكانت في الأصل رسائل جامعية، وهي تختلف في

أسلوبها وصياغتها عن الأصل الذى قدمت به الى الجامعة، وان كانت المادة واحدة، وليس هنالك ناشر يوافق على نشر أطروحة بالصيغة التي قدمت بها.

واذا كان هذا الكتاب في أصله رسالة جامعية فانه لابد أن يكون قد قدم للحصول على درجة في «تاريخ العراق الحديث»، ولاشك أنه كان للرسالة مشرف متخصص في الموضوع، فكيف فاتته هذه الهفوة أيضا؟ واذا كانت الرسالة قد نوقشت، فكيف فاتت هيئة المناقشة، وهي تنتخب عادة من الأساتذة المتخصصين في مادة الرسالة؟

هذا هو الخاطر الأول. أما الخاطر الثاني، فهو أنه اذا أمكن أن ترد في كتاب علمي مثل هذه الغلطة عن شخصية عراقية قريبة العهد، لم تمض على وفاتها سوى سنوات قلائل، ولايزال أولاده بيننا أطباء معرفين ومحامين ناجحين، فكيف نستطيع أن نطمئن الى ما نقرؤه في كتب التاريخ عن شخص عاش في العصر العباسي مثلا، وكيف نثق بصحة سيرة كتبت عن شخصية أموية أو جاهلية، ان لم نقل سومرية أو بابلية؟؟

وكم من المؤرخين ياترى ارتكبوا مثل هذه الأخطاء، فتناقلها المؤلفون بعضهم عن بعض، حتى وصلتنا كحقيقة ثابتة لانفكر



يوسف غنيّمة

(من مجموعة الأستاذ خيري العمري)

في مناقشتها لأن الراوية ثقة، والكاتب خبير متخصص في الموضوع. وكم من المؤرخين في المستقبل سيقفون عن هذا الكتاب ويتوارثون هذه الغلطة وأمثالها ويكررونها جيلا بعد جيل، حتى تكاد في آخر الأمر وبنتيجة التواتر أن تصبح حقيقة تاريخية ثابتة. **أو على الأقل قد يعمد أحد الباحثين، في المستقبل بدافع من توخي الدقة الزائدة، فيكتب مثلاً:**

«... وفي رواية انه كان يهودياً ...»

وأما الخاطر الثالث، فهو ما أثارته تلك الفقرة من ذكرى يوسف غنيمة نفسه، ذلك الرجل الفاضل والعالم المتواضع والوزير النزيه. وهي فرصة أنتهزها لايراد نبذة، وان كانت مختصرة جدا، عن الرجل، لاطلاع «الجيل الجديد» على سيرة شخصية علمية **وسياسية واقتصادية عراقية، يبدو أنها نسيت أو تكاد تنسى، بعد أن كانت -حتى الأمس القريب- ملء السمع والبصر.**

ولد يوسف بن رزق الله بن يوسف الملقب بالشهبندر بن الشماس سمعان بطرس، في بغداد في ٩ آب سنة ١٨٨٥ ميلادية، ودرس في مدرسة «الاليانس»، وتعلم اللغات التركية والفرنسية والانكليزية، اضافة الى العربية والكلدانية، ومارس التجارة، وكتب في الصحف والمجلات العربية، ونشر بحوثا مهمة في مجلة «المشرق» البيروتية ومجلة «لغة العرب» للأب أنستاس الكرملي، ومجلة «المقتطف» وغيرهما. واشترك مع المعلم

داود صليوا في اصدار جريدة «صدى بابل» في سنة ١٩٠٣ .

انتخب عضـوا في مجلس ادارة لواء بغـداد في سنـة ١٩٢٢ ، وعـين محاضـرا في «دار المعلمين العليا» في السنة التالية . وانتخب في آذار سنـة ١٩٢٤ نائبا عن بغداد في المجلس التأسيسي، ثم أصـدر جريـدة «السيـاسـة» اليـومية ، وانتخب نائبا عن بغداد في مجلس النـواب . عين وزيـراً للمالية للمـرة الأولى في وزارة عبد المحسن السعدون الثالثة (كـانـون الثـاني ١٩٢٩) ثم في وزارة توفيق السـويـدى الأولى (نيسـان ١٩٢٩) واشـترك في تأسيس «حزب الاخاء الوطني» مع ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وحمكت سليمان وعلي جودت الأيوبي ، وعين وزيراً للمرة الثالثة في وزارة علي جودت الأيـوبي (١٩٣٤) ووزارة جميـل المـدفعي التي أعقبتهـا (١٩٣٥) . ثم أصبح مديـراً عامـاً للمصرف الزراعي-الصنـاعي الـذى أسس في سنة ١٩٣٦ ، فمديراً عاماً للآثار خلفاً للأستـاذ ساطـع الحصـرى (١٩٤١-١٩٤٤)، وكـان أول وزير للتمـوين عنـد استحـداث هذه الـوزارة في أواخـر الحرب العالمية الثـانيـة ، وعضواً في مجلس الأعيان (أيار ١٩٤٥) ثم وزيراً للمالية (١٩٤٦) ومـرة أخـرى في سنـة ١٩٤٨ . ومرض في أيامه الأخيرة فقصـد لنـدن للمعالجة ، وقضى نحبه في أحد مستشفياتها في ١٠ أب ١٩٥٠ ، ونقل جثمانه الى بغداد، ودفن فيها .

وكـان يوسف غنيمـة شخصية متعددة المزايا في حقول التجارة والاقتصـاد والصحـافـة والتـاريخ والسياسة . أما مؤلفاته فيضيق المجال عن ذكرها جميعا، بل حتى عن سرد عناوينها . ومن أهمها :

«رسـالـة برديصـان والبرديصانية» (١٩٢٠)، و«تجارة العراق قديـما وحـديثا» (١٩٢٢)، و«نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» (١٩٢٤) ولا يـزال هذا الكتـاب أهم مرجـع في موضـوعـه، و «محـاضـرات في مدن العـراق» (١٩٢٤) - ألقيت في دار المعلمين العليا - و «الحيرة : المدينة والمملكة العربية» (١٩٣٦) .

ولـه مؤلفـات أخرى منها : «غادة بابل» وهي رواية تاريخية، و «حقـوق الفـلاح والعامل» (١٩٢٩ - ١٩٣٠) وهي دراسة تناول فيهـا حقـوق الفلاح والعامل في المجتمع العراقي والبطالة واعالة الشيـوخ والمـرضى وعـوارض العمـل والنقـابـات المهنيـة وقوانين العمل - وقد عالج يوسف غنيمة هذه الموضوعات في وقت لم يكن أحد من الكتاب يهتم بها في الشرق العربي وقلما يطرقها كاتب .

ولـه كتـاب مهم أخر عنوانه «مالية العراق في عهد العباسيين» نشر منه فصولا في «مجلة غرفة تجارة بغداد» .

وبهـذه المناسبة أقول : حبذا لو تولّت احدى الجهات الثقافية أو

الاعلامية نشر مجموعة كاملة لمؤلفات يوسف غنيمة تخليداً لذكرى ذلك الوزير العالم الذى خدم بلاده وثقافتها وتأريخها بكل جد واخلاص خدمة هادئة ، وكان من أعف الناس يدا ولسانا ، وتولى الوزارة ثماني مرات ، ومات وهو لا يمتلك بيتا ولا سيارة. وقد سأله بعض أصحابه مرة عن سبب معيشته البسيطة وهو الذى كان طيلة حياته العملية في أعلى مناصب الدولة ، فأجاب بما عرف عنه من ظرف :

«يبدو أن راتبي لا بركة فيه» .

المازني في العراق

كان فقيد الأدب العربي ابراهيم عبد القادر المازني من أدباء مصر الذين عرفوا العراق عن كثب، ونعرفوا على أهله ورجالاته، واطلعوا على أحواله، وعملوا على توثيق أواصر الأخوة ووضع اللبنات الأولى في صرح التقارب بين البلدين العربيين الشقيقين.

وهنالك عدد كبير من مشاهير أدباء مصر الذين نتدبوا للتدريس في مدارس العراق وكلياته، فأقاموا فيه فترة كانت لها في أدبهم وانتاجهم آثار مفيدة، ومنهم أحمد حسن الزيات، وعبد الوهاب عزام، وزكي مبارك، وعبد المنعم خلاف وغيرهم. أما المازني فقد قصد العراق في ثلاث زيارات قصار، ولكنها كانت **حافلة بالدراسة والاطلاع، غنيّة بما أوحت به اليه من مقالات**

عن العراق ونهضته الأدبية وحياته الاجتماعية ، كما أنها - وخاصة الأخيرة منها - كانت مناسبة طيبة للاحتفال بتكريم المازني ودراسة أدبه ، وظهور مقالات كثيرة عنه في الصحف العراقية .

كانت الزيارة الأولى في شتاء سنة ١٩٣٦ ، حين قدم المازني الى العراق صحبة صديقه الصحفي العربي المعروف أسعد داغر ، وأقام فيها ثمانية أيام . وقد وصلها في ١٤ شباط من تلك السنة ، وصادف أن كان (نادى المثنى) يعقد أحد اجتماعاته في ذلك اليوم ، فدعي المازني لحضوره ، وأعلن سكرتير النادى وجود المازني في القاعة ، فدوت بالتصفيق ترحيبا به . ونهض المازني فألقى كلمة طريفة قال فيها : «إنني أحمل في دمي قطرات من كل قطر عربي ، اذ أنتمي بواسطة جدتي لأمي الى الحجاز ، ومن ناحية جدى لأمي أنتسب الى المغرب . . . »

ونشرت جريدة (البلاد) الصادرة صباح ١٦ شباط سنة ١٩٣٦ في صفحتها الأولى صورة المازني ، مع مقال افتتاحي بعنوان «الدم والعقل والمصلحة تقضي بوحدة العرب - هكذا يقول الأستاذ المازني لشباب العراق القومي» . وقد تضمن المقال مقتطفات من خطابه في نادى المثنى عشية وصوله وجاء في المقال أيضا :

« . . . ولن تتسع هذه الأنهر الصحفية الضحلة للافاضة في

تحليل أدب المازني ومزاياه وخصائصه كصحفي قومي بارع، بل لابد أن يكرر ذلك ويستعاد مراراً في أعداد كثيرة. فنحن باسم المعجبين بأدب المازني، المتذوقين لشعره العالي، الناعمين بأسلوبه الطريف، المكبرين لدعوته العربية وخدمته الوطنية لبني قومه نرحب بمقدم الأديب العظيم أجمل ترحيب».

وأقيمت لتكريم الأستاذين المازني وداغر سلسلة من الحفلات أولاها حفلة الأستاذ سليمان فيضي (نائب البصرة) التي أقامها في داره وحضرها رئيس الوزراء (ياسين الهاشمي) ووزير الداخلية (رشيد عالي الكيلاني) ورئيس مجلس النواب (محمد زكي)، وجميل المدفعي وابراهيم عطار باشي والعلامة محمد حبيب العبيدي والدكتور عبد الرزاق السنهوري الذى كان عميداً لكلية الحقوق العراقية أوانذاك.

ومنها حفلة رفائيل بطي (صاحب جريدة البلاد)، وكانت أفخمها وأحفلها برجال الأدب والصحافة، بينهم الزهاوى، وعلي الشرقي، وعبد الحسين الأزرى، وعبد الوهاب عزام، ومحمد مهدى الجواهرى، وسلمان الشيخ داود. وقد وصف هذه الحفلة أحد الذين حضروها قائلا:

«... انتظمت جدرانها الأربعة - ويريد غرفة استقبال

صاحب الدعوة - وجوه الأدباء والفنانين والمؤرخين، وفي مقدمتهم الأستاذ الفيلسوف الزهاوى بلحيته المتناثرة وشعره المتدلي، وكان الوجه للوجه، والأذن للاذن، والحوار مشاعاً، ونكتة المازني موزعة على الجميع»[1]

ثم قال:

«وجاء إعلان صاحب الدعوة عن حضور شيطان الزهاوى، فاضطربت رجل الزهاوى النصف المقعدة، واهتز رأسه البديع أكثر من عادتهما، ومد يده السمراء الى جيبه فخرجت بيضاء ملتفة بالورق، ورن صوت الفيلسوف في الغرفة هاتفاً:

هتفت شباب الرافدين للكاتبين الأكبرين
هتفت ترحب فرحة بالفرقدين الطالعين
بالمازني وأسعد وهما عماد النهضتين[2]

«. . . وهنا شوهد الأستاذ الجواهرى شارد العينين الى السقف، غائبا عن المجلس بكله، فكانت علامة واضحة تنذر وتبشر، فالجواهرى اما عاصف ثائر، واما ملاطف مداعب. . . الخ»

---

(١) جريدة (البلاد) المصادرة يوم ٢٠ شباط ١٩٣٦

(٢) نشرت القصيدة كاملة في جريدة (البلاد)، العدد المشار اليه أعلاه.

وتبدأ قصيدة الجواهري التي ألقاها في هذه المناسبة بقوله :

رفائيل دارك قد أشرقت بأسعد داغر والمازني
بفذ يناضل عن أمة وفذ لآدابها حاضن

ثم يخاطب المازني قائلا :

نظرت لعينيك اذ يشردان ووجهك ذي الدعة الآمن
فأنكرت قولك ما صاغني قبيحا سوى عبث الماجن[1]
وطالعت آثارك الناطقات بما فيك من جوهر كامن
وظاهر لفظ رقيق الرداء لطيف يدل على الباطن[2]

وانتهت هذه الزيارة يوم ٢١ شباط ١٩٣٦ ، ومما يذكر أن الزهاوي توفي مساء الثالث والعشرين من الشهر نفسه ، أي بعد مغادرة المازني بيومين. ومن يدري ، فربما كانت قصيدته في

---

(١) اشارة الى قول المازني في صورته :

انظر الى وجهي الشتيم اللعين وأحمد على وجهك رب الفنون
احسب أن الله ما صاغني كذاك الا رغبة في المجون

(٢) أنظر نص القصيدة كاملا في جريدة (البلاد)، ٢١ شباط ١٩٣٦

الترحيب بالمازني آخر ما نظم[1].

وقد كتب المازني بعد عودته الى مصر سلسلة من المقالات عن العراق في جريدة (البلاغ) التي كان يحرر فيها[2].

أما الزيارة الثانية فكانت في سنة ١٩٣٩، وقد قدم المازني الى بغداد مع الوفد المصري لحضور الاحتفال بتأبين الملك غازي،

---

(١) نشرت جريدة (البلاد) في عددها الصادر يوم ٢٤ شباط ١٩٣٦ -والذي نشرت فيه نعي الزهاوي- قصيدة له يرثي فيها (محمود جلبي الشابندر)، كما نشرت مقالا بعنوان «الزهاوي في يومه الأخير» بقلم يونس بحري جاء فيه:

«. . . وقد فاجأنا الاستاذ بالأمس بأنه يشعر بألم في أعلى كتفه الأيمن وقال ربما يكون من كثرة اشتغاله بالكتابة ليلة أول الأمس لأنه كان منشغلاً بنظم قصيدة باسم (تحية مصر) ليقرأها في مصر أحد أعضاء الوفد الأهلي الذي سيزورها في أول الشهر القادم. وقد نظمها بتكليف من نائب الموصل الحرّ سعيد بك ثابت. بيد أن الأستاذ أخبرنا بأنه لم ينته من نظمها وهي لا زالت تحت (وسادته) لأنها (مخزن) قصائده التي لم يتمّ نظمها. . .». وعلى ذلك ربما تكون هذه القصيدة آخر ما نظم.

(٢) نقلت جريدة (البلاد) البغدادية بعض هذه المقالات: «العراق بقلم المازني» (١٩٣٦/٣/١) و«مصر المصريون في بغداد» (١٩٣٦/٣/١٢) و«توثيق الروابط بين الامم العربية - العرب كانوا أمة واحدة وسيبقون كذلك» (١٩٣٦/٣/١٥). لاحظ تعبير «الأمم العربية» الذي استعمله المازني وهو يقول ان العرب أمة واحدة.

ولكنـه لم يكن من خطبـاء حفلة التأبـين، واكتفى خلالهـا بكتـابة مقالة أو مقالتين في بعض الصحف العراقية. ولم تدم هذه الزيارة أكثـر من أربعـة أيـام، ولم يكن لها صدى كبير، لكثرة الوفود التي كانت في بغداد، وقصر اقامته فيها.

وأمـا الـزيارة الثالثة فقد قام بها في أواخر سنة ١٩٤٤، وكانت على قولـه: «أطـول من أختيهـا، وأوسـع نطاقاً، وأحفل بالمرئيّ والمسمـوع»، فقـد دامت سبعة أسابيع حافلة، زار المازني خلالها معـالم بغـداد والبصـرة، والمـواقـع الأثـرية والتاريخية، والكليات والمعـاهـد والجمعيات، وأقيمت لتكريمه حفلات كثيرة متتالية، وأحدثت هذه الزيارة في البلد حركة أدبية وأجتماعية.

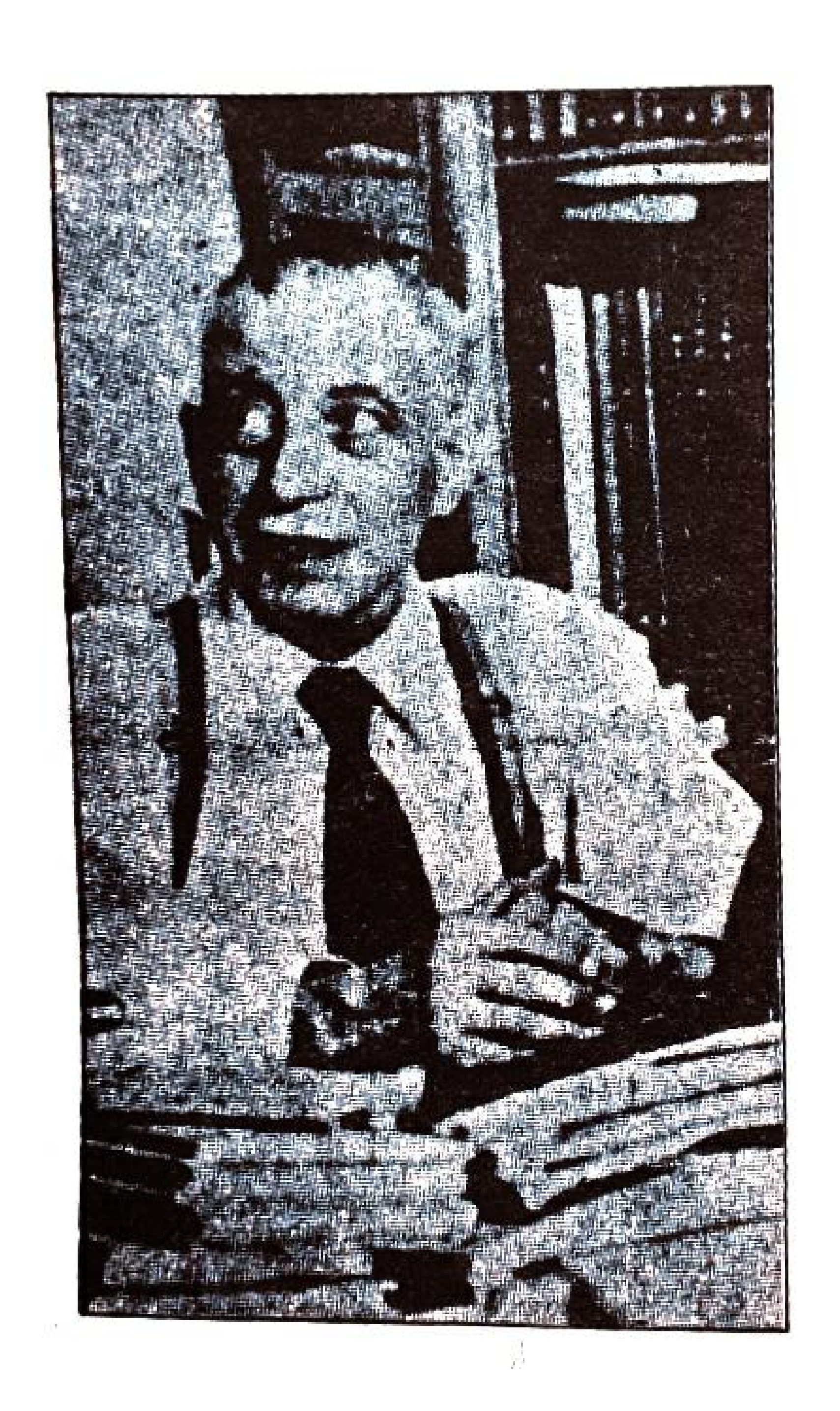
وكـانت الـزيـارة تلبيـة لدعـوة وجهتهـا اليـه «مديرية الدعاية العـامـة»، -وكـان مديـرهـا العام الأستاذ أحمد زكي الخياط رحمه الله- لألقـاء أحـاديث من محطـة اذاعـة بغـداد تهدف الى توجيه الشباب، ولتأليف كتاب عن «العراق الحديث».

وصـل المـازني بغـداد في ٢٩ تشـرين الثـاني ١٩٤٤ وأنزل في فندق «ريجنت بالاس» في شارع الرشيد، وكان أرقى فنادق بغداد في ذلـك الـوقت. وكنت في تلك الفـترة على صلة وثيقـة بدار

الاذاعـة، وسكـرتـيراً للجنـة فحص الأحاديث فيها، وعضوا في لجنة اصدار مجلتها «منبر الأثير»، فاتاحت لي تلك الصلة الفرصة للقـاء المازنيّ -ضيف الاذاعة- مرارًا، ومجالسته أياما، ومطارحته الحـديث في الأدب والسيـاسـة، والقـاء شتى الأسئلة عليه، عن حياته وعن آرائه في مختلف الموضوعات، وكنت من المعجبين بأدبه وقد قرأت كل كتبه وما نشر له في الصحافة المصرية.

وفي صباح يوم ٣ تشرين الثاني ١٩٤٤ استقبل رئيس الوزراء -حمـدي البـاجـه جي- المـازني في مكتبه بديوان مجلس الوزراء. واحتفى به «نادى القلم العراقي» مساء ١١ كانون الأول، فعقد اجتـماعـا خاصـا لتكـريمـه في دار أحـد أعضائه -الأستاذ توفيق وهبي- برئـاسـة رئيس النـادي الشيخ محمد رضا الشبيبي (رئيس مجلس النواب آنذاك). وقد افتتح الشبيبي الاجتماع بكلمة رحب فيهـا بالمـازني، ثم ألقى الأستاذ رفائيل بطي حديثا مستفيضا عن أثر المازني في الأدب العربيّ الحديث، وعن مواقفه شاعرا مجددا، وناقدا صارما، وكاتبا ذا أسلوب مبتكر في النثر الفني، واستعرض خلال حديثه الحركة الأدبية في مصر خلال السنوات الأربعين الأخيرة.

واهتمت الصحـافـة العـراقيـة اكبر الاهتمام بنشر أخبارالمازني



المـــازني

خلال اقامته في العراق، وتتبع زياراته ومحاضراته وأحاديثه الاذاعية. وكانت جريدة (البلاد) أكثر الصحف العراقية احتفالا لهذه الزيارة واهتماما بها، وذلك لأن صاحبها رفائيل بطي كان موزع الهوى بين الصحافة والأدب، وأكثر رجال الصحافة العراقية في ذلك الوقت عناية بالأدب وتتبعاً للحركات الأدبية في البلاد العربية. وقد نشر في جريدته بمناسبة هذه الزيارة مقالات ودراسات متعددة ومتنوعة، قصيرة وطويلة، عن المازني وأدبه، كان أولها مقال بعنوان « المازني وأدبه » بقلم (خالد الدرة)، ومنها مقال بعث به (عبد القادر البراك) من الحلة بعنوان « بين وداعة المازني وصرامة العقاد »، ومقالتان لـ (سعدى خليل) أولاهما بعنوان « المازني والعيون »، والثانية بعنوان « المازني والمعلمات ».

وطلب الأستاذ رفائيل بطي الى كاتب هذه السطور أن يكتب لجريدته مقالا أو بحثا عن المازني يتناول جانبا من أدبه أو حياته لم يطرق قبلا، فكتب دراسة على شيء من التفصيل عن شعر المازني، نشرت متسلسلة في تسعة أعداد من (البلاد) بعنوان «المازني شاعرا»[1]، وكانت أول دراسة تكتب في هذا الموضوع، وجاء في مقدمتها:

---

(١) نشرت في الأعداد الصادرة بين ٤ كانون الثاني و٩ شباط ١٩٤٥ من جريدة (البلاد).

«... وكان قدوم الأستاذ المازني الى بغداد مناسبة طيبة للكتابة عن أدبه والرجوع الى كتبه من جديد. على أن أدب المازني لا يعوزه تعريف ولا تذكير، فهو اليوم ملء الأبصار والأفكار.. والمكتبات. لذا رأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأكتب فصلا عن الشاعر ابراهيم عبد القادر المازني الذى جنى عليه وعلى شهرته الكاتب ابراهيم عبد القادر المازني».

وبعد سبعة أسابيع حافلة بالنشاط الأدبي والاجتماعي غادر الأستاذ المازني بغداد يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٤٥، وكتبت جريدة (البلاد) الصادرة في اليوم التالي هذا الخبر:

«غادر العراق بالطائرة أمس الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني الأديب الشهير بعد أن قضى في ربوع العراق مدة كان في خلالها موضع حفاوة رجال الفكر والأدب، كما أحدثت محاضراته بالراديو وخطبه وأحاديثه في الحفلات والحلقات الأدبية حركة أدبية وانتعاشا فكريا»

أما الكتاب الذى استكتبته «مديرية الد عاية العامة» الأستاذ المازني عن العراق فله قصة طريفة. فقد أنجز المازني كتابته أو كتابة معظمه، وباشر بطبعه في «مطبعة دار احياء الكتب العربية» بمصر، كما نشر فصولا منه في صورة مقالات متسلسلة في جريدة

(البلاغ) القاهرية. وبعد أن طبعت من الكتاب ملزمتان أو ثلاث ملزمات، توقف الطبع، وسُكت عن موضوع الكتاب. وقيل في حينه إن الملك السابق فاروق غضب على المازني لتأليفه كتاباً يمدح فيه العراق وحكومته في فترة لم تكن العلاقات خلالها بين الحكومتين على ما يرام. فقرر المازني عدم المضي في الطبع اتقاءً لغضب فاروق، وهكذا لم يقدر للكتاب أن يشهد النور. سمعت هذه الرواية في ذلك الوقت، ولم أتمكن من التوصل الى دليل يؤكدها أو ينفيها بصورة قاطعة. وقد استفسرت من الأستاذ أحمد زكي الخياط بعد ذلك بسنوات عن سبب توقف المازني عن طبع الكتاب، وصحة ما روى عن غضب فاروق على المازني، فأبدى أنه لم يسمع بذلك، وأنه لم يفهم بالضبط سبب توقف المازني عن إكمال طبع الكتاب.

ولديّ نسخة من مسودات هذا الكتاب، مكتوبة بالآلة الكاتبة، منقولة عن نسخة لصديق حصل عليها اما من المسودات الأصلية التي أرسلت الى «مديرية الدعاية العامة» أو جمعها من الفصول التي نشرت في جريدة (البلاغ)، أو من كلا المصدرين. وهي تقع في نحو ١٢٠ صفحة و ١٥ فصلا، وأحسب أنها تؤلف نصف الكتاب المزمع وضعه تقريبا.

وعنوان الكتاب: «العراق الحديث»، وهو وصف لسفر

المازني الأخيرة الى العراق، ومشاهداته فيه، كتبه بأسلوبه المعروف الذى يمزج فيه الجد بالهزل، وفيه أوصاف لبعض الشخصيات العراقية في ذلك العهد، وملاحظات وتعليقات وخواطر عنّت له خلال تلك الرحلة.

ولا أعرف مدى الخسارة التي مني بها الأدب العربي الحديث وقراء المازني المعجبون بعدم نشر هذا الكتاب. والواقع أنني على الرغم من اعجابي الكبير بالمرحوم المازني كاتباً خفيف الروح عميق النظرة متين اللغة فصيح العبارة يتمثل في أسلوبه ما يعرف بالسهل الممتنع في أجمل صوره - لم أجد في الكتاب جديدا. فالملاحظات فيه سطحية، والمشاهدات عابرة، والتأملات معادة من كتابات المازني ومقالاته السابقة، ونكاته هي نكات المازني

التي تجدها في سائر كتبه، وتحليله للحياة السياسية والاجتماعية في العراق ليس فيه عمق كبير ولا إصالة. وتكاد تشعر في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب أنه كتب تلبية لطلب، وسدادا لالتزام، ووفاء بوعد، وتجد فيه المازني وكأنه يجر قلمه جرا، ويحاول الاطالة والاستطراد بما يملأ به صفحة بعد أخرى مما له صلة بموضوع الكتاب، أو ما لا يمت اليه الاّ بسبب واه. وهذا دليل على أن «الاستكتاب» أسلوب فاشل، وأن الكاتب

اذا لم يختر موضوعه بنفسه، ويعبر عن حقيقة ما يدور في فكره ويخالج شعوره، فان كتابته تشف عما تحتها من تكلف، مهما كان الكاتب قديرا، متقناً لصناعته.

وقد ذكرني كتاب المازني هذا بمقالة كتبها عن نفسه في مجلة «الرسالة» - ردا على مقالة لتوفيق الحكيم تعرّض فيها لأدب المازني من الناحية الفنية - وكان مما قاله المازني:

« . . ولست بعد ذلك بأديب، وأنا رجل صناعته القلم، وقد قلت مرارا - وأكرر الآن - اني كالنجار الذى فتح دكانا عرض فيه بضاعة له مما صنع، فذاك رزقه يكسبه بهذه الوسيلة. وكهذا النجار تجد عندى الخشب الجيد المتين، والصنعة الدقيقة، والخشب الأبيض القشرة والصقل المغني عن النفاسة حسب الطلب، وتبعا لحالة السوق، ومبلغ استعداد الزباين للبذل. . . فليكفني الأستاذ شر هذه الفلسفات. . . »[1]

ان كتاب «العراق الحديث» وان لم يكن من أجود أصناف البضاعة المعروضة في «دكان» المازني، فانه مع ذلك حافل بمحبة

---

(١) مجلة «الرسالة»، العدد ٣٠٤، السنة السابعة، القاهرة، أول مايو ١٩٣٩، ص ٨٦٨، مقال بعنوان «المرأة في حياة الأديب».

العراق والاشادة بكرم العراقيين، والامتنان للحفاوة التي قوبل بها المازني أينما حل بينهم. وعلى الرغم مما ذكرناه عن الكتاب - وهو رأى شخصي بحت - عسى أن يتاح له أن ينشر في يوم من الأيام. ففاروق وأضراب فاروق يأتون ويذهبون، وتختفي أسماؤهم فلا تكاد تذكر إلاّ مقرونة بالازدراء والمهانة، ويبقى المازني وأدبه خالدا متألقا. والتاريخ هو الحكم النهائي الذى يميز - طال الزمن أم قصر - بين الزبد الذى يذهب جفاء، وبين ما يبقى في الأرض مما ينفع الناس.

واجب المترجم ومسؤوليته

مع الدكتور سندرسن والأستاذ سليم طه التكريتي
في كتاب "عشرة آلاف ليلة وليلة"

حينما صدر كتاب الدكتور سندرسن عن ذكرياته خلال الـ «عشرة آلاف ليلة وليلة» التي قضاها في العراق، كنت في انكلترة، فبادرت الى اقتنائه وقراءته، وعنّت لي ملاحظات رأيت أن أبديها لمؤلفه، فكتبت اليه كتابا ضمنته تلك الملاحظات مع عبارات التهنئة والمجاملة المعتادة.

وما لبثت أن تلقيت مكالمة هاتفية من الدكتور سندرسن يشكرني فيها على كتابي ويدعوني الى تناول الشاى معه في منزله في إحدى المدن القريبة من لندن.

فقبلت الدعوة. ولما وصلت الى المدينة التي يقيم فيها وجدت سيارته وسائقها بانتظاري في المحطة، لايصالي الى منزله. ولما

دخلت حديقة الدار وجدت فيها بِركة، وفي وسطها «قفّة» عراقية صغيرة، فوقفت أتأملها مبتسما، فلما رآني سندرسن الذى خرج لاستقبالي، ورأى تعجبي لمشاهدةَ هذه القفّة العراقية في قرية بريطانية، قال لي إنه شحن هذه القفة التي أوصى بصنعها خصيصا بهذا الحجم الصغير لأن منظر القفاف في دجلة كان من أجمل ما يروق له، ولذلك جلب هذه لتُذكّره بأيامه السعيدة في العراق.

وقد وجدت الدكتور سندرسن «باشا» رجلا متهدما في الثالثة والثمانين من عمره، وقد أنحنت قامته الطويلة، وكان يترنح في مشيته، وعلى عينيه نظارتان سميكتان. وعادت بي الذاكرة الى «سندرسن باشا» الذى كانت الأرض تكاد تهتز تحت قدميه، وهو يصول ويجول في الكلية الطبية التي كان عميدها في أوائل الأربعينات، وكنت أراه حينما أذهب لرؤ ية بعض أصدقائي من طلابها.

وحدثني سندرسن عن ظروف وضعه الكتاب، فقال إنه بعد أن توفيت زوجته شعر بفراغ عظيم، وهو لم يرزق بولد، وليس له قريب أو نسيب. وكانت لديه خادمة عجوز تعنى بأمره حملت الينا الشاى. وكان لايستطيع الخروج من الدار كثيرا، ويحاول أن

يعمـل في تنظيم حديقتـه قليلا فلا يلبث أن يعيا. ولذلك فكر في كتـابـة مذكـراتـه عن العـراق، يزجي بها فراغه الهائل، ويستعيد ذكريات أيامه الماضيات، فكان هذا الكتاب.

قلت له إن كتـابـه وان لقي رواجـاً جيـداً في انكلترة، فانـه شخصيـا معـروف في العراق أكثر من وطنه، لطول إقامته وعمله فيـه. ولـذلـك أقترح أن يترجم الكتاب الى اللغة العربية، لأن سوقـه الحقيقي هو العـراق. فاتفق معي في ذلـك وقال إن إحدى دور النشـر اللبنـانية اتصلت به تستأذنه في ترجمته، وانها تتفاوض في الأمر مع ناشريه.

ولم أره بعـد ذلـك، وبعـد سنـة واحدة تقريبا من ذلك اللقاء قرأت نعي الدكتور سندرسن في صحيفة «التايمس» اللندنية.

ولـذلـك سرّني كثـيرا أن ينهض أخي وصديقي الأستاذ سليم طه التكـريتي بترجمـة الكتـاب وأن يصـدره بالحلة القشيبـة التي صدر بها. وقـد لقي الكتـاب من الـرواج ما يستحقه، وكُتب عنه من النقـد والتعـريف ما يدل على أهميتـه، وان كانت موضوعات الفـترة الطـويلة التي يغطيها الكتاب من حياة المؤلف ومن تاريخ العـراق الاجتـماعي والسيـاسي، تحتمـل ما لا نهايـة له من

التعقيبات والملاحظات.

وأعترف أنني لم أقرأ الترجمة كلها، لأنني سبق أن قرأت الكتاب بكل دقة في حينه، وانما قرأت فصولا ومقاطع من هنا وهناك، ودفعني حب الاستطلاع الى مقارنتها بالأصل أحيانا. وليس غرضي الآن مناقشة دقة الترجمة وأمانتها (وان كنت أعتقد أنها تفتقر، بعض الشي، الى هاتين الصفتين) ولكنني أود الوقوف عند عبارة وردت في المقدمة القصيرة التي كتبها المترجم الفاضل للكتاب، وهي قوله:

«... وقد توخينا في عملنا أن نبرز ما له علاقة وثيقة من هذه المذكرات بأوضاع العراق، وأن نتجاوز بعض الفقرات الخاصة منها بما تحدث فيه سندرسن عن حياته الخاصة، وذلك بالشكل الذى لم يؤثر في مذكراته، أو ينتقص من أهميتها... الخ.»

فهذه العبارة خطيرة جدا، ولست أدرى هل قدر الكاتب الفاضل خطورتها، أم جرى بها قلمه ببساطة ودون تردد كبير.

اذ لاشك أن القارىء العربي المثقف الذى لايقرأ بالانكليزية، أو الذى لم يحصل على نسخة من الأصل، سيشعر

لدى قراءة هذه العبارة - أنه كانت في الكتاب أمور أخرى هو محروم من الاطلاع عليها، اذ لم يسمح له المترجم بقراءتها، مهما كانت هذه الأمور تافهة أو مهمة، وسيجد نفسه في موقف أو مرتبة دون القارىء الذى قرأها أو سيقرؤها في أصلها الانكليزى، وسيظل حب الاستطلاع الفكرى والثقافي لديه يحز في نفسه: ترى ماذا حذف المترجم وماذا أبقى؟ وهل هنالك في ما حذفه أمر كان يهمه الاطلاع عليه، أو الانتفاع منه في بحث، أو ينير له جانبا يرغب في معرفته؟؟

وليس المهم أن يكون المحذوف خطيرا أو تافها ولكن المهم هو المبدأ، وكون المترجم يضع القارىء العربي، عامدا أو غير عامد، في مستوى دون القارىء الأجنبي، ولا يتيح له فرصة متساوية معه. هذه «عادة» آن للمترجم العربي أن يقلع عنها.

ان من أهم الصفات التي توصف بها لغة من اللغات بأنها «لغة حية» هي قدرة أبنائها على الاكتفاء بها في دراستهم وثقافتهم وما يطمحون اليه من الاطلاع على كل ما يصدر في مجال الفكر العالمي بلا حدود. فالشخص الألماني - مثلا - يستطيع أن يكتفي بلغته في مواكبة سير الثقافة والعلوم، وكذلك الفرنسي مثلا. فاذا صدر كتاب علمي أو أدبي أو فلسفي مهم

بأيـة لغـة من اللغات ، فلا تمضي شهور قلائل ، وأحيانا أسابيع ، إلاّ وتصدر له ترجمة أمينة ، دقيقة ، كاملة ، بتينك اللغتين وغيرهما من اللغات الحية .

ولا شك أن اللغة العربية التي ينطق بها حوالي ١٥٠ مليونا من النـاس (ويـزيـد عددهم عن عدد النـاطقـين بكثـير من اللغات الأخرى) أصبحت اليوم من اللغات الحية ، أو لابد لها أن تكون كذلـك في وقت قريب مع تطـور الثقـافة والفكر في البلاد العربية وانفتاحها على الثقـافـات الأخرى . ونحن نسعى الى تعريب نتاج الفكـر العـالمي كله ليكون في متناول القارىء العربي الذى يرتفـع مستـواه الفكـرى والثقـافي جيـلا بعـد جيـل ، وبسـرعـة متصـاعـدة . بل اننا نعمل على تعريب تدريس العلوم والفنون ، والطب والهندسة ، لكي تستعيد هذه اللغة مكانتها السابقة رائدة في الفكر العالمي ، وهي اللغة التي حفظت ترجماتها أمهات الكتب الفكـريـة والفلسفيـة الغـربيـة من الضيـاع ، تلك الكتب التي ضاعت أصـولهـا أو أحرقت في عصور الجهل والظلام في الغرب ، ولم يستعدها الغربيون الا عن طريق الترجمات العربية .

أن القارىء العربي قد بلغ نضجه الفكرى ، ورشده العقلي ، ولم تعد به حاجة الى أن يقوم هذا المترجم أو ذاك فيعين نفسه رقيبا

عليه، ويختار له ما يجب أن يطلع عليه، ويمنع عنه ما لايراه (هو) مهما أو نافعا.

ان الجسم المريض هو الذى تفرض عليه الحِمية، وتحدد له ما يستطيع أن يأكله، وما يجب أن يجتنبه. أما الجسم الصحيح، والمعدة السليمة، فهي التي تتقبل كل غذاء، وتهضم كل طعام، فتنتفع بما هو مفيد، وتكون قادرة ذاتياً على أن تلفظ ما لا فائدة فيه. وكذلك القارىء السليم المعافى يكون قادرا على قراءة كل شيء، وعلى الاستفادة من كل ما يقرأ، ونبذ ما لايرى فيه نفعا.

هذا من حيث المبدأ. أما من الناحية العملية، فان (التجاوز) لم يقتصر مع الأسف على ما تحدث فيه سندرسن عن حياته الخاصة، فهنالك فقرات كثيرة محذوفة، بل صفحات كاملة لاعلاقة لها بحياة سندرسن الخاصة، وانما هي تتعلق بصميم تاريخ العراق وحالته الاجتماعية والسياسية، وأذكر على سبيل المثال - لا الحصر - ما جاء في الصفحات ٣٥ الى ٣٧ و ٧١ الى ٧٧ والصفحة ٨٣ من الأصل الانكليزى. كما أن الفصل الأخير، وهو خاتمة الكتاب، محذوف بأكمله، وهو يتعلق بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ مستعرضا تاريخ العراق السياسي، من وجهة نظر المؤلف طبعا. وكان من الواجب، على الأقل، أن ينبه

المترجم الى ذلك. فالمترجم اذا حذف منبها الى ما حذف فتلك مصيبة، أما اذا حذف ولم ينبه، فالمصيبة أعظم.

وهنالك أيضا تلك التعليقات والهوامش التي يُثقِل بها المترجمون متن الكتاب، وانني شخصيا - وهذا رأيي المتواضع - لاأرى من الضروري الاكثار منها، وقطع سلسلة أفكار القارىء بين لحظة وأخرى كلما خطرت ببال المترجم ملاحظة أوعنت له فكرة. فليس هذا من واجب المترجم. واننا نشاهد أمهات الكتب المترجمة من لغة أوربية الى أخرى، وليس فيها هامش واحد للمترجم، ولا نراه يقحم نفسه وآراءه على المؤلف. فما على المترجم الآ النقل الأمين والبلاغ المبين. أما التعليق على مادة الكتاب ومناقشته فهذا من واجب الباحثين والمعلقين وعارضي الكتب، وله مجال غير الهوامش. ولقد يقدم المترجم الكتاب بمقدمة يبدي فيها أسباب أختياره الكتاب، ويعرف القاريء بالمؤلف، ولا بأس في أن يبدي في هذه المقدمة (التي هي أيضا ليست ضرورية جدا) مالديه من آراء وملاحظات وتعليقات، ثم يفسح المجال للمؤلف، محتفظا بمكانه وراء الستار، الآ عند الضرورة القصوى وفي حالات نادرة يجب الاقلال منها بقدر المستطاع.

وأذكـر أنني قرأت منـذ سنـوات عديدة في ترجمة للمرحوم فؤاد جميل وصفاً لكاتب أو سائح أجنبي لجسر في احدى مدن العراق، ولعلها الحلة، في العهد العثماني أو في أوائل العهد الملكي. ويقول المـؤلف إنـه عبر النهـر على جسر من القوارب العائمة المتأرجحة المربوط بعضها ببعض. فلا يلبث المترجم أن ينبري في الهامش قائلا:

«هـذا في العهد العثمانيّ الغابر (أو في العهد الملكي المباد). أما الآن فهنالك جسران حديدان عصريان أقامتهما حكومة الثورة في العهـد الجمهـوري الـزاهـر..» أو كلاماً هذا فحواه ولا أذكر نصـه. وكـان الكتـاب زاخـراً بأمثـال هذا الهامش الذي أجد فيه إهـانـة للقـاريء العـربيّ ما بعـدهـا إهـانـة، واستهـانة بذكائه وتقديره. فهو يضعه في مستوى التلميذ الصغير أو الأميّ الساذج الذي لايعلم أن العهد الجمهوري غير العهد العثماني أو الملكيّ، وأن ثروات الشعب في عهـد الثـورة تعـود لأصحـابهـا وتنفق في خيرهم ورفاههم، ولم تعد تتسرب الى حيث كانت تتسرب اليه في ظلّ النفوذ الأجنبيّ. والقاريء العربي اليوم قد ارتفع مستواه وأصبح يدرك هذه الأمـور البدهية التي تزدحم بها هوامش بعض الكتب المـترجمـة إظهاراً «لوطنية» المترجم و«غيرته». فالكتاب يُقـرأ مقـرونـاً بعصـره وبمؤلفه وجنسية ذلك المؤلف وأغراضه

الخفية والظاهرة، ولا حاجة الى تنبيهه الى ذلك في كل جملة وفي كل صفحة.

ان القاريء العربي اليوم بخير وصحة. وقد أصبح بمستوى يستطيع أن يميز فيه ما هو مفيد له وما هو مدسوس أو ضار من غذاء فكريّ. فلنضع أمامه الطعام على المائدة بكل أصنافه، ثم نتركه حرًا في اختيار ماينفعه أو يروق له، دون «حمية» وجدت للمرضى والاطفال وحدهم.

مع تحياتي لأخي الأستاذ سليم طه التكريتي، وتقديري لجهوده، راجيا أن لا يحمل هذه الملاحظات العابرة الآ على محمل المودة والحرص على مانسعى اليه جميعا من خدمة القاريء العربي، تلك الخدمة التي يسهم فيها مساهمة أصيلة، ويبذل في سبيلها جهودا مشكورة.[1]

---

(١) أرسلت هذه المقالة الى (ألف باء) من لندن، وبعد نشرها بشهور قلائل حمل اليَّ البريد نسخة من الطبعة الثانية من ترجمة كتاب الدكتور سندرسن، مع كتاب رقيق من الأستاذ سليم طه التكريتي يشكرني فيه على ملاحظاتي، ويخبرني انه أخذ بمعظمها، وأضاف الى الكتاب ما سبق أن حذف منه. وكانت هذه البادرة منه مثالا رائعاً للخلق العلميّ، والنظرة الموضوعية التي لم تحمل النقد الآ على محمل القصد الذي كان يهدف اليه، وحسن النية التي كتب بها، ودون أي تفكير في تفسيره كمساس بشخصه الكريم. فتحية أخرى وشكراً أرى من الواجب تسجيله للاستاذ سليم طه التكريتي.

ذكريات عن الحركة الكشافية في العراق

شاهدت وأنا أمرّ أمام احدى مدارسنا الابتدائية مجموعة من الأطفال في عمر الزهور بملابس (الطلائع) الجميلة، وهم يسيرون مزهوّين بزيهم الجديد، وبالمنظمة التي ينتمون اليها. تلك المنظمة التي تغرس في نفوسهم، منذ نعومة اظفارهم، روح النظام والطاعة ونجدة المواطن، وفوق كل شيء حب الوطن والاخلاص له والذود عنه بسواعدهم الفتية.

وكانت رؤية هذه البراعم الندية، وهي عماد المستقبل وأمله الباسم، مبعث خواطر وذكريات عزيزة عادت بي الى أيام الدراسة الأولى حين كان نظام (الكشافة) الشبيه بالطلائع هو النظام الذي عرفته المدارس العراقية منذ أوائل هذا القرن، والى

ملابس الكشافة التي كنا نخطر بها مزهوين في شوارع بغداد وأزقتها. وقد يكون من المفيد والطريف معا تقديم نبذة تاريخية عن نظام (الكشافة) الذي ابتعد العهد به، ولم يعد يتذكره الآ قلة من الناس.

و (الكشافة) نظام شبه عسكري للفتيان والفتيات يهدف الى غرس روح النظام والطاعة، والتعود على خشونة العيش، ومساعدة الغير، والاعتماد على النفس، ونجدة الضعيف والعاجز، وحب الوطن والدفاع عن حياضه، أسسه رجل انكليزي أسمه «السر روبرت بادن - باول»، وكان قائدا عسكريا في جنوب افريقية خلال حرب (البوير) عام ١٩٠٠ على رأس الجيوش المرابطة في مدينة (مفكنج) والمدافعة عنها.

ولما رأى «بادن - باول» بسالة البوير المهاجمين، واشتراك نسائهم وأطفالهم في الحرب متعاونين متعاضدين، انتبه الى حالتهم، وقدّر الفائدة التي تعود على الجيش من خدمات الأحداث والنساء وتعاونهم. وهناك فكر في تمرين الشبان منذ صغرهم على أعمال الجنود وتعويدهم على المشاق والحياة الخشنة. ثم قارن بين سكان المدن وحياتهم الناعمة وبين البدو الذين تعودوا على المعيشة البسيطة، ولاحظ الفرق في نشاط كل

منهما وقوته البدنية، فولدت في ذهنه فكرة تأسيس نظام خاص للأحداث (ولاسيما من أحداث المدن) لتعويدهم على المعيشة البسيطة، والقيام بالأعمال البدنية، مقدرا الفوائد التربوية التي سيحصل عليها شبان البلاد المتحضرة لو مارسوا ما يسمى بالحياة الفطرية والبداوة من وقت لآخر.

وفي الوقت نفسه كانت حامية المدينة لا تزيد عن ألف رجل، ثلاثمائة منهم يعملون وراء خطوط الدفاع. فألف «بادن - باول» في الحال فرقاً من الأحداث وأودع اليهم واجبات الجنود العاملين وراء الخطوط تنفيذا لفكرته، وأضاف الجنود الى القوات المحاربة. واعتاد أولئك الأحداث في وقت قصير على الأعمال المودعة اليهم فقاموا بها خير قيام، فقوّى ذلك فكرة وضع مبادىء (الكشافة) عند «بادن - باول»، فوضع الأنظمة والقوانين الخاصة بالكشافة، ورتبها الترتيب الذي نشاهده الآن في كثير من أقطار العالم.

وقد انتشرت مبادىء الكشافة في العالم خلال عشرين سنة تقريبا، بسرعة لم يسبق لأية حركة أن انتشرت بها. فتألفت جمعيات خاصة للكشافة يرأس بعضها الملوك والأمراء وأعاظم الرجال، وأنخرط فيها طلبة المدارس وألوف الشبان من مختلف

مجالات الحياة .

وفي سنة ١٩١٠ استقال «بادن - باول» من الجيش ليكون رئيسا للكشافة في عموم بريطانية .

أما في العراق فيعود ابتداء حركة (الكشافة) الى أواخر عهد الدولة العثمانية التي كانت قد أدخلت هذا النظام على مدارسها اقتداء بحلفائها الألمان ، وأودعت أمرها الى ضابط من الجيش التركي ، تحت اشراف كولونيل الماني يدعى «فون هوف» . وأول فرقة كشافية في العراق كانت فرقة «المدرسة السلطانية» ببغداد، وقد تشكلت في عام ١٩١٥ ، الاّ أنها أهملت واختفت خلال الحرب العالمية الأولى دون أن يكون لها أثر كبير .

وبعد الاحتلال البريطاني تولي شؤون المعارف (التربية) في العراق بريطاني اسمه «غاربت»، وكان بنفس الوقت «ناظراً للمالية»

وفي سنة ١٩١٨ دعا «غاربت» مديري المدارس الرسمية والأهلية في بغداد وفاتحهم في موضوع تشكيل فرق الكشافة في مدارس العراق ، ثم عهد الى بعض أفراد الجيش البريطاني ممن

سبق لهم العمل في منظمات الكشافة، بتشكيل بعض الفرق في العاصمة بمساعدة بعض المعلمين الوطنيين، فتشكلت فرق كشافية منتظمة في مدارس البارودية والحيدرية والفضل وباب الشيخ والكرخ ورأس القرية والكلدان الأهلية، وارتبطت كشافة العراق بمقَر الكشاف البريطاني لما وراء البحار في لندن.

وخَلَف «غاربت» في ادارة (المعارف) بريطاني آخر هو «الميجر بومان» الذي استُقدم من مصر، وكان يعمل في (وزارة المعارف) المصرية منذ سنوات عديدة (وله كتاب بعنوان «نافذة على الشرق الأوسط» يتضمن مذكراته في فلسطين ومصر والعراق). وواصل «بومان» ما بدأه سلفه من نشر نظام الكشافة. وفي سنة ١٩١٩ دعا بعض أعيان البلد ووجوهه، وكلفهم بتشكيل جمعية لمساعدة الكشاف العراقي، فعقد الحاضرون اجتماعا وانتخبوا هيئة إدارية مؤلفة من السادة: ابراهيم الراوي، وفخر الدين آل جميل (رئيس مجلس النواب فيما بعد) وعبد الجبار خياط (الوزير بلا وزارة، ثم مدير الزراعة العام فيما بعد)، وداود فتّو، وكريكور اسكندريان. كما انتّخب «الميجر بومان» رئيساً فخرياً للجمعية، فعقدت بضعة اجتماعات، وسعت في جمع التبرعات لنظام الكشافة. ولكن هذه الجمعية لم يطل عمرها، بل تفرقت بعد مدة قصيرة.

وبعد تشكيل الحكم الأهلي في العراق تولى إدارة (المعارف) الأستاذ ساطع الحصرى، فأعاد تنظيم التعليم في العراق على أسس جديدة تقوم على المبادىء التربوية الحديثة من جهة، وتوجيه الناشئة توجيها وطنيا وقوميا من جهة أخرى، وكان بين الأمور التي أولاها عنايته نظام الكشافة. وهويروي في مذكراته أن ضعف الحركة الكشافية كان من جملة الأمور التي استوقفت نظره منذ زيارته الأولى للمدارس، كما يذكر بعض الصعوبات التي واجهها في نشر الحركة وتقويتها بسبب بعض الانطباعات المغلوطة التي انتشرت عن الحركة وأصولها. وفي هذا السبيل قرر:

(أ) الاسراع في تكوين «جمعية الكشافة العراقية» وفصلها عن الكشافة البريطانية، مع اتخاذ شارة خاصة بها، كما تفعل سائر دول العالم.

(ب) القيام بدعاية حكيمة للكشافة عن طريق بيان الفوائد المتوخاة منها، والبرهنة على أنها لم تكن غريبة عنا وعن تأريخنا.

وقد تمّ تشكيل «جمعية الكشافة العراقية» تحت رعاية الملك فيصل الأول، كما أصبح الأستاذ الحصرى سكرتيراً فخرياً لها، وجعلها جمعية عراقية مستقلة عن «مقّر الكشافة البريطاني»، وقرر لها شارة خاصة مكونة من سعف النخيل، رمزاً لهذه الشجرة التي يُعّد العراق أغنى بلاد العالم بها. كما أسس في (وزارة المعارف)

مديرية سميت «مديرية التربية البدنية والكشافة»، وعين المرحوم جميل الراوي مفتشا للكشافة في مدارس العراق. ودشن الحصري الدعاية للكشافة بنفسه بمحادثة المديرين والمعلمين في تاريخ الكشافة وأغراضها الأساسية طالبا اليهم أن يبذلوا أقصى مايستطيعون من جهود للدعاية للكشافة وأغراضها، وتنظيم أمورها، مع توسيع نطاقها وزيادة عدد منتسبيها. ثم رأى أن يخرج بهذه الدعاية من ميدان المدارس الى ميدان الرأي العام، وأوعز بتنظيم بعض الحفلات في إحدى دور السينما لمنفعة «جمعية الكشافة العراقية» تلقى فيها الخطب والأناشيد، مع تمثيل بعض الفصول المسرحية، يحوم بعضها حول الأعمال الكشفية. وكانت أمثال هذه الحفلات بادرة جديدة في المجتمع العراقي يومذاك.

واتخذت إحدى الساحات الخالية القريبة من (البلاط الملكي) لأغراض الألعاب الرياضية والكشافة، وسميت (ساحة الكشافة). وقد أمكن تنظيم تلك الساحة وتسويرها وانشاء المدرج فيها من الموارد الخاصة التي عادة بها تلك الحفلات، وكذلك من ريع الدفاتر المدرسية التي تمّ استيرادها وبيعها، وصارت تعرف بـ (دفاتر الكشافة).[1]

---

(١) أنظر تفاصيل ذلك في: ساطع الحصري «مذكرتي في العراق» - الجزء الأول. بيروت ١٩٦٧، ص ٢٣١ - ٢٣٧

وكان المرحوم جميل الراوي قد انتدب قبل ذلك لنشر فكرة الكشافة وتشجيعها في الألوية (المحافظات)، فقام بتأسيس فرق كشافية في الموصل وكركوك والبصرة والعمارة والناصرية، وبلغ مجموع فرق الكشافة العراقية (٦٢) فرقة، وانتشرت الحركة في المدارس انتشاراً واسعاً، وبلغ عدد المنتمين اليها بين سنتي ١٩٣٠ - ١٩٣١ حوالي اثني عشر ألف كشاف، وهو عدد كبير بالنسبة الى عدد طلاب المدارس في العراق في تلك السنوات.

وتبنت «جمعية الكشاف العراقي» نشيداً خاصاً نظمه ولحنّه المرحوم يحيى اللبابيدي، وما تزال ألحانه ترنّ في أذني لكثرة ماكان يُنشَد في المدارس في الثلاثينات، ويتردد على لسان كل تلميذ في المدارس والشوارع والبيوت. وهو يبدأ بالبيتين الآتيين:

خير ركن للوطن	نحن كشافو العراق
لا نبالي بالاحن	تحت ظلّ الحق نمشي

وقد شجع انتشار حركة الكشافة في العراق ومالقيته من دعم وتشجيع، على اصدار مجلة ثقافية مدرسية اسمها (الكشاف العراقي)، وكان مدير شؤونها المرحوم (المحامي) محمود نديم اسماعيل (الذي كان في ذلك الوقت مدرساً في دار المعلمين). وقد صدر العدد الأول من هذه المجلة في حزيران سنة ١٩٢٤،

وتوجد مجموعة منها في (المكتبة الوطنية) ببغداد، وآخر أعدادها الموجودة هو العدد الصادر في شباط سنة ١٩٢٧، وكانت تصدر مرتين في الشهر، وثمن النسخة الواحدة منها (٤) آنات، أي حوالي (١٦) فلسا. وقد وصفت المجلة نفسها بأنها «مجلة علمية أدبية تهذيبية تحتوي على كل مايهم الكشاف معرفته من المواد العلمية والعملية»، كما وصفت غايتها بأنها: «نشر حركة الكشافة ومساعدة نهضتها في العراق»، وكانت ادارتها في (دار المعلمين) ببغداد.

ويظهر من تصفح أعداد هذه المجلة، وهي نادرة جدا، أنها تحتوي على مقالات قصيرة عن حركات الكشافة في العالم وفي العراق، ومعلومات عن المخيمات الكشافية التي تقيمها المدارس المختلفة، والرحلات التي تقوم بها بعض الفرق الكشافية داخل العراق وخارجه. فقد قامت بعض الفرق برخلات الى سورية وفلسطين ومصر. وفي المجلة عدد من القصائد الوطنية، بينها قصيدة عنوانها (سوانح كشاف) لشاعر شاب اسمة (مصطفى جواد الديلتاوي - العريف البحري الجوال سابقا بدار المعلمين) وهو الدكتور مصطفى جواد اللغوي والمؤ رخ المعروف فيما بعد، ومن أبياتها:

أمن السعـادة أن أكون جمادا   وأروم من هذي الحيـاة رقـادا؟
لا، ماخلقت لأن أكون مقيدا   والى أحـافـير الـردى منقـادا

ومنهـا:
سميت كشـافـا واني مصلح   نقص الحيـاة، ونـاشـر ارشادا
روحي تعوّدت اللطافة والعلى   وعـليّ ربي بالفضيلة جادا[1]

وقد استمرت حركة الكشافة نشيطة حتى أواسط الثلاثينات، وفي سنة ١٩٣٤ عقد في بغداد اجتماع كشافي عام للمناداة بالملك غازي حاميـا للكشافة العراقية، وأقيم لهذه الغاية مخيم كشافي في ساحة الكشافة، وبهذه المناسبة وضع العقيد المتقاعد محمود لطفي (ضابط كشافة "الفضل" في ذلك الوقت) مسرحية مدرسية عنوانها (الكشاف) مصدرة بمقدمة للمرحوم عبد الكريم عسيران، مدير التربية البدنية. وقد ألحق الكتاب بمجموعة من الأناشيد المقررة للاستعراض[2].

(١) مجلة «الكشـاف العـراقي»، العـدد السـادس، المجلد الأول، الصادر في تشرين الثاني ١٩٢٤

(٢) طبعت في مطبعة النجاح، بغداد سنة ١٩٣٤

محمود لطفي
ضابط كشافة فرقة الفضل



رواية كشافية تمثيلية

وضعت بمناسبة افتتاح الاجتماع الكشافي العراقي الاول

للمناداة بجلالة الملك غازي الاول

حامياً للكشافة العراقيه

٦ ذي الحجة ١٣٥٢ ، ٢١ آذار ١٩٣٤

مصدرة بمقدمة للاستاذ عبد الكريم عسيران

مدير التربية البدنية

ومنتهية بالاناشيد المقررة للاستعراض

وفي سنة ١٩٣٦ أدخل (نظام الفتوة) الذي وضعه الدكتور سامي شوكت، وكان مديراً عاماً فوزيراً للمعارف، وحلّ محل نظام الكشافة في المدارس الثانوية والمتوسطة، أما المدارس الابتدائية فقد بقي نظام الكشافة معمولا به فيها، ولكن الحماسة للحركة خفت، والاهتمام بها ضعف تدريجيا، حتى اختفى النظام، ثم ظهر في عهد الثورة نظام (الطلائع) في صورة جديدة، وروح جديدة، وأهداف تناسب المرحلة الوطنية والقومية الراهنة.

وتحية، بهذه المناسبة، الى (الطلائع) وفتيانه الاشاوس، أمل البلاد الباسم وعماد المستقبل.

ذكريات عن "نظام الفتوة"

كانت الحركة الكشافية في العراق نشيطة، وبقيت كذلك حتى أواسط الثلاثينات حين ظهر الى الوجود (نظام الفتوة). وصاحب فكرة هذا النظام هو الدكتور سامي شوكت الذي كان مديرا عاما، فوزيرا، للمعارف. وقد طبق نظام الفتوة في بداية عهده على المدارس المتوسطة والثانوية ودور المعلمين فقط، دون الابتدائية، ولكنه شملها جميعا فيما بعد.

وكان الفرق الرئيسي بين نظامي «الكشافة» و«الفتوة» هو أن منتسبي الكشافة لم يكونوا يتدربون على استعمال السلاح، بل كان كل ما يحمله «الكشاف» هو خنجر يستعمله في قطع الأغصان والحبال وما أشبه، أكثر من استعماله بصفة سلاح. أما

«الفتــوة» فكــانت نظــامـا يهدف الى تدريب النـاشئـة تدريبـا عسكريا، بما في ذلك استعمال السلاح.

وكـانت فكـرة التـدريب العسكـري في المدارس قد بدأت في (الثانوية المركزية) ببغداد عام ١٩٣٢ - ١٩٣٣ على أثر مادعت اليـه بعض الصحف من فائـدة تدريب الشبـان على التـمارين العسكـريـة وعلى استعـمال السـلاح أسـوة بحـركـات الشباب الأخـرى التي كانت تنتشـر في بعض الأقطـار الشرقية والغربية، وخاصة في ايطاليا والمانيا وبلغاريا والهند ومصر.

وقـد شجعت (وزارة المعارف) يومئـذ هذا الشعور الذي أبداه طلاب الثـانـويـة المـركزية، وأخذت تفاوض وزارة الدفاع في أمر تدريب الطلاب على استعمال السلاح. وجاء التشجيع كبيراً من هذه الوزارة التي زودت الطلاب بالألبسة العسكرية والتجهيزات والسـلاح، كما أنهـا انتـدبت عدداً من الضبـاط للاشـراف على التـدريب. وأكمل طلاب الثانوية المركزية، مع مدرسيهم الذين شاركـوهم في التـدريب، دورتي المشاة والفروسية، وحققوا نتائج مرضية. وعاد هذا التدريب بفوائد كبيرة على الطلاب، وخاصة أولئك الذين انتموا الى الكلية العسكرية منهم فيما بعد.

وفي تلك السنة نفسها أبدى طلاب «ثانوية البصرة» رغبة في التـدريب، أسوة بزملائهم في بغـداد، فاستجـابت الحكـومـة لرغبتهم أيضا، وجرى تدريبهم تحت ارشاد ضباط المنطقة الجنوبية.

وتـوقفت هذه الحـركـة خلال سنـة ١٩٣٤ إذ عدّهـا البعض خروجا على التقاليد المدرسية والعادات المألوفة، وأخذوا يقاومونها. (١)

وصـادف أن تأسست في بغـداد في تلك السنـة «جمعية الجوال العـربي» من عدد من الأساتذة في الثانوية المركزية ودار المعلمين الابتـدائيـة، وبعض المـدارس الابتـدائيـة، وخـاصـة «المدرسة المأمونية» التي كانت قد أصبحت مدرسةً لتطبيقات دار المعلمين الابتدائية. فشجعت وزارة الدفاع هذه الجمعية، ولبت رغبتها في التـدرب على استعـمال السـلاح، وسـاعدتها بالضباط والسلاح والعتـاد. وتمّ تدريب عدد من أعضـاء الجمعيـة خلال السنـة الـدارسيـة ١٩٣٤ - ١٩٣٥ فأكملوا دورة المشاة وأصول استعمال

---

(١) سعدي خليل، «صفحة من تاريخ الفتوة»، مقالة في مجلة (الفتوّة)، السنة الثانية، العدد ٧، ١٨ مايس ١٩٣٦

السلاح الأبيض في ساحة القلعة (التي كانت مقرّ وزارة الدفاع) وكذلك الرمي بالبندقية والمسدس في الوشاش وفي الميدان الكبير في أم الطبول[1].

وفي هذه السنة نفسها أصدار أحد أعضاء «جمعية الجوّال العربي» وهو الأستاذ سعدي خليل - وكان مدرساً في تطبيقات دار المعلمين - مجلة باسم «الفتوّة» أخذت على عاتقها استنهاض الشبان الى الرجوع الى المثل العربية العليا، وتقوية الروح القومية بينهم.

و«الفتوّة» نظام عربيّ قديم عرف في عهد الدولتين الأموية والعباسية. وكانت الصوفية قد استحسنت كلمة «الفتوة» وماتدلّ عليه من معاني النبل والسماحة، وأدخلتها في معجم مفرداتها.

وفي «الرسالة القشيرية» عقد القشيري باباً سمّاه «باب الفتوة»، وقال في تعريفها: «أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره». وعقد الشيخ محيي الدين بن العربي فصلا طويلاً عن الفتوة في كتابه «الفتوحات المكّية» عنوانه «معرفة مقام

---

(١) أنظر تفاصيل وافية عن «جمعية الجوال العربي» وأعضائها في بحث الدكتور فاضل حسين في مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد، المجلد ٣٣، العدد الثاني، كانون الأول ١٩٨٢

الفتوة وأسراره».

وترعرع نظام الفتوة في العصر العباسي الأخير، ولعله كان متأثرا بنظام الفروسية عند الافرنج. وقد شجع هذه الحركة بصورة خاصة الخليفة العباسي «الناصر لدين الله» فنظّم الفروسية والفتوة، وقال فيه أحد المؤرخين: «.. انه شيد بنيانها، ومهّد أركانها، وألف أحزابها، وأرشد طلابها ... الخ.»

وجاء في تاريخ أبن الفرات «ان الناصر لدين الله كان يميل الى رمي البندق، والطيور المناسيب، ولبس سراويل الفتوة». وانتشر لبس تلك السراويل بين سائر ملوك الآفاق. ووصل رسول للناصر لدين الله الى «حماه» في أيام «المنصور الأيوبي» - صاحب حماه - وأمره بلسان الخليفة أن يلبسها. وكان قاضي حماه في ذلك الزمن القاضي «برهان الدين أبا اليسر»، فأمره الملك المنصور الأيوبي بلبس سراويل الفتوة في المجلس، فلبسها، ولبسها جماعة له.

وجاء في «كشف الظنون»: «.. ان الاحتفال بدخول الشاب في سلك الفتيان على عهد الناصر لدين الله كان مصحوبا بشرب كأس الفتوة. كما أخذ الناصر جنده بالتدريب المتواصل على

فنون الرياضة البدنية المختلفة».

ومن ذلـك النظـام العـربي استـوحت «مجلة الفتـوة» اسمها، وكـان اسما مناسبا لمرحلة صدورها، محبباً الى الأسماع. واستمّر صدور «الفتـوّة» سنتـين دراسيتـين كاملتـين وكـانت مجلة مدرسية ثقـافيـة راقيـة حفلت بمقـالات بأقلام نخبة من أفضل الأساتذة والمربين في ذلك الوقت، ونجد بين كتابها أسماء كانت تتردد على صفحاتها بكثرة، بينها أسماء: درويش المقدادي، ومتي عقراوي، وناجي معروف، وطه الهاشمي، ومحمد أمين العمري، والدكتور صائب شوكـة، وأكـرم زعيتر، وعبد المسيح وزير، وعزيز سامي، وخـالـد الهاشمي، وحكمة عبد المجيد، وأكرم فهمي، وابراهيم شوكـة، وأحمـد حقي الحـلي، والشيـخ محمـد مهـدي كبة، وعبد المجيد محمود، وموسى علي، وكثيرين غيرهم.

وكـانت المجلة تشجـع الأقلام الناشئة بنشر كتاباتها. ولكاتب هذه السطـور ثلاث مقـالات وقصص متر .مة نشرت فيها، وكان يومئذ طالبا في الصف السادس الابتدائي بالمدرسة المأمونية، وهي أول مانشر له قبل سبعة وأربعبن عاما.

وكان المرحوم «عبد الستار القره غولي» ينشر فيها، منذ عددها

الأول، قصائد وطنية قومية تناسب مستوى قارئيها من الطلاب، وكان يوقعها باسم «الفتى»، حتى أنه لُقّب في حينه بـ «شاعر الفتوة».

ولم تكن «الفتوة» تنشر كثيرا من الاعلانات، وانما كانت تعلن عن صدور بعض الكتب التي تنفع الطلاب، وقلما احتوت صفحاتها على اعلان تجاري، ومن ذلك القليل الاعلان الطريف التالي:

« في كربلاء: اقصدوا الخياط الفني حسون فريد يركم أعجوبة الخياطة الحديثة » (العدد ٦ السنة الثانية، ٢٥ نيسان ١٩٣٥).

وعلى أي حال فقد أدت «مجلة الفتوة» خدمة ثقافية كبيرة، وكان لها أثر كبير في توجيه الناشئة، وغرس الروح الوطنية والقومية فيهم، والاعتزاز بماضيهم المجيد وتاريخهم العظيم، بالاضافة الى الدعوة لفكرة «الفتوّة».

وأخيرا، وفي تشرين الثاني من سنة ١٩٣٥، سنّت وزارة ياسين الهاشمي «نظام الفتوة» رقم (٥٠) الذي نشر في «الوقائع العراقية» العدد ١٤٦٩ الصادر في ٧ تشرين الثاني ١٩٣٥، وكان



الدكتور سامي شوكة

(من مجموعة الأستاذ خيري العمري)

صاحب الفكرة ومروّجها هو الدكتور سامي شوكة، مدير المعارف العام، الذي جعل شعار هذه الحركة الجديدة الحديث النبوي الشريف: «اخشوشنوا فانّ الترف يزيل النعم».

وقد عرفَت المادة الثانية من هذا النظام غايته بأنها «تعويد الفتيان على خشونة العيش، وتحمل المشاق، وخصال الرجولة، والمفاداة، وتدريبهم على التمارين العسكرية والرماية ومايتبعها من خصال حبّ النظام والطاعة».

ونصّ النظام على وجوب قيام (وزارة المعارف) بانشاء مخيم صيفيّ سنوي في بقعة مناسبة من الجبال لفتيان المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع، كما أنه قرر أن «تكون ألبسة الفتيان شبه عسكرية، وبسيطة، ومن طراز تصنعه وزارة المعارف».

أما الفتوة في المدارس فقد نصّ النظام، في مادته الحادية عشرة، على أن لوزارة المعارف أن تستفيد من وحدات الجيش في المراكز التي توجد فيها، وأن تُدخل في منهجها تمارين أسبوعية خلال السنة الدراسية في التدريب العسكري للصفوف المنتهية من المتوسطات والثانوية ودور المعلمين والصنائع، وأن على وزارة الدفاع أن تقوم بتعيين المدرسين، وتقديم الوسائط والعتاد لهذه

الغاية. كما نصت المادة نفسها أن على وزارة المعارف أن تخصص الـوقت المنـاسب في المنهـج لتعليم المصطلحـات العسكـرية والمعلومـات البسيطـة عن تاريـخ الحـرب، وأن تسعى في تعيين آمري الحضائر والطلائع في تشكيلات الكشافة من الناجحين في التدريب العسكري والمشتركين في الرمي.

وبمـوجب هذا النظام أُسنـدت مديـريـة الـتر بيـة البـدنيـة والتـدريب العسكـري في (وزارة المعـارف) الى ضابـط عسكري قدير، ذي نزعة قومية، هو المرحوم العقيد صلاح الدين الصباغ. كما عُين المرحوم أكرم فهمي، مدرس التر بية البدنية بدار المعلمين الابتدائية، مساعداً له.

وقـد طُبق هذا النظـام في جميـع مدارس العـراق المتـوسطـة والثـانوية، وبلغ عدد «الفتيان» المتدربين (١,٢١٤) فتى أكملوا دورة المشاة، وأصول استعمال السلاح، وقاموا بعدة استعراضات محلية.

وأذكـر أن شركـة سينـمائيـة أو اخبـاريـة أمريكية حضرت الى بغـداد لاعـداد فلم وثـائقي عن العـراق ومعـالمـه، وأرادت أن تصور، فيما تصوره منها، لقطة لاحدى المدارس، فارتأت (وزارة

المعـارف) أن يتم التصـويـر في أحد صفوف (الغربية المتوسطة)، وكنـا في ذلـك الـوقت طلابـاً في الصف الأول المتوسط الذي وقع الاختيـار عليـه، وقيـل لنـا أن نستعّد للتصوير في اليوم التالي وأن نظهـر بقيـافة جيدة ومظهر لائق. وأُحضرت المعدات الى الصف في صبـاح اليـوم التـالي، ورُكّبت عاكسـات الضوء الفضية، فلما دخـل المخـرج ورأى الطـلاب بالمـلابس العسكـرية ثارت ثائرته ورفض أن يصور مدرسة مدنية طلابها يرتدون الزيّ العسكري. وكان المدرس هو المرحوم (فؤاد جميل) - مدرس اللغة الانكليزية - فجرى نقاش حاد بينه وبين هذا المخرج - الذي كان يهوديا في أغلب الظن - وأدركنا من القليل الذي فهمناه مما دار بينهما باللغة الانكليـزيـة أن سبب الـرفض هو أن منظـر الطـلاب شبيه بمنظر المـدارس الالمـانيـة النـازيـة. ولم يقتنع المخرج الاّ بعد أن أكد له المـديـر والأسـاتـذه بأن هذا هو الـزي المستعمل في جميع المدارس المتـوسطـة والثـانـويـة في العـراق، وأنه لن يجد مدرسة تخلو منه، فأذعن على مضض، وجـرى التصـويـر أخـيراً، ولكننا لم نسمع شيئا عن الفلم ومصيره بعد ذلك.

وبقي «نظام الفتوة» معمولا به حتى سنة ١٩٤١ وقيام «حركة مايس» في تلك السنـة. فلما فشلت تلك الحـركـة الـوطنية، وعاد النفوذ البر يطاني قويا بعدها، وسيطر على (وزارة المعارف) خلال

سني الحرب العالمية الثانية خبراء بريطانيون (هملي، وسكيف وغيرهما)، أُلغي نظام الفتوة الذي اعتبره خصوم المبادىء القومية تقليداً لمنظمات الشبيبة الفاشيستية والنازية، في ايطاليا والمانيا وغيرهما، وهو في الحقيقة لم يكن كذلك، وانما كان نظاماً يهدف الى غرس الروح العسكرية والقومية في نفوس الناشئة، وذلك مالم يرق للانكليز في تلك الفترة، وكان مناقضاً لسياستهم التعليمية ومصالحهم، وخاصة في ظروف الحرب. وقد هاجمت بعض الصحف الدكتور سامي شوكة، صاحب فكرة الفتوة ومنفذها، واتهمته بالتطرف والنازية، حتى أن جريدة «الأهالي» وصفته - في مناسبة لاحقة - بـ «موزلي العراق» تشبيهاً له بالسر «اوزوالد موزلي» رئيس الحزب النازي البريطاني. وهكذا انتهى ذلك النظام الذي لم يكتب له أن يعيش أكثر من خمس سنوات، ولكن آثاره امتدت لفترة طويلة بعد ذلك.

خواطر عن توينبي

لو سألت عشرة أشخاص مثقفين أن يذكروا أسماء ثلاثة مؤرخين بارزين ظهروا في القرن العشرين، فأغلب الظن أن تسعة منهم سيذكرون اسم «توينبي» فقط، وسيعصرون أدمغتهم - دون جدوى - لتذكر اسم أو اسمين آخرين. اذ قلما أنجب القرن العشرون مؤرخا مثل «آرنولد توينبي» يمكن أن يوصف بأنه «شخصية عالمية» ليس في أوساط المؤرخين والأكاديميين فقط، بل على نطاق ثقافي واسع، وبين جمهور من القرّاء من شتى المستويات والاختصاصات. ويكاد توينبي أن يشغل في مجال العلوم الانسانية مكانة تشابه كثيراً مكانة «آنشتاين» في العلوم الطبيعية، بل انه كان، في نظر البعض، أكثر من ذلك: فهنالك من عدّه نبيا ملهما، ومن أتهمه، جادّا، بأنه نصب نفسه مسيحا جديدا.

ان شهرته تقوم، بطبيعة الحال، على كتابه ذي العنوان المتواضع وذي الأجزاء العشرة «دراسة في التاريخ». وقد صدرت الأجزاء الثلاثة الأولى منه في سنة ١٩٣٤، ثم ثلاثة أجزاء أخرى في سنة ١٩٣٩، وبقيّة الأجزاء في سنة ١٩٤٥.

ان مجرّد (كمّية) هذا الانتاج الفكريّ الثرّ، المتراص، المثقل بالهوامش، والذي نشر برعاية مطبعة جامعة اوكسفورد المعروفة بتحري أعلى المستويات في منشوراتها، سرعان مانال في شتى أرجاء العالم نجاحاً مذهلاً، ومايزال محتفظاً بمكانته. وتزخر صفحات هذا الكتاب بالاستشهادات والمقتبسات من موارد لايعرفها عادة الاّ المتخصصون بالعلوم المختلفة، وتدلّ على إلمام غريب بالقضايا الفرعية والجزئية الدقيقة من تواريخ شعوب العالم، استخدمها في دراسته المقارنة للحضارات، فكان يبعث على الدهشة من سعة علمه المعجِز بتاريخ العالم.

إن قدرة توينبي على العمل -وهي تكاد تكون غير طبيعية- تستحقّ اعجاباً أكبر إذا تذكرنا أنه كتب القسم الأول، وجانباً من القسم الثاني، من «دراسة في التاريخ» في وقت واحد مع انتاج ضخم آخر، وهو سلسلة كتبه «عرض للشؤون الدولية» التي كان المعهد الملكي للشؤون الدولية (جاثام هاوس) ينشرها

سنويا. وقد أنجز كل ذلك بمساعدة باحثة واحدة فقط، هي «فيرونيكا بولتر» التي أصبحت زوجته في سنة ١٩٤٧، بعد انتهاء زواجه الأول بالطلاق.

وتصعب كثيرا معرفة ما كان وراء هذا الجهد العظيم، وان كان توينبي نفسه قد حاول بحماسته المعتادة أن يفسّر حوافزه الشخصية. فقد نشأ في عائلة كان جلّ أفرادها من ذوي المواهب غير الاعتيادية. كان جدّه رائداً في جراحة الفم والتخدير. وعمه «آرنولد» - وهو سميّه - مؤرخاً اقتصادياً بارزاً، ومصلحاً اجتماعياً (وقد جعل الولاء العائليّ ابن أخيه يثبت على الدوام الحرف الأول من أسمه الأوسط - جوزيف - تمييزاً له عن عمّه). عمّ آخر له كان من المتخصصين في أدب «دانتي» شاعر ايطالية الأكبر. أما أمّه فقد كانت من أوليات المتخرجات في جامعة كمبرج، في فرع التاريخ، حيث حصلت على الدرجة الأولى.

وقد نسب توينبي الى أمّه الفضل الأول في توجيه اهتمامه الى تاريخ، ولكن طريق النجاح أمام هذا الطفل الموهوب الذي ولد في العصر الفكتوري سنة ١٨٨٩، كان عبر الدراسات الكلاسيكية. فقد حصل على زمالة للدراسة في مدرسة «ونجستر» وبعدها على أخرى للدراسة في جامعة أوكسفورد،

حيث تمكن من اللغتين اللاتينية واليونانية بطلاقة عجيبة. وكان توينبي طيلة حياته يجد الكتابة بهاتين اللغتين أسهل عليه من الكتابة بالانكليزية، على الرغم مما عرف به أسلوبه باللغة الانكليزية من رصانة ورشاقة وقدرة على التعبير الجميل. وقد حصل الفتى توينبي في الجامعة على الدرجة الأولى في مادة «الآثار العظيمة» - كما يسمونها - وهي تتطلب دراسة الفلسفة القديمة، والتاريخ القديم، وكذلك اللغات والآداب. وقد منحته كلية «بيلبول» على أثر تخرجه وظيفة لتدريس التاريخ القديم. وفي صيف سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ الحادثتين أنفق أكثر مااستطاع انفاقه من وقت متجولاً في اليونان وآسيا الصغرى، حيث قامت حضارات قديمة، يتشّرب التاريخ والأدب البيزنطيّ، ويتعلم اليونانية الحديثة، بعدأن أتقن الفرنسية والالمانية في الجامعة.

بهذا الرصيد من الأساس الثقافيّ المتين، واللغات الأجنبية القديمة والحديثة - التي لابدّ منها للمؤرخ الحقيقيّ - ولج توينبي ميدان التأليف.

بدأ في صيف سنة ١٩١٤ بوضع كتاب عن الحضارة اليونانية القديمة، وأكمل فصلين منه، ثم اضطرّ الى ترك العمل فيه.

ولكنه مع ذلك أرسل هذا الكتاب للطبع بعد اربعين عاما. فقد كان من عاداته أن لايترك مشروعا بدأ به دون أن يكمله مهما طال عليه الزمن. وقضى سني الحرب في وظيفة «كاتب موقت» - كما وصفها بتواضع - في وزارة الخارجية البريطانية، وكان في الوقت نفسه يكتب دراسة عن الشرق الأوسط استمرّ العمل فيها حتى سنة ١٩٢٠. وفي تلك السنة بدا له، للمرة الأولى، أن يكتب تاريخا شاملا.

وكانت رحلاته في الشرق الأوسط قد بعثت فيه شعوراً واضحاً بأنّ الحضارات لا تدوم. فهنا قامت الحضارات، واحدة فوق أخرى - وكانت آثارها في كثير من الحالات في صورة قلاع أو معابد في نفس البقعة - حضارات يونانية ومقدونية، رومانية وبيزنطية، فلماذا ذابت هذه الكيانات السياسية والثقافية واحدة بعد أخرى؟

وكان يحزّ في نفس توينبي دائماً مقتل عدد كبير من أصدقائه وزملائه في الحرب العالمية الأولى، وهو أمر شغل باله وروّعه طيلة حياته. وكان يحمل شعوراً بالذنب لأن مرض (الديزانتريا) الذي أصيب به في اليونان، جعله غير صالح للخدمة العسكرية. اذ قال مرة قبل وفاته بسنوات قلائل: «في

كل سنة تضاف الى عمري أشعر بفقدان معاصريّ أكثر فأكثر».
فهل كان بالامكان تبرير تضحياتهم؟

ربما. ففي كتابه «دراسة في التاريخ» حلل توينبي، بتفاصيل وافية، غنية، مترفة، قيام إحدى وعشرين حضارة وسقوطها، وتوصل الى أنها جميعا قامت استجابة لتحديات أو حوافز خارجية وتلك هي نظريته المشهورة في «التحدي والاستجابة» - وكانت توجهها على الدوام صفوة مختارة من الزعامات التي تجددت قابلياتها من وقت لآخر بعملية «انسحاب وعودة» تقليدية ظاهرة في سِيَر زعماء مختلفين في التاريخ، من السيد المسيح حتى لينين.

ان أسباب سقوط الحضارات لم تكن واضحة تماما، وهذا القسم مما عرضه لم يظهر الاّ بعد الحرب العالمية الثانية، واختراع القنبلة الذرية. وقد توصل توينبي الى أن الحضارة الغربية التي بدأت صعودها في سنة ٧٠٠ بعد الميلاد، هي الآن في طريقها الى الزوال بموجب نمط تقليدي واضح. ولكنه كان لايزال يرى بصيصاً من أمل في خلق دولة عالمية، وتطور ديانة عالمية جديدة ستتسلم شعلة الثقافة والحضارة كما فعلت المسيحية بعد سقوط الامبراطورية الرومانية. وقد تصورّ أن هذه الديانة ربما ستكون

مزيجا من المسيحية والاسلام والبوذية. أما الديانة اليهودية فقد وصفها بأنها أصبحت من «متحجرات التاريخ».

لقي كتاب توينبي رواجا هائلا لم يسبق له مثيل لكتاب بهذا الحجم لم يكن مقررا في منهاج أيّ امتحان. وسرعان ما ظهرت منه طبعات مختصرة أصبحت بدورها من أكثر الكتب رواجا. ولكن، على الرغم من رواج الكتاب بين عامة القراء والمثقفين، فان ردود فعل العالم الاكاديمي كانت مختلفة تماما، اذ أنها تراوحت بين الاستخفاف، والازدراء، والعدوان الصريح، والتهجم القاسي. وقد أجمع نقاّد الكتب وعارضوها في المجلات الرئيسية في أوربا وأمريكا، على شجبه، وهاجمه عدة مؤرخين بارزين في المجلات الأوربية بضراوة لامثيل لها.

وكانت أسباب ذلك واضحة الى حدّ ما. اذ أن مؤرخي أية فترة من فترات التاريخ بعد القرن الخامس عشر، شعروا بالاهانة والتحدي أن يجدوا موضوعات اختصاصهم تصبح ملحقا غير ذي أهمية لأحداث العالم الخطيرة. وأثار شجبه للعنصرية غضب المؤرخين الألمان مثل «رنيير» و«غيل»، ووصفه للديانة اليهودية بأنها من «المتحجرات» ورفضه ادخالها في هيكله لأديان العالم الكبرى أزعج الباحثين اليهود، خاصة وقد جاء

ذلك في الفترة التي صادفت قيام الدولة الصهيونية على الأرض العربية في فلسطين.

وقد اكتشف المتخصصون أخطاء في كل مكان من كتابه الضخم، ولم يكن ذلك أمراً مستغرباً في كتاب على هذا النطاق الواسع، ولكن كثيرين من نقّاده وصفوا المشروع كله -ربما باخلاص تام- بأنه «عمل زائف» بدرجة هائلة، وأعرب آخرون -ربما بنفس الاخلاص أيضا- عن اشمئزازهم من جوّ التصوّف والروحانية الذي ساد خاتمة الكتاب.

ولكن كان هنالك ما هو أبعد من ذلك وأهم، وهو التخوّف من نوع من (الانقلاب) الفكري الذي قد تحدثه مكانة توينبي وسمعته الضخمة، مما سيهدّ من عزيمة الحضارة الغربية على البقاء. قال واحد من أعنف نقاده: «ان توينبي يكره الحضارة الغربية لأنها من حيث الأساس ليبرالية وعقلانية، وهو بسبب كرهه لها يودّ أن يراها تتحطم، ولا يهمه من الذي يحطمها».

والواقع أن تلك المخاوف كانت تحميلاً للأمور أكثر مما تحتمل. فوراء المعلم الناقد كان يكمن رجل متواضع جدا، ولكنه لم يفهم قط أن معرفة الآخرين لم تكن بغزارة معرفته، وكان يعتبر ثقافته

الفـريـدة في سعتهـا أمرا طبيعيا . وحينها شكر توينبي ناقديه على ملاحظاتهم ، شجبوه بقسوة مرة أخرى على أنه «منافق» نذر نفسه لمعـايـير عاليـة ومختارة (وكانت هذه بطبيعة الحال المعايير الوحيدة التي يعرفها) .

وكـان أعلى ناقـديـه ضجيجـا ، وأكثرهم الحاحا ، الهولندي «بيـتر غيـل» الـذي تنقل من مدينة الى اخرى في طول الولايات المتحـدة وعرضها ، وهو يشجب في الأوساط الاكاديمية «الهرطقي الكبير» و «صاحب البدع» . وكان تعليق توينبي عليه : «انه رجل محبوب جدا» .

ان القـراء الـذين هم أكثـر اعتـدالاً واتـزانـاً أدركوا أن كتاب «دراسـة في التـاريـخ» لم يكن كتـاب دعـايـة بقـدر ماهـو شهـادة شخصيـة ، أو محاولـة من توينبي للتفاهـم مع نفسه . وقد قال قبل وفاته بمدة قصيرة :

«يستيقـظ البشـر الى حالـة من الـوعي ، فيجدون أنفسهم في فوضى ، ثم يحاولـــون أن يفـرضـوا على هذه الفـوضى شيئـا من النظـام لكي يجعلوا الحيـاة محتملة . اننا لا نستطيع أن نقول ، عن ثقـة ، هل كان المخطـط الـذي رسمنـاه للعـالم الغريب الغامض

يتجاوب مع الواقع المراوغ، ولكن لا بدّ لنا من رسم هذا المخطط لكي نعيش، مدركين أنها عملية صادرة عن ايمان، وأنها بنفس الوقت عملية تهدف الى الحفاظ على النفس».

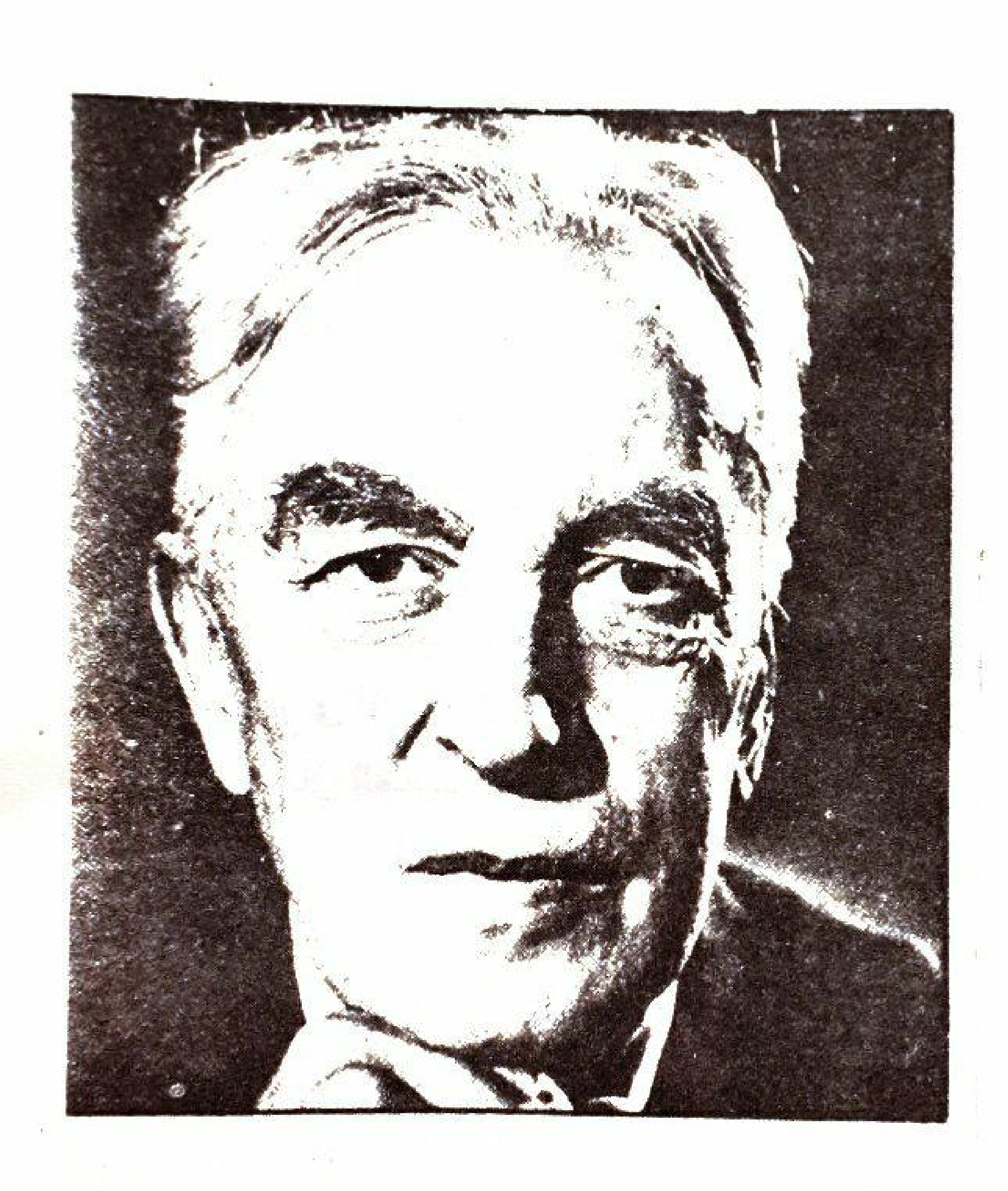
وبالاضافة الى ما تقدم، فمن الواضح أن توينبي لم يكن له من النفوذ الذي يستطيع به أن يلوي الأفكار والعقول بالقدر الذي كان يخشاه الكثيرون. ان تراث توينبي سيكون في نظرته الخاصة الى التاريخ، فقد أجبرنا أن ننظر الى التاريخ بأجمعه، منذ عهد السومريين الى يوم الناس هذا، باعتباره وحدة متكاملة، وعلمّنا أن أقسام التاريخ كلها ذات أهمية متساوية، وان اختلفت الأساليب.

وكانت لتوينبي عادة تبدو مزعجة للقراء أحيانا، ومن التزام ما لايلزم، وهي أنه كان يلحق حرفي ب. م. (بعد الميلاد) بتواريخ مثل ١٩١٤ أو ١٩٤٥، ولكن هذه العادة كانت بنفس الوقت صحية، لأنها تذكرنا أن هنالك أيضا سنوات مثل **١٩٤٥ قبل** الميلاد، وأن الناس عاشوا خلالها، وحاربوا، وكانت لهم الآم وآمال. وفي نظره لم تكن ثقافتنا مقدسة كل التقديس، كما أنها ليست خالدة أو أبدية، كما أن تاريخ الانسان لم يكن بالضرورة تطورا مطردا وصعودا مستمرا الى أعلى، ونحو النور.

وقبـل أن تفـرض الدول العربية الحضر على تصدير النفط في سنة ١٩٧٣ بمدة طويلة، كتب في جريدة «الاوبزرفر» ـ التي كان يواصل الكتابة فيها منذ عشرين سنة ـ قائلا: ان ميزان القوى في العالم يميل نحو أمم آسيا والشرق الأوسط.

لقـد كانت رؤ يتـه بعيدة، دقيقة، وغير عاطفية على الدوام. قال «لـويس ممفـورد» الـذي يشـابهـه في تفكـيره المتحرر ونظرته المتجردة البعيدة، عن كتابه «دراسة في التاريخ»:

«ليس هنـالـك كتـاب يعـالـج أمـور البشـرية بمثل تحرره من الضيق الصارخ في أفق التفكير الذي يتصف به زماننا ومجتمعنا: من أفكـار التعـالي العنصـري المسيطر على تفكيرنا، من غرورنا المفـرط بالانتصـارات المادية، من رضوخنا الساذج لقواعد العلوم الطبيعيـة ذات العـين الـواحـدة، من الفكرة القائلة بأن زماننا هو قمة الوجود الانسانيّ، ومن اعتقادنا بخلود قيمه الزائلة. لقد كان عملا عظيما: إدانة للمادية والفوضوية في زماننا، وتعبيراً عن كرامة الحياة الانسانية، وأهمية التاريخ نفسه».



آرنـولد توينـبي

(عن مجلة آفاق عربية)

توينبي بين العرب واليهود

كان المؤرخ الكبير آرنولد توينبي يتمتع بشهرة واسعة ليس في الأوساط الاكاديمية فقط، بل في مجال الفكر البشري والثقافة العامة، وهي شهرة لم ينلها غيره من المؤرخين في القرن العشرين، وقلما نالها أحد في القرون الخالية. ولذلك كانت آراء توينبي السياسية والاجتماعية تجد صدى أبعد، وتلقى اهتماما أكبر من الآراء التي يعرب عنها غيره من المؤرخين مهما كانت مكانتهم العلمية، ومهما كانت آراؤهم قيمة أو مفيدة.

وقد عرف عن توينبي أنه مؤيد للعرب وخاصة في قضية فلسطين، وأنه يعتبر الديانة اليهودية من «المتحجرات»، وأنه شجب قيام اسرائيل، وأدان جرائمها، وجاهر برأيه هذا بصراحة كبيرة على صفحات أكثر الصحف رواجا، وفي شتى الأوساط ومختلف المنابر، وعزز آراءه بالثروة الهائلة من الحجج والمعلومات التي يمتلكها، والتي قلما يضارعه فيها مضارع.

لم ينظر توينبي الى تاريخ البشرية في صورة مراحل أو فترات متتالية، ولا على أساس مناطق جغرافية منفصلة، وانما نظر اليه كسلسلة من حضارات سادت ثم بادت. وفي كتابه الذي قامت عليه شهرته «دراسة في التاريخ» بأجزائه العشرة، درس إحدى وعشرين حضارة بشرية قامت في أماكن مختلفة من العالم استجابة لتحديات خارجية، ونمت وتطورت، ثم تدهورت وسقطت، وقام غيرها بمحلها.

ووجد توينبي بنتيجة دراسته للتاريخ، وعلى ضوء نظرته الخاصة اليه، أن الحضارة الغربية، بموجب هذا النمط التقليدي، هي الآن في طريقها الى الزوال، ولكنه لم يكن يائسا من مستقبل العالم كل اليأس، بل كان يرى أن هناك أملا في أن تقوم بمكانها حضارة جديدة، أو دولة عالمية، وأن تظهر معها ديانة جديدة تتسلم منها شعلة الثقافة والحضارة، وتنبأ أن هذه الديانة قد تكون مزيجا من المسيحية والاسلام والهندية وبوذية «ماهايانا» - والأخيرة عقيدة تبناها وخصص لها القسم الأكبر من الجزء الختامي من كتابه. أما اليهودية فلم يدخلها في هذا الهيكل الذي تخيله، بل وصفها بأنها أصبحت من «المتحجرات».

وقد أثار هذا الرأي ثائرة اليهود بطبيعة الحال، فهاجموها في

صحف العالم، وحاولوا ـ كما هي عادتهم دائما ـ أن يُلصقوا به حالاً تهمة «معاداة السامية» أو معاداة اليهود، لكي يبطلوا ما قد يكون لهذا الرأي من تأثير على أفكار الناس، بما فيهم اليهود أنفسهم. وقد جعل اليهود من «معاداة السامية» تهمة يخشاها كل كاتب ومفكر في الغرب، ويحاول أن يبتعد عنها أو يتحاشاها، خوفا من أساليب اليهود في محاربته بكل سلاح شريف وغير شريف من الأسلحة التي دأبوا على استخدامها في مجابهة خصومهم. ولكن توينبي لم يكن ممن يأبهون لذلك.

فهل كان توينبي عدوا لليهود حقاً؟

ليس هنالك دليل حقيقي على مثل هذا الموقف. وقد صرّح «السر لويس ناميير» ـ وهو يهودي ومن زعماء الصهيونية الانكليز ـ قائلا: «حسب علمي لم يدخل أيّ شعور معاد لليهود في موقف توينبي المعادي للصهيونية». وقد عزا «ناميير» هذا الموقف الى تأييد توينبي للاسلام. وعلق «ستر ومبرغ» (في دراسة له عن توينبي نشرت في أمريكا) على هذا الاستنتاج قائلا: «ان موقفه يمكن أن يُعزى الى معاداته للعنصرية، ولأنه كان يتوقع من اليهود أكثر من تكرار سياسة القوى والانغلاق العنصري».

وقد جاءت الهجمات اليهودية على استنتاجات توينبي سريعة

وشـديـدة. فقـد هاجمـه «آبـا ايبـان» في خطـاب بعنوان «هرطقة توينبي» ألقاه في سنة ١٩٥٥، وفي السنة نفسها كتب «فريدريك روبـين» عن «الـبر وفسـور والمتحجـرات». ولعـلّ أكثر ردّ يهوديّ لاذع كان ذلـك الـذي كتبـه «موريس صموئيل» بنفس العنوان. وقـد شجب هؤلاء جميعـا «عجـز توينبي عن أن يرى قدرة دولـة اسـرائيـل على البقاء»، واتهموه بتجاهل فظائع المذابح النازية في اوربا التي أرسلت موجات من اليهود الى فلسطين باعتبارها الملاذ الوحيد لهم.

وأجاب توينبي على عدد كبير من منتقديه، ومضى يناقشهم بهدوء، ولكنه بصورة عامة لم يغير من فرضياته الأصلية الاّ قليلا:

«ربما كان اختياري لهذا الوصف ـ أي المتحجرات ـ غير دقيق أو غير مناسب في وصف الـواقـع التـاريخي الذي أردت وصفه، ولكن لابدّ من اطلاق إسمٍ ما».

وأبدى توينبي استعداده لأن يعدل هذا الوصف، وأن يستبدل به اسم «مكويلا سانثوس»، وهو اسم نوع من السمك ظهر قبل ٣٥٠ مليـون عام، وانتشـر في معظم أنحـاء الكـرة الأرضية، ثم انقـرض قبـل ٦٠ مليـون عام تاركـا وراءه أعـداداً كبـيرة من المتحجـرات. وكان مما أدهش العلماء أن تصاد بين سنتي ١٩٣٨ و

١٩٦٣ سبع سمكات أو ثماني من هذا النوع في سواحل افريقية وجزر الكومورو. ولكن هذا الاسم البديل لم يكن أحسن وقعا في نفوس اليهود، بل أثار نفرتهم بنفس الدرجة.

ولا بدّ من الاشارة الى أن توينبي كان لايزال يرى أن اليهود لهم مكانة مهمة في تاريخ العالم، فقد أسهموا ـ عن غير قصد منهم ـ في ظهور ديانتين كبريين قبل أن يزولوا، ولكنه كان متأكدا من أن دورهم الروحي بعد ذلك كان يؤدى على أفضل وجه في شكل أقليات تعيش في مختلف أنحاء العالم. وقد وجد أن هدفهم الأكبر كان ـ لسوء الحظ ـ الحفاظ على هويتهم القومية، وقال:

«وكان أحد هذه الأهداف العودة الى بلاد يهوذا وتأسيس دولة يجب أن تضم ليس مملكة يهوذا، بل أرض اسرائيل جميعا، ومعنى ذلك منطقة مملكتي يهوذا واسرائيل مجتمعتين الى عهد امبراطوريتي الملكين اليهوديين داود وسليمان اللتين لم تعيشا طويلا».

وواصل توينبي دفاعه عن آرائه في سنة ١٩٦٣ حين أجرت مجلة (PLAYBOY) مقابلة مهمة معه. وهذه المجلة واسعة الانتشار جداً في الولايات المتحدة واوربا وفي أماكن عديدة أخرى في

العـالم. وعلى الـرغم من أنها مجلة تهتمّ بالصور الخلاعية والأدب المكشــوف، فانهـا تنشـر من وقت لآخـر مقـالات مهمـة بأقـلام مشهـورة، وتجرى مقابلات مع شخصيات عالمية (ربما لقاء مبالغ خيالية)، وهي تصدر في الولايات المتحدة حيث النفوذ الصهيوني ـ وخاصة في مجال الاعلام ـ على أشدّه.

ناقشت هذه المجلة آراء توينبي منـاقشـة جدية، ووجهـ اليه أسئلة حساسة:

لاحظت المجلة، مثـلا، أنـه وصف الصهيونية بأنها عبارة عن «حفـاظ عنصـري لليهـودية» ووجد أنها ليست الاّ محاولة لجمع شتى الأحيـاء اليهـوديـة المغلقـة (الغيتـوات) في بقعـة واحدة من الأرض (في فلسطين) لخلق «غيتو» متماسك واحد هناك.

ولمـا كان توينـبي قد سبق له أن قارن الحكم الصهيـوني في أرض فلسطـين بالحكم الاستعـماري العنصـري في روديسيا في عهد «ايان سُمث»، فقد سُئل فيما اذا كان موقفه من اليهودية قد اختلط بمـوقفـه من الصهيـونيـة، فنفى ذلـك نفيـاً باتاً، وأوضح أفكاره بطريقة جديدة نوعا ما:

«كـان اليـهـود حتى الآن عالميـين (Cosmopolitan) وأرى من

المؤسف أن يصبحوا الآن عنصريين، وهذا ما أعارضه. انني أثمنّ مساهمة اليهود في العالم الغربي، وهم عنصر مرغوب فيه في حضارتنا الغربية. ولكنني أعتقد أن مستقبل اليهود، والديانة اليهودية، والثقافة اليهودية، يكمن في العالم الغربي، وخاصة في الولايات المتحدة، وليس في اسرائيل».

ان ما استنكره توينبي كان نزوح اليهود من اوربا خلال الحكم النازي وبعده، فقد تمّ ذلك كما قال «على حساب الشعب الذي كان يسكن تلك البلاد سابقاً، وهو عمل شرير».

وفي سنة ١٩٦٤ كتب توينبي مقالة في مجلة (الشؤون الدولية) بعنوان «بريطانية والعرب: الحاجة الى بداية جديدة»، وهي تتضمن ذكرياته عن مؤتمر الصلح الذي عقد في سنة ١٩١٩، والذي حضره مع الوفد البريطاني.

وفي هذه المقالة لامَ البريطانيين لأنهم في جميع الأوقات «يرغبون في أن يتنمروا على العرب». وقال عن الوعد الذي قطعته بريطانية في سنة ١٩١٧ (وعد بلفور) واصفاً شعور العرب نحو أرضهم في ذلك الوقت:

«مهما كانت الطريقة التي يمكن أن يُفسّر بها تصريح بلفور، ومهما كان معنى عبارة (الوطن القومي للشعب اليهودي) والحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين[1] - فاننا نحاول التخلي عن شيء لايعود لنا، واعطائه للغير. إننا كنا نعطي وعوداً بمنح حقوق من نوعٍ ما في بلاد تعود للعرب الفلسطينيين، الى طرف ثالث».

لقد طلب البريطانيون في مؤتمر الصلح انتداباً من الدرجة «أ» على فلسطين، أي أنهم كانوا مجبرين بموجب صك الانتداب على تسليم البلاد الى «حكم محلي»، لأن العرب كانوا يؤلفون ٩٠ بالمئة من سكان البلاد في الضفة الغربية، ونسبة أكبر من تلك في الضفة الشرقية. وقد أثبت توينبي أن بريطانية لم تكن متهيئة مطلقاً لتدفق اليهود على البلاد اعتبارا من سنة **١٩٣٣**، لأنها في الفترة بين سنتي **١٩١٧** و**١٩٣٣** امتنعت عن اتخاذ أي قرار بشأن كيفية تفسير تصريح بلفور. هل يجب أن يكون هنالك

---

(١) يشير توينبي هنا الى ما جاء في نص تصريح بلفور، وهو: «... ان حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، مع البيان الجليّ بأن لا يفعل شيء يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن... الخ».



ـ مثلا ـ نظام معين يحدد عدد المهاجرين؟ وبأي عدد؟ وهل يمكن (أو يجب) أن يصبح اليهود أكثرية في البلاد؟ لم تتبلور في وزارة الخارجية أوغيرها أية أجوبة عن هذه الأسئلة حتى قيام الحكم النازي في المانيا وشروعه في اضطهاد اليهود أوإبادتهم.

ان المشكلة كلها، في نظر توينبي، كان يمكن حلها بسهولة لو تصرفت بريطانية أو أمريكا بحزم.. «ولكن كلتا الدولتين لم تفتحا أبوابهما لليهود الآّ قليلا، وحتى هذا كان بكثير من التلكؤ والتذمر. ان استيعاب اليهود في هذين البلدين (أي في بريطانية وأمريكا) كان في رأيه خير حلّ للمشكلة، يوفر لليهود وأجيالهم المقبلة ذلك الأمان الدائم الذي لا يبدو من المحتمل أن اسرائيل ستستطيع توفيره لهم».

لقد كرر توينبي تحليلاته لحقيقة اسرائيل، وتحذيراته مما قد تعود به على مستقبل اليهود أنفسهم من ويلات، في كثير من كتاباته التالية، وله مراسلة شهيرة مع البرفسور «تولمان» استاذ التاريخ الحديث في الجامعة العبرية جرت بعد حرب حزيران سنة ١٩٦٧ ونشرت في مجلة (Encounter) الشهيرة ونقلت في كثير من صحف العالم. وكان «تولمان» قد نشر بحثاً عنوانه «من أجل سلم شامل في الشرق الأوسط»، فوجه اليه توينبي رسالة بدأها قائلا:

«انني معروف كمدافع غربيّ عن قضية العرب، وانني أعرف التعهدات البريطانية للعرب في سنتي ١٩١٧ - ١٩١٨»، ثم تساءل كيف نستطيع الآن تحقيق تسوية عادلة منذ سنة ١٩٦٧، وأجاب قائلا:

«لقد تعرض العرب للظلم، واذا أردنا وصف الأمر ببساطة، فانهم أُجبروا على تسديد حساب مذابح اليهود في اوربا، تلك المذابح التي ارتكبها الألمان وليس العرب. وقد ظُلم العرب بصورة عامة، اذ أنهم - كما ذكرت - لم يُستشاروا في تأسيس الوطن القومي اليهودي أولا، ثم في تأسيس دولة اسرائيل. وقد تمّ الأمر كله وراء ظهورهم وكأنهم «سكان محليون» لهم حقوق هي دون حقوق الانسان».

•

ولتوينبي مقالات ومحاضرات ومناظرات كثيرة أثبتت فيها بالأدلة القاطعة خطل الفكرة الصهيونية، وعجز (اسرائيل) عن أن تكون حلاً لمشكلة اليهود في العالم، ومخالفة الكيان الصهيوني للقوانين الطبيعية.

وقد اهتمّ اليهود، في اسرائيل وخارجها، بآراء توينبي وناقشوها وكتبوا عنها، في حين أن الصحافة العربية -مع

الأسف- لم تُعِر مواقفه المؤيدة للعرب والمدافعة عن حقوقهم أي اهتمام جدي، على الرغم من صدورها عن قناعة ومعرفة بحقائق الأمور وخلفياتها.

ولا شكّ في أن حق العرب في فلسطين صريح، وقضيتهم واضحة. ولكن هذا الحق غير معروف في الغرب على حقيقته. وقد عملت (اسرائيل) كثيراً على تمويهه وتشويهه. ولذلك لا بدّ للعرب من الاستعانة بحجج أشخاص موضوعيين من غير العرب، وممن لاتتطرق الشكوك الى نزاهتهم أو أحكامهم، من أمثال توينبي، لافهام العالم ما لحق باخوانهم من ظلم وعدوان.

وبالاضافة الى ذلك فمن حقّ توينبي على العرب أن يهتموا بترجمة مؤلفاته الى اللغة العربية، وخاصة كتابه «دراسة في التاريخ»، فهو من أمهات الكتب التاريخية التي يجدر بكل عربي مثقف أن يطلع عليها. وحبذا لو اضطلعت احدى الجامعات أو المجامع العلمية العربية، أو أحد مراكز الدراسات، أو الأجهزة الاعلامية بهذه المهمة الثقافية الفريدة لما فيها من خدمة كبرى للقارىء العربي، ولأنها ستكون مظهراً للوفاء العربيّ نحو مفكر عظيم «تطوّع» للدفاع عن العرب بنتيجة قناعته بعدالة قضيتهم، ولم يطلب جزاءً ولا شكورا.

كتب الرحلات وقيمتها كمصدر للتاريخ

تحتـل كتب الـرحـلات في ميـدان الفكر والثقافة مكانة خاصة جدا ، بسبب تعدد جوانبها . وأقصد بذلك أنها يمكن أن تصنف في وقت واحـد مع كتب الأدب ، وكتب السيـاسة . وقد تدخل في باب الجغـرافيـة والـدراسـات البشـريـة ،. وهي قد تحتـوى على معلومـات عن الآثـار، والجيـولـوجيـا ، والطـوبـوغـرافيـا ، والانثروبولوجي . . . الخ . . الخ . . على أن لها ، بعد كل ذلك ، صفة أخرى لاتقل أهمية عن كل ذلك ، وهي أنها مصدر مهم من مصادر التاريخ . ولكن الى مدى؟

ان صدق الانطبـاعـات التي يسجلها السائح من جهة ، وابن البلد من جهـة أخـرى ، قد يكـون عكسيـاً حين يتعلق الأمـر

بالتاريخ . فالسائح في عالمنا المعاصر يشعر وهو يصف بلداً زاره أنه ينظر اليه من الخارج ، وانه لن يستطيع التغلغل في صميم «الحياة الحقيقية» لذلك البلد ، ولن يسجل سوى انطباعات سطحية عن المعالم المشهورة والأماكن التاريخية والمشاهد الجميلة التي شاهدها قبله ألوف السياح ، والتي يصعب ، أولا يكون من الممكن ، أن يقال جديد عنها .

ومع ذلك ، فقد يرى السائح ما لايراه المواطن . ولقد يمر ابن البلد بالشارع ذاته يوميا طيلة سنوات وسنوات ، فتصبح المناظر مألوفة لعينيه ، ولا يعود يلتفت الى شيء من صفاتها أو خصائصها أو مواطن الجمال أو القبح فيها . ثم يأتي سائح غريب يرى الشارع نفسه للمرة الأولى ، فيبهره هذا البناء القديم ، ويقف عند ذلك المنعطف الضيق ، ويستفسر عن طراز تلك الدار ، ثم يسجل كل ذلك أو يصفه وصفاً يجعل قارئه الذى قضى عمره في ذلك الشارع يعود فينظر اليه من جديد ، ويعجب كيف لم ينتبه الى كل ماانتبه اليه ذلك الزائر الغريب .

والسائح يتساءل عادة في كل خطوة يخطوها في البلد الغريب عما يجوز له أن يفعله وما لايجوز . كم يدفع لسائق التاكسي فوق ما سجل العداد؟ كيف يكرم خادم الفندق؟ ماذا يصنع حين

يذهب الى الحلاق؟ وكيف يطلب الطعام في المطعم؟ . . وهو على الدوام يخشى أن يتصرف تصرفا يعد طبيعيا في بلده، ولكنه مستهجن أو مستغرب في البلد الذى يزوره.

ان هذه اللفتات الصغيرة والملاحظات الدقيقة التي لا يراها غير السائح، هي التي يعتزّ بها المؤرخ، فيستنتج منها ما يستنتج، ويبني عليها ما يبني، ويربطها بغيرها من المشاهد والحقائق. وهو لا يعتز بها لما فيها من عمق أو اصالة، ولا لدقة خاصة في الملاحظة، بل لما تحتويه من تفاصيل تخفى على ابن البلد، لأن العادة لم تعد تجعله يراها.

ان ما في كتب السياحة من إثارة وتشويق يكمنان في ألوف الفروق الصغيرة بين المجتمع الجديد ومجتمع المرء نفسه، تلك الفروق التي تثير مشاعر الانسان بصورة تكون أحيانا غير مرئية، وشبه مدركة. ان هذا الميل الطبيعي المستمر الى «المقارنة» يجعل السائح ينتبه الى ما لن يسجله المواطن قط، وبذلك يصبح مشاهداً لايثمن للحياة اليومية في البلد الذى يزوره.

ولذلك فان المؤرخ، بمعنى من المعاني، هو سائح أيضا -ولعله لا يستطيع أن يكون أكثر من ذلك- وهذا ما يجعل المؤرخ

يشعر تجاه السائح بنوع من شعور الزَمالة. فالمؤرخ سائح في الماضي، والسائح مؤرخ للحاضر.

واذا كان التغيير سُنّة الحياة، فان «أدب الرحلات» لم يكن استثناءً من هذه السنة، فقد اختلفت طبيعة هذا النوع من الكتب اختلافا جوهريا مع تطور العصر وأسباب المواصلات. ولست أريد فقط أن أشير الى الفرق بين السائح الذى كان يسافر على ظهور الجِمال، وذلك الذى أصبح يسافر على الطائرات، والى الاختلاف بين مشاعرهما، فذلك أمر بَدَهي أُجلّ القارىء عن تكراره عليه. وانما أريد مدى ما يمكن اعتماد وصف السائح مصدراً للتاريخ. فحينما كان (ابن بطوطة) يصف «تحفة النظار في غرائب الأمصار» التي زارها، ويتحدث عن عادات أهليها وأشكالهم وما شاهده من عجائب وغرائب، كم من الناس كان يستطيع أن يناقشه في صحة ما يروى، ودقة ما يصف؟ أما التطور الذى طرأ على أسباب المواصلات العصرية، والتغير في أسلوب الحياة، و (تقلص) العالم الى رقعة صغيرة، فقد كان من شأنها جميعا أن جعلت كتب الرحلات تافهة الأهمية من حيث الوصف المجرد والمعلومات الجغرافية والسكانية عن الأقطار التي يتنقل بينها اليوم ألوف السياح. ولم يعد هنالك بلد من البلدان التي زارها ابن بطوطة، لم يزره ويشاهد معالمه ويعاشر أهله ألوف وألوف من

مواطني البلدان الأخـرى، وقـارئي كل لغـة. ولقـد فرض هذا التطور على من يؤلف كتاباً عن رحلة الىٰ تحرى مزيد من الدقة، والتـزام مزيـد من الأمـانـة، ولم تعـد له حرية التحدث بما يشاء، والمبـالغـة، واضفـاء مالم يكن حقيقيـا من الألـوان على المشـاهد والمعـالم والشعـوب التي زارها. ولو فعل ذلك لانبر ى له ألوف من القراء الذين شاهدوا البلد الذى يصفه قبله، ومنهم من أقاموا فيه أكثر منه، وعرفوه خيراً من معرفته.

ولكن إذا جعلت وسـائـل المـواصلات الحديثة أسباب التنقل بين البلدان ميسورة لعامة الناس، بعد أن كانت أمراً نادراً، واذا أتـاحت الصحـافـة المصـورة، والتلفزيون الملون، لملايين القراء والمشاهدين رؤ ية «تحفة النظار وغرائب الأمصار» وهم في بيوتهم، **فهل بقي لأدب الرحلات مكان في عصرنا هذا؟ وهل سيكون في** أى كتـاب من أدب الـرحـلات من جديـد **يجتـذب اليه قارئا من** القراء؟

نعم. إن المجـال ما زال فسيحـا، وكتب الرحلات تنهال على المطـابـع بشتّى اللغـات، وتغمر مساحات محترمة من المكتبات. والجـديـد فيها هو الأسلوب، والوصف، والانطباعات، والأفكار المتـداعيـة، والحس الفني، وأخـيرا، التفـاصيـل الـدقيقـة التي

ستكون في يوم من الأيام مصدراً خصباً للتاريخ .

وأذكر مثالاً واحداً : فقد لا يكون أمراً مفهوماً مثلا أن يقوم مؤلف أمريكي اليوم برحلة في الولايات المتحدة لكتابة وصف لها ، ثم يجد لكتابه في أمريكا - أو غيرها - قارئا . ولكن ذلك ما حدث بالفعل .

فقد أزمع الكاتب القصصي الشهير «جون شتاينبك» مرة على القيام برحلة في الولايات المتحدة بقصد «اعادة اكتشافها» على قوله ، وعول على أن ينظر الى وطنه نظرة السائح الغريب ، وأن يصفه وصفا جديدا ويدون انطباعاته عن هذه الرحلة . وقد اصطحب معه كلبه الضخم «تشارلي» . وعندما انتهى من رحلته من الساحل الى الساحل ، أصدر كتابه «رحلات مع تشارلي» فكان من أمتع كتبه ، وأكثرها رواجاً في أمريكا قبل غيرها ، على الرغم من أنه لم يكن أكثر من وصف لبعض ولاياتها ، ولكنه كتب بأسلوب «شتاينبك» البسيط والعميق والرنان في آن واحد . وكان هذا الكتاب ، فيما أعتقد ، آخر كتبه . فقد مات «شتاينبك» بعد صدور هذا الكتاب بسنوات فلائل ، وأغلب الظن أن «رحلات مع تشارلي» سيكون يوما ما مصدراً مفيداً للمؤرخين .

سفير بريطاني في حضرة السلطان العثماني

كان «جون باركر» شابا انكليزيا يعمل في أحد البنوك البريطانية في القسطنطينية في أواخر القرن الثامن عشر، فأُعجب بذكائه ونشاطه السفير البريطاني في العاصمة العثمانية «سبنسر سمث» وعينه سكرتيراً له. وبعد سنوات من العمل في السفارة نُقِل «باركر» قنصلا لبريطانية في حلب في أوائل القرن التاسع عشر، ثم قنصلاً عاما لبلاده في الاسكندرية أيام محمد علي باشا.

وقد أقام باركر في تركية ومصر أكثر من خمسين عاماً، وكتب مذكراته في جزئين ضخمين بعنوان «سورية ومصر تحت حكم السلاطين الخمسة الأخيرين»[١] وحررهما ونشرهما ابنه «ادوارد باركر» في سنة ١٨٧٦، وهما يحتويان على معلومات تاريخية مهمة

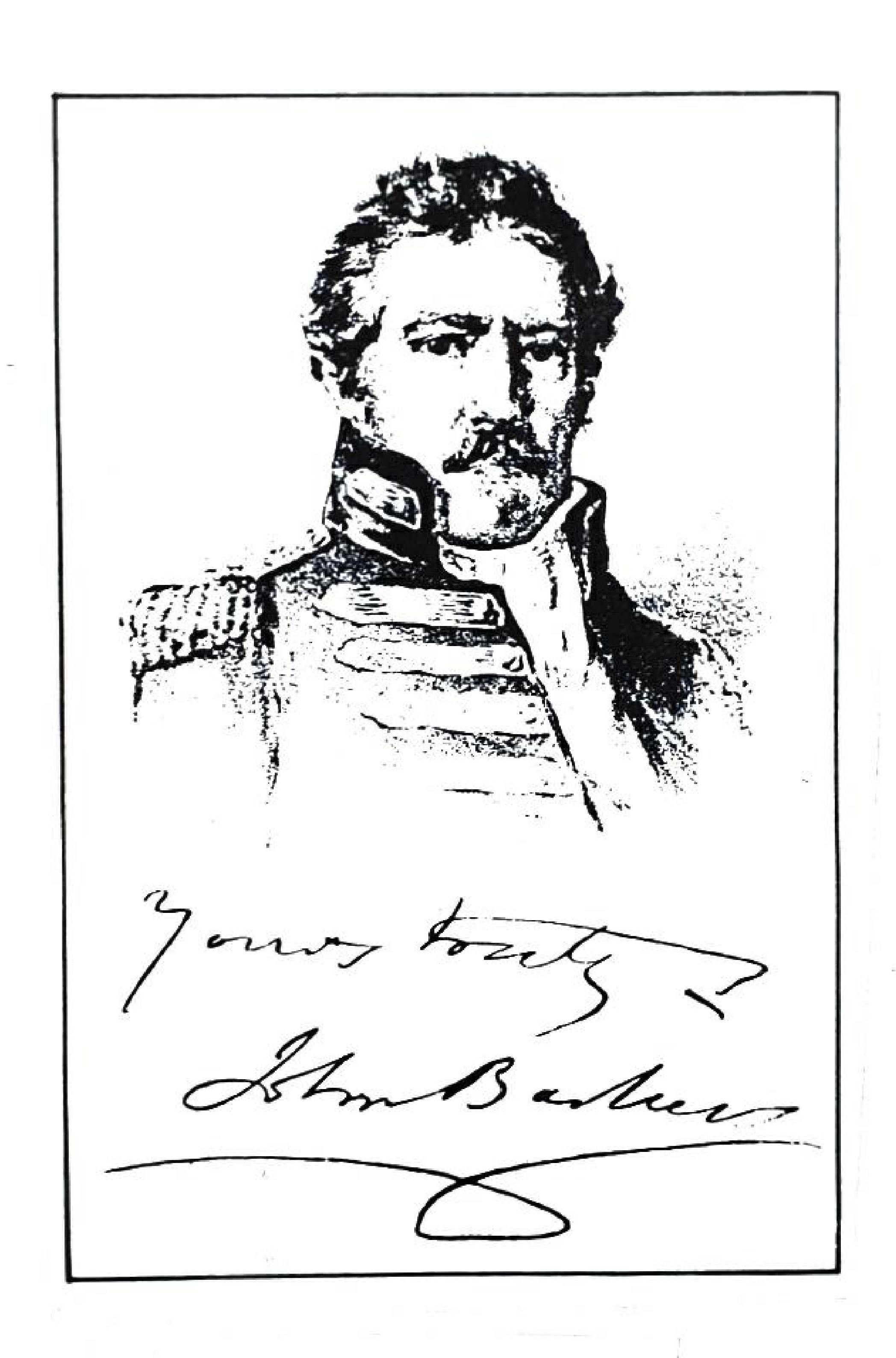
(١) Consul-General John Barker, Syria and Egypt under the Last Five Sultans of Turkey, Edited by his son Edward B. B. Barker, London, 1876.

وطريفة عن الحياة في عاصمة الدولة العثمانية وحواضرها في تلك الفترة.

ومن الذكريات التي رواها باركر في كتابه وصف مقابلة للمستر سمث، السفير البريطاني مع السلطان العثماني «سليم الثالث». وكان سلاطين آل عثمان في ذلك العهد لايظهرون لسفراء الدول الأجنبية اهتماما كبيرا، مغترّين بعظمة امبراطوريتهم المترامية، ولم يكونوا يقابلونهم الاّ نادرا، وبعد الاستعطاف الكثير والمفاوضات الطويلة والانتظار الممل، فاذا قابلوهم اصطنعوا الكبرياء، وتعمدوا استصغار شأن السفير بل إهانته. وربما كان ذلك إظهاراً لثقتهم بقوتهم، وتأكيداً لعظمتهم، وارهاباً للدولة التي يمثلها السفير.

واتفق أن «تفضل» السلطان سليم الثالث على ذلك السفير بالمقابلة أيام كان «باركر» سكرتيراً له في أواخر القرن الثامن عشر، فاستصحبه السفير مع سائر موظفيه وأتباعه كما كانت تقضي بذلك المراسم في ذلك الوقت. وقد وصف باركر في مذكراته تلك المقابلة وما جرى خلالها بالتفصيل قائلا:

«استُدعينا في الساعة السادسة صباحاً، ووُضعنا في قارب اتجه



القنصل جون باركر

بنا الى (السراى)، ونزلنا في أحد المراسي التابعة لدواوين الباب العالي. وهنا اضطررنا الى ارتقاء سلم ضيق متداع يهتز تحت الأقدام، حتى وصلنا (كشكاً) أوغرفة خشبية معلقة، مفروشة - شأن جميع الغرف التركية - بالأرائك الواطئة المنتشرة على فُرُش ضيقة في الأرض، والمحيطة بالغرفة كلها تقريبا، وخلفها وسائد مسندة الى القسم السفلي المبطن بالخشب من الجدران. وكانت الستائر من أحط الأنواع ومن أرخص المنسوجات القطنية، وكانت قذرة جداً، رثة، وممزقة في مواضع عديدة. وفي هذا المكان أُجبرنا على الانتظار أربع ساعات ونصف الساعة. وكنا محاطين برجال من شتى الأزياء، وكلهم مسلحون كما هي عادة الأتراك جميعا، وكانوا يدخنون ويتكلمون ويتضاحكون فيما بينهم، دون أن يظهروا أدنى اهتمام بنا. وأخيرا، ولما عيل صبر السفير تماما، تطوع أحد الحراس وذهب ليرى هل نستطيع أن نتقدم، وبعد مرور ما يقارب نصف ساعة عاد يبشرنا بأن أوان التحرك قد آن. فحدثت ضجة وجلبة، وكان المقصود استعجالنا لئلا نجعل أحداً ينتظر، واقتادونا الى السلم الضيق، المهتز، الخالي من السياج، مجازفين بكسر رقابنا، وبعد أن مررنا بساحة القصر الشاسعة اقتادونا الى بوابة ضخمة تؤدى الى خارج الفسحة الكبيرة، وامتطينا خيولا ذات سروج تركية مكسوة بأغطية مزركشة يقود كلاً منها مرافقان يرتديان ملابس أنيقة جدا،

فألفنا موكبا، على الرغم من أن المسافة التي سنقطعها راكبين لم تكن أكثر من مائة ذراع ولم يكن علينا إلاّ أن نذهب من باب حتى نبلغ غيره. وبعد أن تقدم هذا الموكب حوالي ثلاثين أو أربعين ذراعا صدرت الأوامر بأن نتوقف، فلم نفهم السبب في احتجازنا، ولكن بعد مرور ربع ساعة، ولعلها كانت عشر دقائق، رأينا موكب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) مقبلا من جهة أخرى، يصحبه حوالي خمسين أو ستين من الخدم والحشم، وكلهم على صهوات الجياد. فدخلوا من بوابة القصر الكبيرة، وسُمح لنا بعد ذلك أن نتبعهم.

«ولما ترجلنا، اقتادونا الى شقة ذات مظهر عادى، ولكنها واسعة. وكانت منفصلة عن الأبنية الأخرى، ومفروشة بشكل يشابه جميع الغرف في قصور تركية أو مكاتبها الرسمية، حيث ينهمك الموظفون بالكتابة، وحيث الأرائك تحيط بجوانب الغرفة جميعا، ربما باستثناء المدخل. وهنا، وبعد دخولنا مباشرة، جاء عدد من الخدم يحملون (صواني) معدنية كبيرة، عليها أطباق المأكولات المتنوعة - كانت في الواقع عشاء تركيا اعتياديا - وبعد أن تناولنا مافيها بأصابعنا، وغسلنا أيدينا، استُدعينا الى قاعة الاستقبال.



«خرجنا من هذه الشقة الى المبنى، مخترقين دهليزاً فيه نوافذ تطل على فِناء القصر، حتى وصلنا في جَلَبة، وحثٍّ على الاسراع في السير، الى باب صغير لا يزيد ارتفاعه عن أربعة أقدام، ويؤدى الى قاعة الاستقبال الكبرى. وأُلقي على كتف كل منا معطف من الفرو، على الرغم من أننا كنا في منتصف الصيف، ولم تكن فروة السفير مختلفة عن الآخرين، وأمسك بكل واحد منا رجلان طويلا القامة من الحرس وسحبونا الى الحضرة العلية مجبرين إيّانا على الانحناء لأجل المرور من الباب الواطيء، أو المنفذ الذى سبق ذكره، وجردونا من سيوفنا وسحبونا كما يُسحب المجرمون، حتى وقفنا على بعد عشرين ذراعا من العرش الذى كان السلطان سليم جالسا عليه، واضعا كلتا يديه على فخذيه. وكان الصدر الأعظم واقفا الى جانبه، على مسافة غير بعيدة منه، وفي مكان متوسط بيننا وبين العرش. ولم يحرك عظمة السلطان عضلة ولا عضوا، ولكنه رفع حاجبيه، وحرك أجفانه ببط شديد مسفراً عن عينين ساهمتين ونصف مغلقتين، وحوّل رأسه قليلاً ملتفتاً الى (الصدر الأعظم) مستفسراً: «من هذا الكافر؟» فقيل له إنه عبد أرسله ملك انكلترة لالتماس رضاه (وفي الوقت نفسه أخرج الصدر الأعظم من صدره كتاباً طويلاً مغلفا بالحرير، وكان قد أُعد مسبقا، ووضعه في يده، وقال إنها رسالة أُمر هذا العبد برفعها الى أعتاب

العرش) وانتبه السلطان بعد لحظات من التأمل كان خلالها يبدو شديد النعاس، واستدار نحو الصدر الأعظم مرة أخرى، وسأله ببط شديد: «هل أطعموا هذا الكلب، وكسوه؟»، ولما أجيب بالايجاب، قال: «حسنا».

«ولم يكد ينطق بذلك حتى سارع الخدم الذين كانوا ممسكين بأذرعنا بشدة بسحبنا الى خارج الغرفة، ونحن نمشي متراجعين، وجعلونا نحني رؤوسنا بأن ضغطوا بأيديهم على مؤخرة رؤوسنا. وعلى أثر خروجنا من الحضرة العلية نزعت عنا الفراء، وأعيدت لنا سيوفنا. واقتادونا مرة أخرى، بالمراسم نفسها، الى (الكشك) الخشبي المهتز، ولكننا لم نجتز السلالم، فقد وجدنا القوارب بانتظارنا في أسفل الكشك لتقلنا الى منازلنا.

«وينبغي أن لايفوتني أن أذكر أننا حينما كنا واقفين في حضرة السلطان كان هنالك زنجيان ضخما الجثة من أطول الرجال قامة وأقبحهم منظرا، وقد وقف كل منهما على أحد جانبي العرش، وكانا طيلة الوقت يكشران مرة ويعبسان أخرى، ويحركان وجهيهما بحركات مضحكة يريدان بها التهكم علينا، ويقولان بصوت يكاد يكون مسموعا: «كش... كش...» ومعنى ذلك «اطردوهم... اطردوهم...».

وبعـد، فلا يمكن على وجـه التحديد التثبت من صحة هذا الوصف، ولا مدى مافيه من دقة أو مبالغة، على أنه وصف يدعو الى التأمل، خاصة اذا رجعنا الى سيرة السلطان سليم الثالث، وعهده.

كان سليم الثـالث السلطـان الثـامن والعشـرين من سلاطين الدولة العثمانية، ولد سنة ١٧٦١، ووُلّي السلطنة في سنة ١٧٨٨ خَلَفا لعمه السلطان عبد الحميد الأول وهو في السابعة والعشرين من العمـر. وكـانت الـدولـة العثمانية في ذلك الوقت قد آلت الى حالـة من التدهور والبلبلة، فحاول سليم الثالث اخراجها منها، ولكن شخصيتـه لم تتـوافـر لها الارادة اللازمة، والظروف المحيطة بالـدولـة كانت أقـوى من أن يستطيـع مثله التغلب عليها. فمن جهـة، كانت روسيـا قد استـولت على القـرم، وجيـوش النمسا كانت تحتـل بلغـراد. ومن جهـة أخـرى كانت فرنسة قد احتلت مصـر، بل هاجمت دمشق أيضـا، والـوهـابيـون استـولـوا على الكعبة، ومنعوا الحجاج من الوصول اليها، كما أن والي «يانية» - «تبه دلنلي علي باشا» - قام بحركة للانفصال عن الدولة العثمانية، ومحـافـظ بلغـراد كان يحاول تأسيس دولة مستقلة عنها، وبلاد الصرب في ثورة عارمة.

وازاء هذه المشاكل الداخلية والخارجية التي أحاقت بالدولة العثمانية، لم يقدر سليم الثالث أهمية التفاهم مع روسيا والنمسا حالا، بل واصل الحرب. فلما اندحرت جيوشه أخيرا، اضطر الى عقد عدد من اتفاقات الصلح الضارة بمصلحة الدولة.

على أن سليما الثالث، كرجل دولة، لم يخل من بعض المزايا، ولعل أهم مزاياه كان ادراكه، الى حد ما، تغيرات العصر، وخاصة تقديره لضرورة إجراء بعض الاصلاحات العسكرية. وكان أهم ما حاول القيام به هو الغاؤه تنظيمات «الانكشارية» - الذين كانوا قد تجاوزوا حدودهم وصلاحياتهم، ولم يعد لهم من دور سوى الاضرار بالدولة - وتأسيسه تشكيلات عسكرية جديدة، أو جيش نظامي، عرف باسم «نظام جديد». كما أنه أنشأ كثيراً من الثكنات العسكرية منها ثكنة «السليمية» القائمة حتى الوقت الحاضر، وقدر أهمية العلوم الحديثة في شؤون الحرب والستراتيجية، فأسس «المهند سخانة»، واستقدم عدداً كبيراً من المهندسين من فرنسة.

ولكن سليم الثالث كان ضعيف الشخصية، لين العريكة، متساهلا، وفي الوقت الذى كان فيه بامكانه القضاء على «الانكشارية» بحركة آنية وخاطفة، فانه فضل تحقيق ذلك

بصورة تدريجية ومسالمة، حتى قام أخيرا عصيان «قاباجي» الذى انتهى بخلعه وتنصيب «مصطفى الرابع» بمكانه في سنة ١٨٠٧. وقد حاول «عَلَمدار مصطفى باشا» القيام بحركة عسكرية لاعادته الى العرش، واحياء «النظام الجديد»، وتنفيذ اصلاحات سليم الثالث الأخرى، فدخل استانبول على رأس قوة كبيرة، ولكنه حينما وصل الى قصر «طوب قابو» وجد أمامه جثة سليم الثالث ممزقة، اذ أن حركة مصطفى باشا كانت قد بلغت مسامع مصطفى الرابع، فأمر بقتل سليم الثالث حفاظا على عرشه وربما حياته أيضا.

وكان سليم الثالث بالقياس الى غيره من سلاطين آل عثمان، وبالنسبة لزمانه، يُعد من السلاطين المثقفين والمستنيرين، وكان ينظم الشعر ويهوى الموسيقى. وتعد قدرته الموسيقية بصورة خاصة، والالحان التي وضعها، بين أرقى آثار الموسيقى التركية الكلاسيكية. وله أيضا قصائد كثيرة لها مكانتها في الأدب التركي، وله ديوان غير مطبوع.

إن مقارنة هذه الصفات التي عرفت عن السلطان سليم الثالث، بما جاء في وصف سكرتير السفير البريطاني وطريقة مقابلته للسفير تدعو الى كثير من الشك والحيرة. وعلى الرغم

من أن التقاليد المتبعة والمألوفة في عهد من العهود تتحكم كثيراً في المقابلات الدبلوماسية، الاّ أن الجانب الانساني لا يختفي أثره تماما في تصرفات سلطان كان يعد متحرراً بالقياس الى عصره، بل سابقاً لزمانه، ذلك السبق الذى كلفه عرشه، ثم حياته.

مذكرات نابليون

أحدثت المذكرات التي نسبت الى هتلر ضجة عالمية كبرى، وشغلت صحافة العالم أياماً وأسابيع، الى أن ثبت بالدليل العلمي القاطع -أو هكذا قيل- انها كانت من أكبر عمليات التزوير في التاريخ، وان كانت فيها جوانب ما تزال غامضة تبعث على الحيرة والتساؤل.

ولا شك أن مذكرات الساسة والقادة -الطيبين منهم والأشرار- مصدر مهم من مصادر التاريخ، بل هي -بالتعبير الاكاديمي- من المصادر الأولية، ولكنها مع ذلك ليست مصدرا قاطعا ولا نهائيا، لأنها لا تتصف بالموضوعية، ولا ينبغي لها، وانما هي تعبير شخصي، ودفاع ذاتي، وتبرير لأعمال صاحبها من وجهة نظره الخاصة. ولو حاول صاحب المذكرات أن يكون

موضوعيا، لانتحل لنفسه صفة المؤرخ، وبذلك تفقد المذكرات قيمتها.

وكلما تعددت المذكرات عن الحادث الواحد، أو الفترة التاريخية الواحدة، ازدادت الحقائق ظهورا، والملامح وضوحا. وهنا يأتي دور المؤرخ الحصيف الذى يدرس كل هذه المذكرات -مضافة الى مصادره الأخرى- ويقابلها ببعضها، فيستخرج منها ما يستخرج، ويستنتج ما يستنتج، ويحاول التوصل الى الحقائق التي يبحث عنها، أو التقرب اليها بقدر الامكان.

ولكن ما الذى كان يحدث عملياً لو انطلت مذكرات هتلر المزيفة على الناس، ولم تخامرهم في صحتها الشكوك، ومضت صحف العالم في نشرها أسبوعا بعد أسبوع، وجزءاً بعد جزء، وأصبحت مصدراً ثابتاً من مصادر تاريخ الرايخ الثالث؟

أي أثر كانت ستترك، والى أى مدى كانت ستغير من تاريخ المانيا وتاريخ العالم؟

تواردت هذه الخواطر وغيرها على ذهني وأنا أقلب بهذه المناسبة مذكرات قائد طموح آخر، وان كان يختلف عن هتلر في

ناحيـة واحـدة، ولكنها جوهرية، وهي أن أمته تفخر به، وتعده من أعظم عظـمائهـا، ومن صانعي أمجـادهـا، بينـما تحاول المـانيا التنصـل عن أعـمال «الفـوهـرر» العاثر الحظ الذى كانت تدين له بالولاء يوما ما، وتعده منقذاً لألمانيا، بانياً لمجدها.

ذلـك القـائـد الـذى كان حظـه من حكم التـاريـخ أحسن، ونصيبـه من تقـدير أمته أكبر -هو نابوليون بونابارت. وقد صدرت الطبعـة الانكليـزية من مذكراته في سنة ١٩٤٨، وأعدها الكاتب «سـومـرست دي شير» -وهـو معـروف لدى القـراء العـرب، والعـراقيـين بصـورة خاصة، بكتابه «البساط الذهبي» الذى كان من أوائـل ما كتب عن ثورة مايس والحـرب العراقية - البر يطانية في سنة ١٩٤١. وهذه المذكرات التي أعاد تحريرها وترتيبها حسب تسلسلها التاريخي، هي مذكرات نابوليون التي أملاها بنفسه وهو في منفاه في جزيرة القديسة هيلانة، وأراد بها أن تكون -شأن جميع المـذكـرات- تبر يـراً لأعـماله بما فيهـا من انتصـارات باهرة، وانكسـارات هائلة، تبر يـر العبقـرى السياسي والعسكرى الذى كان المفـروض -في نظـره- أن ينتهي كل ما أقـدم عليـه بانتصـار لاريب فيه.

وتعـد هذه المـذكـرات من المـراجـع التاريخية الخطيرة، ومن

المؤسف أن يتوقف سردها مع عام ١٨٠٠ - بعد معركة «مارينكو»، فلا تستأنف الا لتتحدث عن عودة نابوليون من جزيرة «ألبا» في سنة ١٨١٥.

وفي هذه المذكرات يصور نابوليون نفسه بالصورة التي يريد للعالم أن يعرفه بها: رسولاً من رسل العدالة والحرية، يهدف الى النصر عن طريق الخير والكرم، وليس باراقة الدماء، ومنقذاً لأمة من أعظم أمم العالم، يستقبل حيثما يذهب بالأعلام المرفوعة، والأجراس التي تقرع، والتبجيل لمواقفه الانسانية والخيرية.

على أن هذه الصورة التي كان نابوليون يريد أن يرسمها لنفسه فيها الكثير من التزويق والتنسيق، ومحاولة التقرب الى المثالية والكمال.

ففي صبيحة معركة «واترلو» - التي قررت نهايته - نجده يؤكد لأحد قادته أن الجنرال الانكليزى «ويلينغتن» قائد سيء، وأن القوات البريطانية قوات رديئة، وأن اندحارها أمر مؤكد. وهو يصرح أن «ويلينغتن» قد قذف بالزهر، «فكان رقمنا هو الرابح». ويضيف قائلا: «إن جيش العدو يفوق جيشنا بمقدار ربع

عدده تقريبا ، ولكن احتمالات انتصارنا هي تسعة ، مقابل واحد لهم » .

إنه حين كان يستعيد ذكرياته عن المعركة ، وهو يملي هذه المذكرات في جزيرة القديسة هيلانة على بعض رجاله ، رفض أن يعترف بأن انتصار «ويلينغتن» في «واترلو» كان نتيجة القيادة الجيدة ، بل عزاه الى أن غريمه لم تكن لديه أية خطوط للتراجع ، ولذلك فانه لم يجد مهربا ، وأن كل عمل أتاه كان مغلوطا :

«فالجنرال الانكليزي بدأ المعركة في واترلو في الثامن عشر من الشهر ، وكانت هذه العملية ضارة بمصالح بلاده . ومناقضة للخطة العامة التي تبناها الحلفاء للحملة - انها خرقت كل قوانين الحرب» . ويواصل اتهاماته قائلا :

«ان موقع (مون سان جان) كان اختيارا سيئا . فالشرط الأساسي الأول في اختيار ساحة المعركة هو أن لاتكون خلفها ممرات ضيقة أو عقبات تعيق التراجع عند اللزوم ، وخلال المعركة لم يعرف الجنرال الانكليزى كيف يستفيد من قواته (الخيالة) الكثيرة العدد ، ولم يتوقع الهجوم عليه من اليسار ، بل ظن أنه

سيهاجَم من اليمين. وعلى الرغم من الالتواء الذى تم لصالحه من جانب قوات الجنرال (بولو) البالغ عددها ٣٠ ألفا من الرجال البروسيين، فانه كان قادرا على التراجع لو أتيح له ذلك. وهكذا -ويا للمفارقة في شؤون البشر- فان سوء اختياره لساحة المعركة، الذى جعل التراجع مستحيلا، كان سبب نجاحه.

ومع ذلك، فعلى الرغم من كل ما حاول نابوليون أن يبرر به أعماله، ويرسم لنفسه صورة البطل ذى القلب الطيب، والنوايا الحسنة، والمثل العليا، فاننا نتبين بين السطور ملامح نابوليون المخادع الذى ليست له مبادىء حقيقية. وتظهر تلك الملامح على أوضحها حين يحاول أن يخدع المصريين خلال حملته المشهورة، بأنه حامي حمى الاسلام والمسلمين، وأن الجيش الفرنسي كان راغباً في اعتناق الاسلام لولا سببين أوقفاه عن ذلك: أولهما (الختان)، والثاني تحريم الخمر الذى هو «مشروب لا يستطيع الجندى الفرنسي الاستغناء عنه».

وهو يقول إن أئمة المسلمين حاولوا أن يجدوا الفتوى التي تمكنه من اجتياز هاتين العقبتين، فقالوا «.. لما كان الختان سُنّة فقط -وليس فرضاً- فانه ليس شرطا ضروريا للدخول في الاسلام. ولكن ليس للمسلم في هذه الحالة أن يتوقع الذهاب الى الجنة».



نابليون بالعمامة

وهكذا زال نصف المصاعب. أما (الخمس)، فانهم قالوا -على ما يزعم نابوليون- إن من الممكن أن يكون المرء مسلماً ويشرب النبيذ بنفس الوقت. . . بشرط أن ينفق خُمس دخلهِ- بدلا من عُشره - في الزكاة والخيرات . . . »

وهنا يظهر نابوليون مجانباً للصدق، إذ ليس من المعقول أن يكون هنالك إمام أو مفتٍ تصدر عنه مثل هذه الفتوى -وخاصة في ذلك العهد- ولو دفع الشارب كل دخله للزكاة، لا خُمسه فقط.

وهو يقول بعد ذلك إنه وعد ببناء مسجد « . . لتخليد ذكرى دخول جيشي في الاسلام» ثم يفسر ذلك قائلا: «كل ما كنت أريده هو كسب الوقت. . » ويضيف:

«كان هذا هو أسلوب التصرف الذى حاولت أن أتبعه على الدوام للتوفيق بين تصميمي البقاء في الديانة التي ولدت عليها، ومتطلبات سياستي وطموحي».

ولست أدري هل كان نابليون يبتسم حينما كان يملي هذه الرواية الغريبة. والواقع أنه كان واهماً إذا كان يعتقد بأن شيوخ

الأزهر، ومن ورائهم المصريين، كانوا مصدقين إدعاءه الاسلام، اذ أنهم كانـوا مقتنعـين تمام الاقتنـاع بأن نابوليون وعسكره ما هم جميعا في الحقيقة الاّ منافقين[1].

وتضيف المـذكـرات في سائـر أقسـامهـا خطـوطـاً أخرى على ملامح نابوليون الذى قال عنه قاهره «ويلينغتن»: «إن حضوره في ساحـة القتـال كان يعـادل، في تأثـيره، وجـود ٤٠ ألف جنـدى إضـافي»، ملامح «الممثل» العبقرى الذى خاطب جنوده قبل بدء معركة الأهرام (أو معركة أمبابة) قائلا:

«ان أربعين قرناً تطل عليكم من ذرى هذه الأهرام»

ولا يتـمالـك المرء نفسه عن التساؤ ل وهو يقرأ هذه المذكرات: ترى ماذا كان هذا الـدكتـاتـور الغريب سيصنع بأوربا لو وجد «ويلينغتن» سبيـلا الى الهـرب في «واتـرلـو»؟ والى أى مدى كان تاريخ أوربا سيختلف لو تحققت أحلام هذا القائد الطموح؟

---

(١) F. Charles - Roux, Bonapart Gouverneur d'Egyp te, Paris, 1935, PP. 79 - 83

فهرس الأعلام

(ي)

(اســـتدراك)

أن الوثائق الأربع التي وردت في ملحق الفصل المعنون:
«مقتل الملك غازي في الوثائق البريطانية» (ص ١١٢ - ١٢٤)، سقطت منهـا مع الأسف أرقـامهـا التي يستطيع من يرغب في مراجعتها أن يستدل بها عليها في دور الوثائق البريطانية، ولذلك ندونها في أدناه معتذرين لهذا السهو:

الوثيقـة رقم (١):

برقيـة من المسـتر هيـوستن بوزويـل (بغـداد) الى وزارة الخارجية، بلا رقم، مؤرخة في ٤ نيسان **١٩٣٩** (ص ١١٣):

وثائق وزارة الهند: IOR L/P & S/ 12/ 2861 (2154)

الوثيقـة رقم (٢):

برقيـة من المستر هيوستن بوزويل الى وزارة الخارجية، مرقمة **١٠٨** ومؤرخة في ٤ نيسان **١٩٣٩** (ص ١١٤):

وثائق وزارة الهند: IOR L/P & S/ 12/ 2861 (2162)

الوثيقـة الرقم (٣) :

برقيـة من وزيـر الخـارجيـة الى المستر هيوستن بوزويل مرقمة **١١٢** ومؤرخة في **٤** نيسان **١٩٣٩** (ص **١١٥**) :

وثائق وزارة الهند : IOR L/P & S/ 12/ 2861 (2183)

الوثيقـة رقم (٤) :

تقرير سري من المستر هيوستن بوزويل الى اللورد هاليفاكس رقم **١٥٣** ومؤرخ في **١١** نيسان **١٩٣٩** (ص **١١٦**) :

وثائق وزارة الهند : IOR L/P & S/ 12/ 2861 (4035)

مـلاحظــة : استخرجنا هذه الوثائق من مركز وثائق وزارة الهند في لنـدن ، ورقم هذه الـوثيقـة الأخـيرة (رقم ٤) في سجـلات وزارة الخارجية هو:

E 2820/ 72/ 93

كتب أخرى للمؤلف

اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى (١٩٦٧)
العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب (١٩٦٩)
حكـايات دبلوماسية (١٩٧٠)
بيرو بيجان: التجربة السوفيتية لانشاء وطن قومي يهودي (١٩٧٣)
جهاز الدبلوماسية الاسرائيلية وكيف يعمل (١٩٨٣)
العراق في الوثائق البريطانية: سنة ١٩٣٦ (١٩٨٣)

تصميم الغـلاف : الفنانة فـردوس حبيب

مطبعة اشبيلية الحديثـة

بغداد

هـاتف ٨٨٨٧٧١١

السـعر ٢٫٠٠٠ دينـار